الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين

العقل الإسلامي

قرآني - علمي - سياسي

بسم الله الرحمن الرحيم

حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم



الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين

العقل الإسلامي

قرآني - علمي - سياسي

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ * والكتٰب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أمِّ الكتٰب لدينا لعلي حكيم *





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب / ٢٥/٤٠ غبيري فاكس / ٦٠١٠١٩

تلكس / ٢٣٤٠٧ هادي - بيروت - لبنان

الفهرس

٩

بين يَدَيْ القِيامَتين

رسالة

١٠

١١

١٢

بين يدي كتاب «العقل الاسلامي»

بقلم الدكتور علي مقلد

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه الأبرار

الحمد لله

وبعد

تيسر لي بحمد الله مراجعة كتاب **«العقل الإسلامي»** للعلامة الشيخ عبدالكريم آل شمس الدين. وأحب أن أدوّن مشاعري بعد أن انتهيت من قراءته الأولى وأقول الأولى لأني أرغب إن تيسر لي الأمر في مطالعته ثانية وأكثر.

فالكتاب يعطي القارىء نفحة إيمانية فريدة.

وبتواضع أقول إني مكرّس وقتي لمراجعة الكتب الدينية بمذاهبها المختلفة وبخاصة الأحاديث النبوية الشريفة. ولكني لم أحسّ بعظمة التوحيد وأهميته في الإسلام كما أحسسته عند مراجعة هذا الكتيب الصغير الحجم إذا قورن بغيره في موضوعه.

فهل سرّ هذا الكتاب نابع من بلاغته.

والبلاغة حسن الأداء بأخصر الكلام وأوجزه.

هل في الكتاب أسرار من القرآن، والآيات القرآنية لحمته وسداه ومبدأه ومنتهاه. والقرآن لا تنضب معاجزه.

ــ هل في الكتاب ارتقاء في فهم مراتب التوحيد إلى أعلاها.
وللتوحيد كما هو معلوم مراتب أربع وربما أكثر:

ــ توحيد المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم التوحيد وقلوبهم خالية منه.

ــ توحيد المقلدين الذين يذكرون التوحيد بألسنتهم ويؤمنون به لا عن تفكير بل بالوراثة وبحكم مماشاة الناس فيما يقولون.

ــ توحيد الممحِّصين الذين يحاولون جهدهم الاهتداء إلى أدلة عقلية صحيحة تثبت ما ورثوه من معتقد بالتوحيد. وهؤلاء تحكمهم مخافة الله وتقواه فهم يسألون الله الهداية إلى صراطه المستقيم وهم على خوف دائم من أنفسهم وعلى إيمانهم أن ينازعهم الشيطان فيه.

ــ وأخيراً توحيد العارفين، وهم الذين تجاوزوا مرحلة الشك إلى اليقين، فأعانهم الله عز وجل على أنفسهم فأزهر مصباح الهدى في قلوبهم، وخلعوا سرابيل الشهوات من نفوسهم، أبصروا الطريق المستقيم فسلكوه مطمئنين.

وسيكون واضحاً لمن يطالع هذا الكتاب بتجرد من أية رواسب أو تعصب لغير الله، أو هوىً مضل، أو مزاجية سوداوية، أن الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين واحد من هذه المرتبة، مرتبة العارفين الذين هزموا الشيطان بعون ربهم ووهبوا أنفسهم لله عز وجل وتبارك وتعالى.

هل سر الكتاب كان في الروح الإشهادية والاستشهادية المنبعثة من طياته فكأن الشيخ شدته أكثر من غيره في عصره تكاليف آيات الإشهاد والاستشهاد الواردة في القرآن الكريم:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس...﴾.
(البقرة/١٤٣)

﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظلمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكفرين﴾. (آل عمران ١٤٠ ـ ١٤١)

فكلمة شهداء في الآية الثانية لها معنيان: الأول الذي في الآية الأولى وهو الإشهاد، والثاني هو الاستشهاد أي بذل النفس في سبيل الله على سن رمح أو سيف أو على سن قلم، أو كلا الجهادين الأصغر والأكبر معاً. ويبدو أن الله عز وجل أراد هذه الملابسة بين المعنيين، أي بين الجهادين وغاية كل منهما.

وهنا تتجلى روعة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الشأن:

«مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» أو كما قال صلى الله عليه وآله. ونفس هذا الذي نقوله نجده تقريباً في جميع الآيات التي وردت فيها كلمة شهادة أو شهيد أو شهداء. ونكتفي للدلالة بالآيتين التاليتين، قوله تعالى:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾.

(الزمر/٦٩)

وقوله عز وجل:

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يَكُنْ غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

(النساء/١٣٥)

ويكاد قارىء **«العقل الإسلامي»** يشك بين كون الكاتب، بسيف كتب أم بقلم، وبحبر غمس أم بدم كربلائي.

بل هو التوحيد في الكتاب فوق كل شيء، يقيناً إن السر هنا في معطيات الكتاب: في جمال ديباجته وعمق مضامينه. والسر هو توفيق الله وتأييده وتسديده للشيخ المؤلف.

وهذا الكتاب بما فيه من دعوة إلى الله الذي هو غاية الغايات، خير شاهد على أن الله سبحانه يهدي إلى مقاليد أرضه وسماواته من يخلص له نيته وقلبه وعبادته في كل زمان ومكان، ومن هذه المقاليد، القلم:

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾.

(القلم/١)

والملاحظ والمعلوم، أنه عز وجل يقسم بكثير مما خلق، ولكن يقسم بما هو حق وبما هو خير. وهو إذ يستحيل أن يقسم بباطل، فإن قسمه إذن (... وما يسطرون) يعني ما يسطرون من الحق وما يسطرون من الخير وما يسطرون من الجمال الذي لا فحش فيه ولا رذيلة (ولا جدال بالباطل ليدحضوا به الحق) ولا كفر ولا شرك، ولا تهتك ولا تميّع ولا فلتان، ولا بدع في الدين ولا ضلالات.

وتبقى **﴿ن والقلم وما يسطرون﴾** أوسع وأرحب مساحات من مساحة الفن للفن والفكر الضارب خبط عشواء. فـ(خبط عشواء) تبقى مهما حلّق فيها الفكر وجنّح فيها الخيال محصورة تحت هذه السماء الدنيا، بينما مساحات ومسافات **﴿ن والقلم وما يسطرون﴾** عرضها السماوات والأرض (من فعل عرض وليس العرض مقابل الطول) أعدت للمتقين، يجوبونها بالفكر وبالخيال، وبعضهم بالنفس وبالروح، ثم يوماً ما - لجميع أهل الزلفى - بالواقع الحسي المطلق الجناح والجمال.

وفي جميع هذه الحالات يعطون مقاليدها أو من مقاليدها:

﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمٰلهم وهم لا يظلمون﴾.

(الأحقاف/١٩)

وهكذا نجد الكاتب والكتاب في ظل هذه الآية الكريمة **﴿نٓ والقلم وما يسطرون﴾**، يستعرضان الكون الأرحب، ومنه السبع سماوات وما فيهما وما بينهما، دليلهما الأوثق، هادياً ومسدداً ومعلماً ومرشداً، كلام الله: أي

القرآن الكريم. ترى ذلك في مواضيع الكتاب التالية:

* (القرآن بين العقل والكون).
* (كتابان في كتاب الله: القرآن والفلك).
* (القرن العشرون الميلادي في مواجهة أشراط الساعة).

ـ فهل هذا الذي ذكرت هو سر الكتاب، أم أن سر الكتاب يكمن في قدرته على شدّ القارىء كي يمعن النظر جيداً في مصيره في الدنيا وفي الآخرة، هذا المصير الذي يتهرب كل منا من النظر فيه مخافة أو جهلاً أو تقصيراً.

ـ أم تصديه لمواضيع تلحّ في أذهان الخاصة ولكنهم يتهربون منها إلى التلهي بطروحات لا تجرح الرأي العام: كموضوع: القرآن والعلوم الحديثة، القرآن والحضارة، القرآن وعلم الفلك.... وبخاصة موضوع المهدي: وأن الله عز وجل هو صاحب العصر والزمان دون غيره.

لا شك أن فرادة الكتاب وجاذبيته تكمن في كل ما ذكرنا. ولكن سرّ سره، هو أن الكاتب انطلق فيه مسترشداً بالله وحده دون جميع خلقه، ولم لا، وهو سبحانه يقول:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾.
(الطلاق/٣ ـ ٣)

أما غايته من كتابه هذا كما بدا لنا، فهي أولاً أن يرفع إليه حبه الأعظم، ثم المحبة المخلصة للناس، محبة الشاب المندفع بإخلاص، محبة العالم الموحد المخلص في توحيده لله، محبة الإنسان المحب للإنسانية جمعاء.

يوضح ذلك، ما أوجزه هو في مقدمته التي هي مناجاة محب مهاجر إلى حبيبه، أكثر مما هي مقدمة للكتاب، وفيها يسأل ربّنا الكريم: (فاجعل

اللهمّ هذا الكتاب سبيل هداية ورحمة ونجاة، ورفع درجات لعبادك).

فمن كـان الله هاديـه ودليله، ومن كان الإخـلاص في العمـل سبيله، ومحبة الناس بغيته، فإن التوفيق سيكون حليفه إن شاء الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم
باسمك الأعظم وباسمك الأكرم

يا حبيباه يا الله يا ربَّاه

أنت وليي في الدنيا والآخرة.

بك اهتديتُ، وبنعمتك أصبحتُ وأمسيت.

فمما وهبتني، ومما علمتني، ومما تفضلت عليّ، هذا الكتاب. أسألك بكرم وجهك الذي تحِنُّ إليه قلوب أوليائك في الدنيا والآخرة، ويستنيرُ به المستنيرون من أهل السموات والأرض، أن تتقبل مني هذا القربان، أتقربُ به لوجهك الكريم.

يا حياة قلبي، ونور بصري وبصيرتي، وروحي وراحتي، ودنياي وآخرتي، ويا ربي، أنت حسبي وحدك لا شريك لك.

فاجعل اللهم هذا الكتاب، سبيلَ هدايةٍ ورحمةٍ ونجاةٍ، ورفعَ درجات لعبادك.

أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك. لا أحصي عليك ثناءً، أنت كما أثنيتَ على نفسك، لك الحمد ولك الشكر.

وبأسمائك الحسنى، وبالإسم الأعظم جامع الأسماء، وبك اللهم أسألك، بحقك وقدسك وبحق لا إله إلا أنت، أن ترحمنا، وتعفو عنا،

وتـوفقنا لـطاعاتـك، وتجنبنا معـاصيك، وتؤيـدنا بنصـرك، وتفتح لنـا الفتـح المبين.

لك الحمد وسلام على عبادك الذين اصطفيت.

لك الحمد ولـك الشكر كمـا حمدت نفسـك، وكما شكـرت نفسك، وكما ينبغي لكرم وجهك.

عبدك يا لا إله إلا أنت يا أكرم الأكرمين

عبد الكريم آل شمس الدين

(١)

﴿وعَدَ اللَّهُ الذِيْنَ آمَنُوا.. لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ﴾

ودمّر الله الاتحاد السوفياتي: نصف العلم الجهنمي فإلى متى النصف الآخر؟!

﴿... فَرِحوا بِمَا عِنْدَهُمْ من العِلْمِ وحَاقَ بهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونْ. فَلمَّا رَأَوْا بأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وحدَهُ وكفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِيْنَ. فَلَمْ يَكُ ينفعُهُمْ إيْمَانُهم لَمَّا رَأَوْا بأْسَنا سُنَّتَ، اللَّهِ التي قَدْ خلَتْ في عِبَادِهِ وخَسِرَ هُنالِكَ الكَـٰفِرُونَ﴾. (٨٥: غافر).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ﴾

(النور: ٥٥)

ومزق الله الاتحاد السوفياتي: نصف العلم الجهنّمي فإلى متى النصف الآخر..

﴿أَوَلَمْ يَسِيْرُوا في الأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبةُ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أشدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثاراً في الأرضِ فأَخَذَهُم اللَّهُ بِذُنُوبِهِم وَمَا كَان لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[1].

أما نحن المسلمين في أقطار الدنيا، فهل من فائدة أن نقول بعد كل كشف من كشوفهم، كنا نعلم هذا، وفي قرآننا المجيد ذاك، وفي إخبار نبينا صلى الله عليه وآله وأئمتنا نبأ ذلك؟!.

لا ريب أن معارفنا وعلومنا الأصيلة، تفتح أمام عقولنا المسلمة لله، أبواباً فيها الضوءُ وفيها اليقينُ، مما يجعلُ النفسَ في عافيةٍ، فتشعرُ بالطمأنينةِ إلى المصير، انطلاقاً مِنْ الثقةِ الكاملةِ بأنَّ وعْدَ اللَّهِ حَق:

﴿يَا أَيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوماً لا يَجْزِي والدٌ عَنْ ولدِهِ ولا مَوْلودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ والدِهِ شَيْئاً إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ..﴾[2].

وصحيح أن قوماً صبّوا كل اهتمامهم على عمارة الدنيا، وبنوا لذلك

---

(١) سورة غافر، الآية ٢١.

(٢) سورة لقمان، الآية ٣٣.

المشاريع والمصانع وهم أهل ظلم وبطش وطغيان، كأهل مدنية اليوم، أنذرهم الله بقوله عز شأنه:

﴿أتَبْنُونَ بكُلِّ رِيْعٍ آيةً تَعْبَثُونَ. وتَتَّخِذُوْنَ مَصَانعَ لعلَّكُمْ تَخْلُدُوْنَ. وإذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارينَ﴾(١).

ولما لم يرعووا ولم يقلعوا عن طغيانهم وكفرهم، أرسل عليهم عذاباً استأصلهم من جذورهم، وجعل مدنهم ومدنيتهم قاعاً صفصفاً..

ولكن ذلك يجب أن يكون حافزاً للمسلمين على تطهير أنفسهم، وتطهير كل الأرض، وبنائها في مرضاة الله تبارك وتعالى:

﴿مُنِيْبِيْنَ إليهِ واتَّقُوْهُ وأَقِيمُوا الصَلَوٰةَ ولا تَكُوْنوا مِنَ المُشْرِكِيْنَ مِنَ الذيْنَ فرَّقُوا دِيْنَهُم وكانوا شِيَعاً كلُّ حِزْبٍ بما لديْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٢).

فإن الله عز وجل لتشريف عباده المؤمنين ولتزكيتهم لا يرضى لهم حتى السكنى في منازل أهل الجور والفساد والطغيان. فهو سبحانه في سياق إنذار للناس يوم يأتيهم العذاب يقول عز شأنه:

﴿وسَكَنْتُمْ في مَسَاكِنِ الذينَ ظَلَموا أنفَسَهم﴾(٣).

وللقيام بمهمة تطهير الأرض وإصلاحها، يجب الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، حتى إذا لم ينفع ذلك كله، قضى الله للمسلمين إصلاح الأرض وعمارتها على أنقاض الذين ظلموا أنفسهم والمستبدين والحاقدين على شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا الوعد بمنزلة القضاء المبرم، لمصلحة المجاهدين في سبيل الله، وذلك في قوله عز وجل:

﴿يأَيُّها الذين آمَنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دينِهِ فَسَوْفَ يأتِي اللَّهُ بِقومٍ يُحِبُّهُم

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٢٩.
(٢) سورة الروم، الآية ٣٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية ٤٥.

ويُحِبُّوَنَه أذلةٍ على المؤمنينَ أعِزَةٍ على الكافرينَ يجاهدونَ في سبيلِ اللَّهِ ولا يَخَافون لومةَ لائمٍ﴾[١].

وقوله تبارك وتعالى:

﴿هو الذي جعَلكُم خلائفَ في الأرضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعليْهِ كُفْرُه ولا يَزِيْدُ الكـٰفِرِيْنَ كُفرُهُمْ عِنْدَ ربِّهم إلَّا مَقْتاً ولا يزيدُ الكـٰفِرينَ كفرُهُم إلَّا خَساراً﴾[٢].

وطبعاً المقصود بالكافرين هنا جميع أنواع ودرجات الكفرة حكاماً ومحكومين، مضافاً إليهم كفرة المسلمين، بين مرتد ومنافق، وجانح ومنحرف، ومحازب لغير الله رب العالمين:

﴿ولكلٍّ دَرجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ولِيُوَفيَهُم أَعْمَـٰلهمّ وَهُمْ لايُظْلَمُونَ﴾[٣].

* * *

قد يبدو هذا الأمر، وكأنه حلم بعيد المنال، ولكن نظرة عبر المعادلات الإلٰهية، أقلها في تاريخ ما بعد الإسلام، تثبت حقيقة ما نعتقد ونقول. فقد اجتمع أهل الأرض قاطبة على محاربة دين الله الذي أَرْسَلَ به محمداً صلى الله عليه وآله، وما تركوا وسيلة فكرية ولا مالية ولا عسكرية، إلا شنوا بها حملات غزو شرسة على الدين الحنيف. فماذا كانت النتيجة؟ كانت أن سقط الفكر الغنوصي في فارس بعد أن حكمها دهراً، وحاول دهاته وفلاسفته بأمضى أقلامهم أن يجرحوا وجه الإسلام الوليد، فتحطمت الأقلام، وأصبحت الغنوصية والمانوية والمذاهب الإثنيَّة كأنها لم تحكم في الدهر، وغدت نسياً منسيّاً. ومع ركيزة تلك الحضارة سقطت عسكريتها الضخمة، التي كانت تحكم أكثر من نصف العالم. والعجيب في الإسلام الوليد أنه استطاع أن يمضي قدماً دون أن يعلق بأذياله شيء من الشرك التي حملته تلك الفلسفات إلى اليهودية

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٩.

(٣) سورة الأحقاف، الآية ١٩.

والنصرانية، فأزالتهما عن مبدأ التوحيد الإلٰهي، وأسقطتهما بتعدد الآلهة، فضلاً عن القدرية والجرح في عدل الله، وكذلك الكذب عليه سبحانه، وتحريف الكلم عن مواضعه.

كذلك كان وقوع الإسلام بين فكي كماشة اليهودية والنصرانية، حتى تخلوا عن البقية الباقية من دينهم السماوي، بسبب الحقد والحسد، الذي يأكل الدين كما تأكل النار الحطب. فكان لهم من الله الوعيد بالخزي والهلكة، وللذين اتبعوا قرآنه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وأوليائه عليهم السلام الذين قال فيهم سبحانه:

﴿مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عليهِ فمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نحبَهُ ومِنْهُمْ مَنْ ينتظرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيْلا﴾[١].

كان وعده بإكرامهم في الدارين، وإدراجهم في سلسلة الأنبياء والأولياء، والشهداء والصديقين. يستفاد ذلك كله من الهجمات الفكرية والعسكرية، إلى الهجمات النفسية والحصارات الاقتصادية، عبر التاريخ على الإسلام. ثم اطمئنان المسلمين رغم ذلك كله إلى النصر من قوله عز وجل:

﴿يريدونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُوْرَ اللَّهِ بأفواهِهِمْ، ويَأْبىٰ اللَّهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكـٰفرونَ﴾[٢].

فبناء على هذا يجب على المسلمين أن يوقنوا بالنصر المحتوم، والمتوقع قريباً بإذن الله المجيد، بناء على امتلاء الأرض بالكفر والضلالة، وتفرد المسلمين بالتمسك بالدين الحنيف، وكذلك تفردهم بأنهم أصحاب الدين الوحيد في الأرض الذي يملك كتاباً سماويّاً صرفاً، لم يحرّف ولم يعدّل ولم يبدّل، ولعل ذلك ـ إضافة إلى فكر التوحيد ـ أهم ركيزة حضارية، من شأنها أن تحفظ الحضارة المبنية على أساسها في رضى خالق الكون وحاكمه. فتجنبنا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٣.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣٢.

سخطه وغضبه، المتمثل عادة بالقصف والخسف والإغراق والحريق والدمار، وأحياناً بالإبادة.

وهكذا ومن هنا البداية..

فنحن اليوم في صراع مع أعتى الدول المعادية للإسلام. أمَّا الأخذُ بأسباب القوة الظاهرية، من بأس وإقدام، وتنظيم وتدريب، وحصر أهداف، واعتماد سياسة حكيمة، تهادن هذا لتتفرغ لذلك، حتى إذا كسرت شوكة الأعتى، عادت للأدنى خطراً. كما وعلينا وضع الخطط، فضلاً عن التسليح، واحترام السلاح والذخيرة. ومعرفة أن المراد بها دفع الأعداء وقتلهم إضافة إلى اختيار قياديين مخلصين، لا يغيرهم بريق المنصب ولا إغراء المال، ولا يعميهم حب الأهل والعشيرة، والمزاحمة على القيادة والمكاسب، والتعبد لذواتهم والاغترار بها، إلى آخر ما هنالك من الصفات الذميمة التي إذا اجتمعت على قياديٍّ، عرَّضته لحالات أبشعها الجبن والانكفاء، والسقوط في حبالات الشياطين. أقول أما الأخذُ بأسباب القوة الظاهرية هذه، أمرٌ تلزمه كلُّ الشعوب: القوية والضعيفة. والقاعدة العامة المنطقية، هي أن ينتصر القوي على الضعيف، ولكن كثيراً ما يحصل في التاريخ أن تنعكس القاعدة، يعني أن يسقط المنطق لمصلحة الضعفاء، هذا في ظاهر الأمور.



أما وقد اصطدمت الفلسفة المادية بهذه الظاهرة، فكان لزاماً عليها أن تخرجها إخراجاً ماديّاً. وعزَّز موقفها هذا، انتصارُ فيتنام الرائع على أميركا، مع الفارق الهائل بين ضعف الأولى وفقرها، وقوة الثانية وغناها. وهو انتصار أشبه ما يكون بانتصار ديك على ثور هائج.

من هنا اعتناق الشعوب، النظرية المادية، منذ الثورة البلشفية ١٩١٧م التي تعززت بعدها بالثورة الصينية، وبثورات شرق أوروبا، ثم ثورة فيدل كاسترو الكوبية في قلب أميركا الجنوبية. ثم بالانقلاب الأثيوبي. ويجب أن نلاحظ هنا، في سلسلة الثورات هذه، أنها كلها نجحت تحت شعار «كفاح

الشعوب المسلح في سبيل الحرية.. والدين ـ كما قال زعيم الثورة البلشفية لينين ـ أفيون الشعوب».

وبينما الناس في الشرق والغرب مشدوهون بهذه الشعارات، مسحورون أمام بنايتها الشامخة على أساس النظرية المادية، إذا بهذه البناية تنهار فجأة، أمام إبراق وإرعاد حملتهما صيحة الله.... أكبر. وشعار «الجهاد في سبيل الله» وشعار «إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة».

وهكذا أصبحت صرخة التوحيد، حيثما انطلقت من فم الخميني وأفواه ملايين الثوار، تهدم عرشاً هنا، وتصرع دولاً عظمى هناك، وانشلت الآلة الحربية، وتحطمت طائرات الغزو بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. ووجهوا الأقمار الصناعية، فركعت على حدود الثورة من خشية الله، ولعلها أسلمت وحسن إسلامها. فعقولها الألكترونية وهي تحلل المعلومات انقلبت لمصلحة الثورة، إذ إن الألكترون هو أصلاً وفصلاً من عباد الله.

لنا أن نبتسم... ولكنه الجد وليس الهزل، فعقل النملة ليس أفضل كفاءة، وإن كانت الحياة الظاهرية هي الفارق، فالسرّ أعمق من ذلك:

﴿وإِنّ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحمدِهِ ولَكِنْ لا تَفْقَهُوْنَ تسبيحَهُمْ﴾[1].

وقوله عز وجل عن سليمان عندما سمع كلام النملة:

﴿فَتَبسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قولِهَا وقَالَ رَبِّ أوزِعْنِيْ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِيْ أنعَمْتَ عَليَّ وَعَلَىٰ والديَّ..﴾[1].

(١) سورة الإسراء، الآية ٤٤.
(٢) سورة النمل، الآية ١٩.

وحقق الله وعيده، فأسقط أحد الطاغوتين العالميين: الاتحاد السوفياتي

كـان في العالم بـالأمس القريب، نمـطان من المجتمعات الـوضعية، وكل ما دونهما من الأنظمة في العالم، غدا إما متفرعاً عن أحدهما تابعاً له، أو متشبِّهاً به.

وهذان القطبان، هما المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي.

أما الأول فيقول منظروه، إن الغاية القصوى فيه، سعادة الفـرد، وتبعاً لذلك فقد أطلق الحرية للأفراد بشكل مخيف، وفي مسلكيـة عجيبة، القـوة الوحيدة الفاعلة فيها، هي قوة رأس المال.

ولن نتعـرض بالنقـد الآن لهذا المجتمـع، من حيث تميزه بـالـطبيعـة الاستعمـاريـة، على النيـوتـرون والهيـدروجين، وتمـزق الأسـرة والتمييـز العنصـري.. من حيث أن الحاكم لا يصـل فيه إلى الحكم إلا عبـر إنفـاق المافيا وجسور الدولارات. هـذا فضلاً عن تعـامل هـذا المجتمع، مـع بقية الشعـوب المستضعفة، استعبـاداً أو قهراً، وامتصـاصـاً للدمـاء. لن نتعـرض بالتفصيل لكل هذا، إذ إننا سنشير إلى كثير من خصائصه السلبية في فصول لاحقة إن شاء الله.

وإنما ينبغي أن نتذكر، أن هذا المجتمع يزعم أنه يدين بدين المسيح عليه السلام، وفي الحقيقة أن المسيح ودين المسيح منه بـراء. ونبحث عن إلٰهه الحقيقي، فلا نجد له معبوداً غير المال وحب السيطرة وشهوة التسلط. ونسأل عن آخرتـه ونبحث حتى عن دنياه، عن سعـادة أفراده المـدعاة، فـلا

نجد غير اللهاث الدائب، والزيف، والمظاهر التي هي كالطبول، لها زينة وصدى يصم الآذان، بينما هي جوفاء:

﴿لَا يَرتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُم وأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾(١).

أما المجتمع الآخر، أي الشيوعي أو الاشتراكي، فكان قد عكس النظرية واعتبر المجتمع هو الغاية، والفرد فيه ما هو إلّا قطرة في محيط الشعب، أنّى سار به الموج يسير، أو هو سِنٌّ في هذا الدولاب الضخم، وكيفما دار الدولاب يدور السن فيه، دون أيّما اختيار.

وهذا المجتمع بالنسبة للدين ولرب العالمين، كان أكثر صراحة من ذاك، فقد حسم الموضوع كله أصلاً، فأنكر وجودَ الله عز وجل، وبالتالي ما يَتْبَعُ الإيمانَ بوجوده من بعثٍ ونشورٍ، وثوابٍ وعقابٍ، وأطلق شعاره المشهور: الدين أفيونِ الشعوب.

وأيضاً، لن نتعرض لنقد هذا المجتمع من الداخل، حتى أننا لن نناقش إلحادَهُ بمنطقنا الديني، وإنما كونه أعلن غاياته الأساسية في «المنيفستو» المشهور، بما أسماه الثالوث، وهو: «تأمين المسكن والطعام والجنس لجميع أفراد المجتمع» فنكتفي على هذا الأساس أن نسأل ببساطة: ما الفرق إذن بين الإنسان والحيوان، فإن قال: إن الإنسان هو حيوان متطور ومتقدم ـ بحسب عقيدته ـ نقول ومع ذلك ـ ملزمين «إيّاه بما ألزم نفسه ـ ما الفرق بموجب هذا الثالوث بينه وبين أي حيوان غير متطور ولا متقدم من الحيوانات التي نعرفها اليوم بشتى فصائلها ودرجاتها. فمن الواضح أن كل حيوان له مسكنه وطعامه وعلاقاته الجنسية بما يكفي حيوانيته.

هنا يقولون، الفارق هو العقل وكرامة العقل وعظمة العقل. فنقول هذا حق ولكن إذا كانت:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٤٣.

الغاية تساوي بين الإنسان والحيوان في الحياة (إذ كلاهما له الثالوث عينه).

والنهاية تساوي بينهما بالموت (إذ كلاهما يتحلل ويغدو تراباً ولا شيء بعد ذلك).

فأين يذهب الفارق؟ أين تذهب ميزة الإنسان التي هي العقل وكرامة العقل، وأين يذهب طموح الإنسان وتطلعاته، وضحكه وبكاؤه؟... ثم إنه لو بنى المدائن زمرداً والمنازلَ يواقيتَ، ومدّ جسوره إلى النجوم، ثم مات وهو يلهث، وأصبح تراباً، وبقي تراباً؟.

ونحن إذ نناقش هذه النظرية ولو بهذا المقدار، فلأنه لم تزل هناك بعض البؤر الشيوعية في العالم، بين أنظمة حاكمة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبين أحزاب مرتبكة مترددة بين الاستمرار على الباطل وبين الموقف الشجاع في الاعتراف بالخطأ، ولزوم الالتجاء لله والعمل بدينه الحنيف.

هذا إضافة، إلى وجود الكثير من الإلحاديين في العالم، بين أحزاب وحركات منظمة وفلسفات، كالوجوديين مثلاً، وبين أفراد، وجميعهم من الذين ضلوا عن الحق الأعظم وبقية الحقائق، وحرموا أنفسهم نعمة الإيمان وخسروا الخسران المبين.

ولولا بقاء هذه البؤر الشيوعية لكان أغنانا عن مناقشة نظرياتها الإلحادية، سقوطها المدوّي في الاتحاد السوفياتي وبقية العالم، هذا السقوط الذي كان زلزالاً عَتِيًّا مركزه الاتحاد السوفياتي، وشعاعاته طالت جميع الدول والأنظمة التي كانت مرتبطة بشكل أو بآخر بهذا المركز، فمنها دول زالت كليّاً، ومنها أنظمة أطيح بها بانفجارات غضب دموية، لتقيم أنظمة جديدة مرتبكة على أشلاء آلاف القتلى وأشلاء الشيوعية... ومنها أنظمة ما زالت تعاني من المفارقات المريرة في مواجهة الدول الرأسمالية ورعونتها وأباطيلها، بعد أن خلت لها الأرض من أية قوة كبيرة تستطيع أن ترجعها إلى الله، أو على الأقل إلى منطق العدل والعقل والشرف.

هذا هو المنطق السائد اليوم، على مستوى الأنظمة والشعوب المقهورة، التي لم تهتدِ بعدُ إلى الله، ولا إلى توحيده، ولا إلى دينه الحنيف، هذه الهداية التي هي وحدها تشكل المخرج الكريم من هذا المأزق التاريخي والمصيري، ومن جميع المآزق التي يتعرض لها البشر في حياتهم أفراداً ومجتمعات.

لماذا سقط الاتحاد السوفياتي؟

في الحقيقة، إن الكلام كثير، في أسباب سقوط هذه الدولة العظمى، التي استقطبت أكثر من نصف العالم كقوة سياسية وعكسرية، حتى وإقتصادية. إلاَّ أن جميع التقارير السياسية، وكلام الإعلام العالمي، يوجز بحقيقة واحدة لا تناقش، وهي أن الله وحده عزت قدرته، هو وراء هذه الأسباب وهذا السقوط المريع.

ذلك، لأن الاتحاد السوفياتي، كان قد بني على أساس الفلسفة الإلحادية، منكراً وجود الله، قائلاً بجدلية ونظريات وفرضيات ما أنزل الله بها من سلطان. إذن هو عادى الله جل جلاله وعزت قدرته، فكفر وظاهر على الله وعلى دينه.

﴿وَكَانَ الكَافِرُ على ربِّهِ ظَهِيْراً﴾[1].

وبما أن الله عز وجل، هو الحاكم، حاكم الكون، عملياً وليس نظريّاً، وبما أن تعاليمه واضحة، من حيث إنه يكرم أو ينتقم، ويمهل ولا يهمل، فبالنسبة إلى الشيوعية والشيوعيين وقلعتهم العالمية: الاتحاد السوفياتي، فكان واضحاً مع عداوتهم له سبحانه، أن يهدم دولتهم ويخزيهم الخزي الدنيوي إذلالاً وتمزيقاً ولو بعد حين. وهكذا فقد أمهلهم وابتلاهم ما يفوق على نصف قرن من الزمان، وابتلى بهم الناس دولاً وأنظمة، وأحزاباً وأفراداً. فالذين توكلوا عليهم وليس على الله، حشرهم

(١) سورة الفرقان، الآية ٥٥.

معهم... ثم انتقم.. فكان هذا السقوط المروع للفلسفة الإلحادية وأتباعها في جميع أنحاء العالم. وهذا خزي لهم في الدنيا، أما في الآخرة فعذاب الله أكبر، ما لم يتب القادة والمقودون.

ربما يفهم القارىء هنا فهماً سلبياً، بمعنى أنه ما دام الولاء للإلحاديين الشيوعيين من مستدعيات غضب الله وانتقامه، فإذن من الواجب أن يكون الولاء للإمبرياليين الرأسماليين عامة، من مستدعيات رضى الله وتوفيقه. وهنا نجد الجواب مختصراً وجليّاً في قول الله سبحانه:

﴿مَثَلُ الذِيْنَ اتَخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّهِ أولياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وأَنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُوْنَ. إنَّ الله يَعْلَمُ ما يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ مِنْ شيءٍ وَهَوَ العزيزُ الحَكِيْمُ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الذِيْنَ جَٰهَدُوا مِنْكُم وَلَمْ يَتَخِذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّهِ وَلاَ رَسُوْلِهِ وَلاَ المُؤْمِنِيْنَ وَلِيْجَةً واللّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾[2].

هذا ما دامت الدول الرأسمالية، وهي عامة دول الغرب المسيحي، ما دامت تحتضن إسرائيل، بعد أن زرعتها شجرة ملعونة في هذه الأرض المباركة الطيبة، فلسطين وعامة بلاد الشام. وما دامت تنطوي على مشاعر العداء للإسلام والمسلمين، عرباً وغير عرب، وهي لو تمكنت من أن تدمّر وتمزق أسلحة وشعوب جميع الدول الإسلامية، كما دمّرت ومزقت أسلحة العراق وشعب العراق، لما قصّرت. أما من يمنعها؟! صحيح، ليس على الأرض من قوة تمنعها، وإنما المانع هو الحاكم، حاكم الكون، رب العالمين. هو الذي يمنع، وهو الذي يأذن، وهو المعزّ الناصر، وهو المذل

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان ٤١ و٤٢.

(٢) سورة التوبة، الآية ٦٦.

القاهر، وهو أسرع الحاسبين، ولكل واقعة حساب، في ناسها ومكانها وزمانها.

ولولا أن دول الغرب المسيحي، والمسيحيين عامة، في التاريخ الماضي والمعاصر، تخلقوا بما أمرهم الله سبحانه على لسان رسوله السيد المسيح، لكان التحالف معهم وليس التبعية، أمراً توجبه شرائع الإسلام. ولا سيما وأن الله تبارك وتعالى، أمرنا بمجادلتهم بالتي هي أحسن، ونوّه لنا بخصائص تميزهم تميُّزاً كبيراً عن اليهود وبقية المشركين، في طبائعهم وأخلاقهم ونواياهم، قوله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِيْنَ آمَنُوا اليَهُودَ والذِيْنَ أشْرَكُوْا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِيْنَ آمَنُوا الذِيْنَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِيْنَ وَرُهْبَاناً وأنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُوْنَ. وإذَا سَمِعُوْا مَا أُنْزِلَ إلى الرَسُولِ تَرَى أعيُنَهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَاهِدِيْنَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ باللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَالِحِيْنَ. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْها وَذَلِكَ جَزاءُ المُحْسِنِيْنَ. والذِيْنَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيْمِ﴾[1].

والآية الأخيرة هنا، أي قوله تعالى: ﴿والَذِيْنَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أولئِكَ أصحَابُ الجَحِيْمِ﴾ أي الذين هم بخلاف من شهد الله لهم بالإخلاص له ولدينه سبحانه، وبالمودة للمؤمنين، وبالتصديق بما أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله، وهم الضالون من النصارى، ومنهم أولئك الذين يحالفون اليهود المفسدين في الأرض.

وهذا التحالف المعاصر للقرن العشرين الميلادي، هو الذي حذّر الله منه المسلمين، حذرهم من الولاء لليهود وللنصارى، موضحاً أن بعضهم

(١) سورة المائدة، الآيات ٨٢ ـ ٨٦.

أولياء بعض، ثم يخبرنا أن أقواماً من المسلمين، حكاماً وغير حكام، وهم ﴿الذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يسارعون في موالاتهم والتحالف معهم، مبررين ذلك بخشيتهم من أن يتمكن الحلف اليهودي ـ النصراني من حكم الأرض، فتدور دائرتهم على خصومهم المسلمين. ثم يخبرنا سبحانه ـ وكل ذلك كما سنرى في سياق واحد ـ أن هؤلاء المسلمين سيندمون حيث لا تنفع الندامة، لأن حكم من يوالي هذا الحلف اليهودي ـ النصراني، هو عند الله حكم المرتد عن دين الله، كما سنرى في نفس الآيات الكريمة، حيث يبشر المؤمنين فيها بالفتح أو بأمر من عنده، بعد أن يذكر لهؤلاء المؤمنين صفات مميزة، لعلاقتهم بربهم ولشخصياتهم وسلوكهم النفسي والعملي، وهي أنه سبحانه ـ يحبهم وأنهم يحبونه، وأنهم أذلة على المؤمنين لا يقاتل بعضهم بعضاً، وأنهم أعزّة على الكافرين.

﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُوْلِهِ ولِلْمُؤْمِنِيْنَ ولكِنَّ المنافِقِيْنَ لا يَعْلَمُوْنَ﴾[1].

وأنهم يجاهدون في سبيل الله وحده، لا لأجل أن يقربهم العالم الفلاني، أو الدولة الفلانية، أو أن يكون جهادهم موجهاً من غير الله، مرتهناً لغير الله سبحانه وتعالى عما يشركون.

أما الآيات التي فيها هذه المضامين، فهي في قوله تبارك وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوْا اليَهُودَ والنَصَارىٰ أولِيَاءَ بعضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتولَّهم مِنْكُمْ فإنَّهُ مِنْهُمْ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَـٰلِمِيْنَ. فَتَرىٰ الذينَ فِيْ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُوْن فِيْهِم يَقُولُوْنَ نَخْشَى أنْ تُصِيْبَنا دائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أنْ يَـأْتِيَ بِالفَتْحِ أوْ أمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوْا عَلى مَا أسرّوا فِيْ أنفسِهِمْ نَـٰدِمِيْنَ. وَيقُولُ الذِيْنَ آمَنُوا أهَؤلاءِ الذِيْنَ أقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إنَّهُمْ لَمَعَكُم حَبِطَتْ أعْمَـٰلُهُم فَأَصْبَحُوا خَـٰسِرِيْنَ. يَـأَيُّها الذِيْنَ آمنُوا مَنْ يرتدَّ مِنْكُم عَنْ دِيْنِهِ فَسَوْف يَـأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ أذلةٍ عَلَى المؤْمِنِيْنَ

---

(١) سورة المنافقون، الآية ٨.

أَعِزَّةٍ عَلَى الكَـٰفِرِيْنَ يُجَـٰهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُوْنَ لَـوْمَةَ لائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾(١).

والله سبحانه يفصِّل لنا في موضع آخر من القرآن الكريم، طبيعة العلاقة، بين هؤلاء المنافقين من المسلمين، وبين الذين كفروا من أهل الكتاب، والحقيقة أنهم اليهود وحدهم، باعتبار الواقعة التي يشير إليها القرآن، وهي التي حارب فيها المسلمون يهود بني النضير بعد بني قريظة، فقتلوا منهم من قتلوا، وأخرجوا الباقين من شبه الجزيرة إلى نواحي الشام. قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذِيْنَ نَافَقُوا يَقُوْلُوْنَ لإخْوَانِهِمْ الذيْنَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُم وَلَا نُطِيْعُ فِيْكُمْ أَحَدَا أَبَدَاً وَلَئِنْ قُوْتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُوْنَ. لَئِنْ أُخْرِجُوْا لا يَخْرُجُوْنَ مَعَهُم ولَئِنْ قُوْتِلُوْا لا يَنْصُرُونَهُمْ ولَئِنْ نَصَرُوْهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُوْنَ﴾(٢).

ثم يخاطب المسلمين مطلعاً إيّاهم على خصالٍ وصفاتٍ وحالاتٍ عجيبة انطبع عليها الفريقان: المنافقون، والذين كفروا من أهل الكتاب، وما كان للمسلمين أن يعلموها لا سابقاً ولا لاحقاً، لا هم ولا غيرهم، لولا أنّ الله عزّت قدرته، قد أطلعهم عليها، فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو بكل شيء عليم، وهو بكل شيء محيط. وأبرز هذه الخصال، علاقتهم الضعيفة، بل والمعدومة، برب العزة رب العالمين. مما صيّرهم من أجبن خلق الله، لدرجة أنهم يخافون المسلمين، أكثر مما يخافون الله القاهر القادر العزيز المنتقم الجبار، الذي بيده ملكوت كل شيء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير. وهذه الحالة النفسية والقلبية عندهم، ذكرها لنا سبحانه في سياق الآيتين السابقتين في قوله تعالى مخاطباً

---

(١) سورة المائدة، الآيات ٥١ ـ ٥٤.

(٢) سورة الحشر، الآيتان ١١ ـ ١٢.

المسلمين في كل زمان ومكان:

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدُوْرِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُفْقَهُوْنَ﴾(١).

ثم يطلعنا بعد هذه الآية كذلك على أهم أسرارهم العسكرية التي أصبحت طبيعة من طبائعهم، وهي أنهم لا يقاتلون المسلمين إلّا في قرى محصنة أو من وراء جدر وأسوار تحجبهم عن مواجهات مباشرة مع المسلمين. وهذا هو السر الذي دفعهم وما زال، إلى تقييد جنودهم في الطائرات والآليات البرية في حروبهم الأخيرة مع العرب، وذلك لكي لا يهربوا منها أثناء المواجهات.

المهم أن يكونوا ضمن أسوار، يحسبون أنها تحميهم، وهذا يعني أنهم إن كانوا بدون حصون، أو خلف جدران وأسوار وملاجيء، فما أسرع ما يسقطون جبناً ورعباً، أو يولون الأدبار.

هذا الخبر، إضافة إلى خبر آخر عنهم، يكشف لنا فيه سبحانه، إنهم بخلاف ما يُظَنُّ عَنْهم، من أنهم متفقون متوحدون، فالحقيقة أنهم ليسوا كذلك، وإنما هم متنافرون متباغضون، وذلك في قوله تبارك وتعالى:

﴿لا يُقَتِلُوْنَكُم جَمِيْعاً إلاَّ في قرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيْدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيْعاً وقلوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُوْنَ﴾(٢).

رب قائل يقول، إن هذه الآيات متعلقة بتاريخ معين ومناسبات معينة، والحقيقة أن هذا الاعتقاد فيه ضيق نظر، بالنسبة للقرآن وآياته، وبالنسبة لرب العالمين. فلشدَّ ما يضيّق على أنفسهم وعلى الناس، أولئك الذين يقفون جامدين عند مناسبات النزول، حتى أنهم يبحثون لبعض الآيات المطلقة ـ وما أكثرها ـ عن مناسبات نزول.. وإن هم لم يجدوا،

---

(١) سورة الحشر، الآية ١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآيات ٤ ـ ٧.

اخترعوهـا، أو تمحلوها تمحـلاً. ويبقى القرآن وآيـاته أعـظم خطراً وأوسـع آفاقاً، وبدون قياس.

لذلك، ورجوعاً إلى آيات سورة المـائدة، التي أدرجنـاها منـذ قليل، ولأن هذه السورة، هي آخر سورة أنزلت في القرآن الكريم، فإنَّ لها تقويماً خاصاً وأبعاداً خاصةً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. فإننا نربط من آياتهـا، الآية الثالثة والخمسين، وهي قوله تعالى:

﴿وَيَقُوْلُ الذِيْنَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الذِيْنَ أَقْسَمُوا جُهْـدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِيْنَ﴾.

نربطها بالآيات التي ذكرنا من سورة الحشر، والتي تبدأ بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الذِيْنَ نَـافَقُوا يَقُـولُوْنَ لأَخْـوَانِهِمْ الذِيْنَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ..﴾.

ونستنتج من ذلك، إضافة إلى الأخبار المستقبلية الفـذة، التي تنطوي عليهـا الآيات المـذكورة من المـائدة، أن الخـطاب موجـه في الآية الثـالثـة والخمسين ـ المـائدة ـ من المسلمين إلى المنهـزمين من أهل الكتـاب ـ بعد الفتـح المنوه عنـه ـ يذكّـرونهم ويذكّـرون المنافقين معهم، تعـريضاً وتعـززاً عليهم بالله ونصره وتأييده ـ بقولهم بلسان الحال، يعنون المنافقين:

﴿أَهَـؤُلاَءِ الذِيْنَ أَقْسَمُـوا جَهْدَ أَيْمـانِهِم أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعمـالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَـٰسِرِيْنَ﴾.

وأي خسـران أعـظم من أن يكـونـوا في غضب الله مخلدين في نـاره وعذابه؟!.

فإذن هو الفتح بإذن الله، وهو النصر المبين القادم، هو ميراث الأرض وميراث ما في الحضارة من إيجابيات، وذلك في وعد الله عز وجل في أكثر من آيـة من القرآن المجيـد، نذكّـر ببعضها لأهميتـه القصوى، إضـافة لمـا ذكرناه من آيات سورة المائدة وغيرها، لكي لا يبقى ولـو ذرة من شك عنـد

الـذين آمنوا وعلى ربهم يتـوكلون. نذكـر هـذه الآيـات، دون أي شـرح أو تفسيـر، لأنها واضحـة كفلق الصبح، لكـل من يلقي السمـع وهـو شهيـد. إضافة إلى أننا سنشرحها شرحاً وافياً بإذنه تعـالى في فصول لاحقـة من هذا الكتاب، ومن أبرز وعود الله سبحانـه وأكثرهـا جلاء، قـوله تعـالى في سورة الإسراء:

﴿وقَضَيْنَـا إلىٰ بَنِيْ إسْـرَائِيْـلَ في الكِتَـٰبِ لَتُفْسِـدُنَّ فِيْ الأرْضِ مـرَّتَيْن وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيْراً. فإذَا جَاءَ أوْلٰهُمَا بَعَثْنَا عـليكـم عِبَـاداً لَـنَـا أولـي بَـأْس شَـديدٍ فَجَـاسُوا خِلَـٰلَ الـدِيَارِ وَكَـانَ وعـداً مَفْعُـوْلاً. ثُمَّ رَدَدْنَـا لَكُمْ الكَـرَّةَ عَلَيْهِمْ وأمْدَدْنَـٰكُمْ بأمْوالٍ وَبَنِيْنَ وَجَعلْنَـٰكُمْ أكْثَرَ نفِيْراً. إنْ أحْسَنْتُمْ أحْسَنْتُمْ لأنفسِكُمْ وإنْ أسَأْتُمْ فَلَهَا فإذَا جَاءَ وَعْـدُ الآخِرَةِ لِيَسُـٔـوا وُجُوهَكُم وَلِيَـدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَـا دَخلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ وَلْيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيْرا﴾.

ثم قوله تبارك وتعالى:

﴿وَعَـد اللَّهُ الـذِيْنَ آمنُـوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرْضِ كَمَـا اسْتُخْلَفَ الـذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُم الـذِيْ ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمْنَاً يَعْبُدُوْنَنِيَ لاَ يُشْرِكُـوْنَ بِيْ شَيْئاً وَمَنْ كَفَـرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فأولَٰئِكَ هُمْ الفَـٰسِقُوْنَ﴾[١].

مـع التذكيـر، بوجـوب ربط هذين الـوعدين الكـريمين بآيـات سـورة المائدة (٥١ ـ ٥٤) لإسقاط جميع علامات الاستفهام، وبلوغ درجة اليقين، بوعود الله عز شأنه.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمنْ أصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيْلا﴾[٢].

﴿ومن أصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيْثَا﴾[٣].

---

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٧.

(٢)

* وثنية حديثة

* الحب الأقدس

* كيف يحبّ الله



وثنية حديثة

ما يقال عن أبطال الحب النّسوي، كذلك القول عمن يسمونهم أبطالاً قوميين أو وطنيين، وطبعاً حجتنا هنا على المنحرفين، الذين عرفوا الأديان السماوية عموماً، والإسلام بشكل خاص، ورغم ذلك أصروا على انحرافهم، إذ يبلغ عندهم الحبُّ لعنصريتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولأوطانهم المحددة على الأرض، أو على خارطة من ورق، أو حتى ولاؤهم لطاغوت من طواغيت الأرض، درجةً عباديةً، يبذلون معها ـ سعداء ـ عقولَهم وأعمارَهم وأنفسَهم. وإن اعْتُرِضَ على كلمة (سعداء) نقول بلى ـ وإن كانت السعادة المنقطعة ـ وإلاّ كيف ولماذا يحملون أنفسهم مشقات هم بغنى عنها. والغاية عندهم غبر بيّنة. فلو قيل إن الغاية هي انتصار للعنصرية أو القوم وإرضاء لهما. فكيف ترضى العنصرية، وما معنى أن يرضى القوم على حساب اعتصار هؤلاء واستنزافهم وموتهم، علماً أنه ليس بعد الموت (حسب اعتقادهم)، إلاّ الفناء النهائي. أوليست وقفة تأمل في أنفسهم أجدر بهم وأولى؟!. . . ثم إنَّ الجميع منقلبون إلى موت محتمّ، جيلاً بعد جيل، فهل تكون التضحيات من أجل فسحة حياة قصيرة على الأرض؟ أم هو الموت غاية ونهاية؟ ولو قلنا ليرضى تراب الوطن، فيا حفنة من تراب، حدثيني كيف ترضين وكيف تغضبين، سقاك الغيث، إلا

إذا كنتِ ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عليه ترابٌ فَأَصَابَه وَابِلٌ فتركَه صَلْدًا﴾ كما يقول سبحانه في كتابه الكريم[١].

يبقى أن نسأل، هل من مدّعٍ مِنْ هؤلاء استمراريةَ حبّه وسعادته بعد الموت؟ هم أنفسهم يقولون، لا! ومن شذّ نطالبه بالبينة. فإن زعمها من دين منزل، فجهله مركب، وإن ادعاها من دين أرضي، فدعواه مردودة عليه، لأن الأديان الأرضية من وضع البشر، الإنسان ما ادعى الألوهة مرة أو معرفة الغيب إلاّ عاقبه الله بنسبة خطورة ما يدعي. إلاّ أن تكون معرفة الغيب بتعليم من الله عزّ شأنه، لأوليائه وموحديه، من الأنبياء والصدِّيقين والشهداء المجاهدين في سبيله وحده.

أما لكي نفهم كيف تكون سعادةُ المحب متصلةً أبديةً؟ فهذا رهن بمعرفة المحبوب. فإن كان المحبوب مما يغيب أو يفنى، أو يفارق، أو تعتريه الحوادث فهذا فقر فيه وجرح في كماله، وإن كان المحبوب هو الإلّه الذي لا إلّه سواه، تُفهم العقول فيما تُفهم، أنه الأول والآخر، فإن أحبّه المحبون، كان حبهم أبدياً، وسعادتهم كذلك، فلا فراق حتى بالموت، ولا انقطاع.

خسران الحب الأقدس.. أم على قلوب أقفالها؟

في العام ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م صدر كتاب (العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي) لمؤلفه العلامة السيد محمد تقي المدرسي، وفيه ينكر على (العرفانيين)[٢] أن يكون الله سبحانه يتولاهم بعنايته وحبه،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

(٢) العرفانيون هم مؤمنون تفضل الله عليهم بعلم من لدنه بعد أن جاهدوا أنفسهم لتخليصها من ألوان الشرك الظاهر والخفي، فأكرمهم بمعرفته وبتوحيده بالقدر الذي يتحملونه. وقد يختص سبحانه من يشاء منهم بفضله وبرحمته، ويطلعهم على بعض أسرار كتابيه العظيمين: القرآن والكون. وباختصار هم الذين ﴿هُدُوٓا إلى الطيِّبِ مِنَ القولِ وهُدُوا إلى صِرَاطِ الحَمِيْدِ﴾.

وأن يكشف لهم من الأسرار، ما يأذن لهم سبحانه بإذاعته أو يأمرهم بكتمانه. ولا يزول عجبنا من ذلك، إلاّ وهو ينكر أيضاً على المؤمنين، حبهم لله تقدست أسماؤه. ولقد أنكر على رابعة العدوية ذلك حيث قال: «. . . لكن رابعة تخطتهم بعيداً (المروجين لفكرة الحب الإلّهي) في حديثها العاطفي عن «حب» المؤمن لله. وهي في ذلك قد اتجهت اتجاهاً مغايراً للعرف الديني الإسلامي، الذي يذهب إلى أن الإنسان لا يقوى على الاقتراب من الله إلاّ بروح التعبد والورع والرهبة [١].

هذا، علماً أن أيما قارىء للقرآن من أنصاف الأميين، يحفظ أكثر من آية قرآنية، تشير بوضوح، إلى مصداقية حب المؤمنين لله تبارك وتعالى، وحبه هو سبحانه لهم، ناهيك عن الأحاديث والروايات وآثار العارفين، الذين تفضل الله عليهم بحبه وبرحمته.

على أننا حرصاً منا على توقير العلماء واحترامهم كما أمر سبحانه، نعتبر هاتين الغفلتين بالنسبة إليه، كبوة ونبوة، عملاً بالقول المأثور: لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة. وبعد قليل سنقدم أمثلة من القرآن.

ونحن ما كنا نبهنا على ذلك، وسمينا الكتاب وصاحبه، إلاّ لخطورة هذا الأمر، من حيث وجوب الحرص الشديد، على تدبر معاني القرآن، وإرشاداته. وهكذا فإن مما يؤسف له شديد الأسف أن أكثر الحوزويين، لم تكن دراساتهم في ظل القرآن وفي ضوء القرآن، بل هم ما عرفوا القرآن إلاّ من خلال الدروس[*]، من هنا كان أكثر المؤمنين المقلدين، لهم شغف كبير بالتهام الكتب الدينية المرقعة، دون روية ومناقشة، ومن ثم الأخذ بما يجدون فيها، ولو كان مزاجياً، وهذا أمر من الدواهي الدهياء، ويا حبذا لو كان شغفهم بكتاب الله، وتدبر آياته كما قال سبحانه:

---

(١) ص، ١٦١.

(*) انظر الميزان في تفسير القرآن ص٢٧٦ ج/٥.

﴿أفلا يَتدبَّرُوْنَ هٰذا القرآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفَالُها﴾[١] وقوله: ﴿يا رَبِّ إنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذا القرآنَ مَهْجُوراً﴾[٢].

الحب الأقدس

من الحقائق التي شهد الله سبحانه بها، وهو خير الشاهدين، وفطر عليها خلقه، ومنهم النوع البشري، هي حقيقة الحب. قوله عزّ وجل:

﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحبّوْنَ اللَّهَ فاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُم اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ﴾[٣].

وقوله عزّ شأنه:

﴿يا أَيُّهَا الذِّيْنَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيْ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم ويُحبّوْنَهُ أذلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ أعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ ولا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لائمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ واسِعٌ عَلِيْمٌ﴾[٤].

وقوله تبارك وتعالى:

﴿والذِيْنَ آمَنُوا أشدُّ حُبَّاً للَّهِ﴾[٥].

وقوله جلّت عظمته:

﴿قُلْ إنْ كَانَ آباؤُكُمْ وأبناؤُكُمْ وأخوانُكُم وعَشِيْرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوْهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها أحبَّ إلَيْكُم مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ وجِهَادٍ فِيْ سَبِيْلِهِ فَتَرَبَصُوا حَتَى يأتيَ اللَّهُ بأمرِهِ واللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِيْنَ﴾[٦].

(١) سورة محمد، الآية ٢٢.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٣١.
(٤) سورة المائدة، الآية ٥٤.
(٥) سورة البقرة ١٦٥.
(٦) سورة التوبة، الآية ٢٤.

وقوله وما أكرمه وما أرحمه:

﴿إنَّ اللَّهُ يُحبّ المُحْسِنِيْنَ﴾[١] و﴿إنَّ اللَّهُ يُحبَّ التَـوابِيْنَ﴾[٢] ﴿ويُحِبُّ المَتَـطَّهـرِيْنَ﴾[٣] و﴿يُحِبُّ المُتَّقِيْنَ﴾[٤] و﴿يُحبُّ الصَّـابِـرِيْنَ﴾[٥] و﴿يُحِبُّ المُتـوكِلِينَ﴾[٦] و﴿يُحبُّ المُقْسِـطِيْنَ﴾[٧] و﴿يُحِبُّ الـذِيْـنَ يُقَـاتِـلُوْنَ في سَبِيْلِهِ﴾ [٨].

وقـد اكتشفت البشريـة سر هـذه الحقيقة، عنـدمـا أدركت التـوحيـد، وأدركت معه أن في حب الإنسان لله ـ إذا اكتملت شرائطه وكـان مقبولاً منـه سبحانه ـ سعادة للإنسان ليس فوقهـا سعادة، إلاّ أن يعـرف هذا الإنسـان أن ربّه يحبه، فيحصل بذلك على أعز مطلب في الوجود.

كيف يحب الله؟

من الـذين حملوا الحب الأشـرف والأسمى نـتعـلم، فـإلى سـيـد المحبين، إلى سيدهم العظيم محمـد صلى الله عليه وآلـه أول ما نـذهب. وإذ لا نستطيع الإحاطة في هـذه العجالـة ولو بـالقليل من مـواقفه الفـريدة، لـذلك نقتصـر على موقف واحـد، نحاول من خـلاله أن نعـرف كيف كـان يحب ربّه: موقفه في الطائف. حيث ذهب يدعو أهلها لله جلَّ جلاله ولدينه الحنيف. فكذبوه، وطردوه، وأغروا به الصبيان إذ يلعبـون في ساح الـطائف حيث هتف بهم أحد رجال القوم: إنّ محمداً هـذا هو مجنـون، فلحقوا بـه ورشقوه بالحجـارة حتى سال الـدم من عقبيه الشـريفين، وهو يـرد عن رأسه الـطاهر بكلتـا يديـه. وهو نبيّ الله ورسـوله وسيـد البريـة، نراه فـور ذلـك، يجلس إلى شجـرة معتدىً عليـه، جوعـان عطشـان ليس حـولـه من النـاس نصير، يتمتم مناجياً ربّه سبحانه: «. . . إن لم يكن بك عليّ غضب فلست أبـالي. . . !» هكذا انتـزع نفسه من غمـدها معـافـاة، مثلهـا مـروءة السيف النقي، ورفعها لله سبحانه غير مبال بكل ما قد كان، ما كان كأنـه لم يكن،

---

(١) و(٢) و(٣) سـورة الـبقـرة ـ (٤) و(٥) و(٦) آل عمران ـ
(٧) المـائـدة ـ (٨) الصف.

إن كان الله عزّ وجل، ليس غاضباً، إن كان الله سبحانه راضياً، هذا هو المهم، غاية الغايات، محبة الحبيب الأعظم، وسواء أجرح الجسد، أو جاع، أو عطش، أو تمزق، أو قضى صاحبه على أي جنب من جنوبه، وحسب النفس بعد ذلك، أن يتغمدها بارئها برحمته.. وحبه.

وأكثر من ذلك، فإن النبي الإنسان صلى الله عليه وآله وهو في هذه الحال من الإرهاق، والألم، والمرارة، بقي حبه لربه هو الدافع الأساسي للدعوة إليه وإلى دينه سبحانه، فلم ينس تكليفه، وما إن أطل عليه أول رجل أمكنه أن يحدثه بهدوء، حتى أدى النبيّ صلى الله عليه وآله إليه رسالة ربّه له الأسماء الحسنى. فقبلها الرجل محباً ربّه ورسول ربّه، وإذ عظم في قلبه هذا الحب، صغرت في عينيه الدنيا وطلابها، ومن فرحته بالنور الذي ملأ قلبه، كان يشتد بكاؤه كلما طلب إليه، أن يتلو الدعاء الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله آنذاك. فمضى مصعداً في الجهادين الأصغر والأكبر حتى آخر نسمة من حياته. وقد عرف التاريخ هذا الرجل باسم عدّاس. وكان في رأس مآثره، أنه نقل إلينا كامل دعاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وكان هو الرجل الوحيد، الذي سمعه منه في موقفه الصعب ذاك، بعد أن طارده سفهاء الطائف وصبيانها وألجأوه إلى تلك الشجرة، قرب جدار للأخوين الطاغيتين عتبة وشيبة بني ربيعة، حتى إذا اطمأن صلى الله عليه وآله، وقف في ظل الشجرة يناجي ربّه الحبيب، بهذه الكلمات التي ما زالت منقوشة وستبقى في قلوب معظم المؤمنين على مر الأجيال:

(اللهمّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس،

(يا أرحم الراحمين.

(أنت رب المستضعفين وأنت ربي.

(إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدوّ ملكته أمري؟

(إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.

(لك العتبى حتى ترضى.
(ولا حول ولا قوة إلّا بك يا حبيباه يا الله يا رباه يا رب العالمين.

* * *

ثم نرى الإمام عليّاً عليه السلام، أشجع الخليقة في تاريخها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يخوض غمار كل معركة، فيكون فيها على أعدائه الفزع الأكبر، عبر ساعات طوال ينعقد فيها الغبار سحباً سوداً، ويظلم النهار فيها من شدة البأس. ونتبع علياً عليه السلام، بعد كل معركة إلى حيث نعتقد، أنه سيأوي إلى ركن يرتاح فيه بعد عظم المشقة، فنجد عجباً: وقفات خاشعة، ذليلة، بين يدي الله سبحانه، على نشيج بكاء، وانهمار دموع، ثم نسمع ما أصبح قاعدة لعبادة الأحرار عبر العصور، مناجاته لحبيبه الأعظم:

(ربي
(ما أعبدك خوفاً من نارك
(ولا طمعاً في جنتك
(وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك.

فأين تذهب المشقة في مثل هكذا مواقف؟ وهل تجرؤ المشقة أن تدعي لنفسها شرف القرب من نفس هي من الله تعالى بهذه المنزلة؟

بلى هكذا أنفس، يبرؤها الله عز وجل ويعافيها من كل ما يشوش صفاءها، الله سبحانه يتولاها بعنايته ورعايته، وحبه ورحمته، وينصرها نصراً مبيناً في الدنيا والآخرة.

ثم يُضرب أمير المؤمنين عليه السلام، في صلاته، تلك الضربة الباقي إرنانها الموجع، مدوياً في أذن الدنيا، فيقول التي ما تزال وستبقى تُحكى فتُدهش: ـ فزتُ ورب الكعبة ـ. عجباً! أبالموت فوز؟ وبسيف مسموم؟ بلى، هو العلم اللدني بأبعاد الفوز. أهل بيت النبوة هم، الأعلمون بشرف المَصَارِعِ..

أيضـاً لنسمع الحسين ابنـه، عليهما السـلام، في موقف من سنـخ[١] هذا: الحسين يتصدى للباطل، يتحداه، يجره لمعـركة المعـارك، للحكايـة التي تُنسى الحكـايا ولا تُنسى: ـ ألا وإني لا أرى المـوت في سبيل الله إلاّ سعادة، والعيش مع الظالمين إلاّ برماً ـ يقولها الحسين عليه السلام ثم يزرع في الأعين والأدمغة والقلوب عبر الأجيـال، درس البطولـة المؤمنة الفـريدة، حبّاً لله، وغضباً لله، واستمـاتة في سبيـل الله: درساً في السعـادة الحقيقية، نوعاً واستمرارية، درساً تستطيع المشقة معه أن تقول: حاولت الحسين، إلا أني ما استطعت إلى نفسه نفاذاً. لأنه كان مكلّفـاً، كلِفاً بـربه، مكلفـاً بدين الله كلفاً. كان هو الدين مختصـراً على ظهر جـواد، أما وطنـه فبلا حـدود، وأما حبه فلربه، وأما هدفه فإن تكون كلمـة الله هي العليا، فيـا له من كلف وليس كلفة.

هـذا، ونكتفي من الأمثلة هنا بهــذا القـدر، على أن سلسلة الــذين حملوا الحب العظيم نورانية طويلة.

---

(١) السّنخ: الأصل.

(٣)
الرحمة هي الغاية من خلق الانسان وهو اختار نهايته



﴿يُبَشِّرُهُمْ ربُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ورِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لهُم فِيْها نَعِيْمٌ مُقِيْمٌ﴾
(التوبة: ٢١)

الرحمة هي الغاية من خلق الانسان..
وهو اختار نهايته

كما رأينا من بعض التأمل في فكر التوحيد، أن الله عز وجل، هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته. وأنه هو وحده الخير المحض، الذي لا يصدر عنه إلاّ الخير والحق والجمال.

فلماذا إذن خلق الله هذا الإنسان الشقي المتعب، المعذب، كما هو ظاهر حاله في تاريخه الطويل؟

ثم يا نوح ويا إبراهيم، ويا موسى، ويا عيسى، ويا محمد، سلام الله عليكم، وعلى من سبقكم وعلى من لحق بكم من أنصار الله وأحبائه وأوليائه، هل كنتم أشقياء متعبين معذبين؟

وهل الشقاء حالة عامة، تلازم جميع الناس، وفي جميع مراحل حياتهم؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك.

فهنالك الذين غنوا ورقصوا وضحكوا.. وما زالوا يغنون ويرقصون ويضحكون.. ولو كان ورد في كتاب الله قوله عز وجل:

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُوْنَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنْتُم تَمْرَحُونَ آدْخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ﴾[1].

(١) سورة غافر، الآية ٧٥.

إلّا أنه سبحانه لم يترك أهل الدنيا يهنؤون كما يشاؤون بدنياهم. فلذلك كثيراً ما عبر الإنسان وما زال، عن ضيقه وحزنه ومراراته، شعراً ونثراً وما بين الشعر والنثر في حياته العملية، بين زفرة وحنين، وتوجع وأنين، وكذلك عبَّر عن فرحه ومرحه، بالكلمات والأصوات والحركات. . .

ولكن هناك حالة ثالثة، بين هاتين الحالتين، هي حال أهل الاعتدال، الذين هم مصاديق قوله تبارك وتعالى: **﴿لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**(١).

إلا أن خلاصة القول التي تكاد تكون على كل لسان، كلمة أبي العلاء المعري في داليته: تعب كلها الحياة. . .

وهل الله سبحانه أقر بعض هذه المعاني؟ قوله تعالى:

﴿إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّى فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى. وصَدَّقَ بالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَى. وأمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى وكَذَّبَ بالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُه للعُسْرَى. ومَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُه إذا تَرَدَّى﴾(٢).

وهي آيات واضحات المعاني، إن سعي الإنسان مختلف بين السلب والإيجاب، فأهل الشمائل الحسنة والصدق مع الله، ميسورو الحال، وأهل البخل والأنانية، وعدم الثقة بالله، وبوعد الله، وبصنيع الله، يلزمون السبيل الذي اختاروه. وهل يؤدي إلّا إلى الشقاء. وهل فيه ما يغني عن رحمة الله سبحانه؟.

وفهمنا لقوله عز وجل: **﴿إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّى. .﴾** وما بعدها، يحُلُّ لنا الغموضَ الذي في الآية الكريمة:

﴿ولاَ يَزَالُوْنَ مُخْتَلِفِيْنَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٣).

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣.

(٢) سورة الليل، الآيات ٤ ـ ١١.

(٣) سورة هود، الآية ١١٨.

مختلفين في الدين، مختلفين في السبل السلبية، يتعرض لهم الله سبحانه برحمته، يلاحقهم بها من البداية إلى النهاية، فيعرضون عنها مستكبرين. إلاّ فريق أقام وجهه للدين حنيفاً، فكان حقيقاً بهذه الرحمة، يستقبلها بعقله ووجهه وقلبه وكل جوارحه.

فالغاية من خلق الله سبحانه وتعالى للناس، هي الرحمة.

أما ما يقال أيضاً عن أن الغاية إنما هي العبادة، استفادة من قوله عزّ وجل:

﴿وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونَ﴾[1].

فبأيهما نأخذ؟ بكون الغاية من خلق الله تعالى للناس، هي الرحمة من قوله عز وجل:

﴿. . . إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ ولِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

أم بكون الغاية من خلقه تعالى للناس، هي عبودية الناس له؟

الواقع أن الغاية واحدة. كيف؟

أساس العبادة الحقة، التوحيد، وهنا سر الرحمة:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيْهِ رِجَالٌ مُتَشَـٰكِسُوْنَ وَرَجُلاً سُلَماً لِرجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لِلَّهِ بَل أكثَرُهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ﴾[2].

والمثل تصوير لطيف وبليغ لحالة رجل يتعامل مع مجموعة شركاء كلهم له عليه سلطان، فهو مضطر لخدمة الجميع، وإرضاء الجميع وطاعة الجميع. وهذا محتمل نسبياً لو كان لهم مزاج واحد وشخصية واحدة، إلاّ أن الواقع غير ذلك، فما داموا شركاء، فهم على اختلاف أمزجتهم

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٢) سورة الزمر، الآية ٢٩.

وتطلعاتهم، سينزع كل واحد منهم منزعاً يؤدي بالضرورة إلى التشاكس، وبالضرورة سيكون هذا الرجل بينهم ممزق النفس متحيراً فاقداً لحقيقة الحرية، إذا أحبّ واحداً غضب الباقون، وإن أطاع واحداً، اتهمه آخر بمعصيته، وهكذا إلى حالات من التباين معهم لا تنتهي. فهل يستوي وضع هذا الرجل، مع أخٍ له لا يتعامل مع مجموعة شركاء، وإنما يتعامل مع رجل واحد، تعاملاً فيه السلام والثقة والطمأنينة.. والأمن والأمان والمحبة، والسعة مدى الحياة.. كذلك عبادة الله الحبيب الواحد الأحد.

فالإسلام لله وحده، والعمل بتعاليمه وقوانينه، يوصل الإنسان بقدر ما يؤمن ويجاهد ثم يوقن ويجاهد، ثم يتقي ويجاهد، ثم يحب ويجاهد، ويجعل حبه خالصاً لله وحده له الحمد، بقدر ما يحظى برضى الله ورضوانه. فلا غفلة ولا ألغاز ولا أسرار، فإن بقي منها أشياء، فإنها ستكشف له يوم القيامة، يوم يقال له:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَـذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليومَ حَدِيْدٌ﴾[1].

فإذا كانت العبودية للخلاق العظيم، عملاً بتعاليمه وقوانينه وقرآنه المجيد، واقتداء بمحمد صلى الله عليه وآله الذي هو رحمة للبشرية، إذا كان كل ذلك الذي يوصل إلى الفوز المبين، ليس رحمة، فما هي الرحمة إذن؟ هل الذلة والتمزق بين تحكم المخلوقين وأمزجتهم، أم هي الفوضى والفلتان، والاندفاع بدون كوابح نحو الهاوية.

﴿ويَوْمَ تَقُوْمَ الساعةَ يُبْلِسُ المُجْرِمُون﴾[2].

(١) سورة قٓ، الآية ٢٢.
(٢) سورة الروم، الآية ١٢،

مَنْ المهيمن على الكون وعالم أسراره؟

مَنْ مالك الأرض وما ومن فيها، من بحار وأنهار، والحوت الأزرق من خلقه، لا يموت إلى قيام الساعة يعني يعمر ملايين السنين، إلا إذا انتحر أو قتل، ولا يكون انتحاره أو قتله إلاّ بإذن الله عزّ وجل.

من رفع «أفرست» من جوف المحيط، وملأ مكانه بالأمواه، وقال له كن أعلى جبل فكان. واسبحي يا أرض حول النور والنار دون ميدان، فسبحت وسبَّحت طائعة.

مَنْ مالك السمٰوات السبع، سماء فوق سماء فوق سماء. . . ومن يدير السبع الأرضين وملحقاتها، أرضنا فوق أرض فوق أرض. . . تحت كل سماء مجموعة، ويحيط بهذا الكون أكوان وأكوان هي العرش العظيم.

والسمٰوات والأرض في كرسي العرش كباقة زهر، والعرش محيط بالكرسي، إحاطة المملكة المجهولة الحدود بصحراء فيها باقة الزهر. ويكفي أن نعرف عن روعة المملكة، أنه هو سبحانه وتعالى سماها العرش العظيم، والعرش المجيد، والعرش الكريم.

ماذا يملك الإنسان من كل هذا؟

لا شيء أصلاً. . . ولكن الله عزّ وجل كرّمه:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَ آدمَ وَحَمَلْنَاهُمْ في البرِّ والبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيّباتِ وفَضَّلْنَاهُم عَلَى كثيرٍ مِمَنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلا﴾[1].

والله عزّ وجل سخر له ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه وملّكه تفضلاً منه وتكرماً وبدون مقابل، فهو تعالى غني عنه وعن عبادته وعن طاعته، ولكنه سبحانه لرحمته به، يحب له الإيمان ولا يحب له الكفر. ملّكه في الأرض ملكاً مؤقتاً، إذا أحسن إدارته كما علّمه الله جل

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

شأنه، سعد فيه، وكان جسراً لملك دائم باق هو دار السلام والأمن والهناءة الأبدية. أما إذا أساء الإنسان إدارة ملكه في الأرض، أفسد هذا الجسر إلى النعيم الدائم وهدّمه، فحرم نفسه مختاراً من النعيم الموعود، وأوقع نفسه مختاراً في الجحيم الموعود:

﴿وما ظَلَمَهُم اللَّهُ ولكن كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون﴾(١).

﴿وقَالَ الذيْنَ استكبَرُوا لِلذِّيْنَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُم عَنْ الهُدَى بَعْدَ إذْ جَاءكُمْ بَل كُنْتُم مُجْرمين﴾(٢).

وإذا كان الأمر كذلك، فهل نفهم أن الإنسان خلق في الأصل ليسعد؟ وفي الدارين؟

﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عليْكَ القرآنَ لتَشْقَى﴾.

صدق الله العظيم

لمن الخطاب هنا، صحيح أنه في خصوصه لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله على أساس أن (طه) بوجه من الوجوه من أسمائه صلى الله عليه وآله. ولكن الخطاب ليس حكراً على رسول الله صلى الله عليه وآله وإنما هو لكل مؤمن، إذ إن هذا اللفظ المبارك، ويعتبر من جملة ما يسمى بالأحرف النورانية، أو مفاتيح السور، كذلك (يسّ) ومثلهما مثل (الم) و(حم) و(كهيعص)... ولهذه الأحرف الكثير من وجوه أسرار الظاهر والباطن.

المهم أننا نفهم من ذلك بوضوح، أن الله عزّ وجل ما أنزل القرآن على الإنسان ليشقى، وإنما أنزله عليه ليسعد، وفي هذا القرآن قوله تبارك وتعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتٰبَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ وهُدَىً وَرحْمَةً وبُشْرى للمُسْلِمِيْنَ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧.

(٢) سورة سبأ، الآية ٣٢.

(٣) سورة النحل، الآية ٨٩.

وإذا كانت الهدايةُ رأسَ السعادة وبصرَها، والرحمةُ قلبَها وحياتَها، والبشرى جناحيها وجوّها الرحب الفسيح، فعند الله سبحانه، أكثر من ذلك، أكثر من الهداية والرحمة والبشرى. عنده الإنهاض من الكبوة، والإنقاذ من المطبات، والغطاء الكريم الشافي من الخطأ والزلل، وعنده السِتْر والعافية، يعني عنده المغفرة، أسمعه أيضاً يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وكل عامل بكتابه الكريم، بقوله سبحانه ما أعظمه وأكرمه وأرحمه:

﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفُورُ الرحِيْمُ﴾[1].

لماذا يذل الإنسان نفسه بالمعصية؟

أليس الله تبارك وتعالى هو أعلم بنفس الإنسان، وبالتالي بمصلحة الإنسان، فإذا نهاه عن أمر ما، فهل يكون تحكماً منه بدون طائل؟ حاشى لله.

وهل إذا أمره سبحانه بفعل ما، أو برياضة، ما، نفسية أو بدنية، فهل يكون أمره عزّ وجل بدون علم بالنتائج، وهو الله الذي لا إلّه إلّا هو الحق المبين.

فعلام يتجبر الإنسان، ويتكبر، ويجادل بما لا يعلم، بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير. ثم في مجال التجربة العملية:

متى كانت المعاصي مسعدة لفاعلها أو مفيدة له؟ ألا نراها دائماً وأبداً تنكفيء على صاحبها بالندامة، والخسارة، والذلة؟ أما المتعة التي يحصل عليها الإنسان أثناء سقوطه في المعصية، **أليس فضلاً عن كونها تنقطع بردة فعل موحشة منكرة، تشعره بكونه كان معها تافهاً ورخيصاً؟**

والله عزّ وجل يحب لعبده العزة والكرامة والشرف، يرفعه بذلك ويرفعه، ويجري له الامتحانات، كلما نجح بواحد منها، تحسنت قابليته

(١) سورة الحجر، الآية ٤٩.

وكفاءته، فيعرّضه سبحانه لامتحان آخر، أرفعَ وأرقى، دون أن يحمله فوق طاقته، فهو تعالى أعلم بطاقته، فإذا استقام، وَاكَبه سبحانه بلطفه، وعونه ورحمته، حتى يوصله إلى درجة يصلح لها وتليق به.

﴿وإذْ ٱبْتَلَى إبراهيمَ ربُّهُ بِكَلِمَاتٍ فأَتَمَّهُنَّ قَالَ إنِّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً. . .﴾[1].

(صدق الله العظيم)

﴿وَمَنْ يأتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالِحَاتِ فأولئِكَ لَهُمُ الدرجَاتُ العُلى﴾[2].

(صدق الله العظيم)

هذه الآية الكريمة حتى لا يقولن أحد أنا لست نبيّاً ولست إماماً، ولست معصوماً، فقد جعل الله الدرجات العلى لجميع الناس، كل إنسان يستطيع أن يتوصل إليها بزيادة الإيمان وبعمل الصالحات كلها، التي قد يعبر عنها بالدين الخالص، أو الدين المخلص لله عز وجل.

الناس مروا بتجربة المعصية قبل هذه الدنيا:

المقصود بالدنيا، هذه الأرض التي نحن عليها اليوم، وهي بمعنى السُفلى، إذ فوقها سبع سمٰوات وست أرضين، وبتعبير آخر، هي (الأرض الدنيا)، وهي وجميع متعلقاتها من الكواكب السيارة حول شمسنا مع أقمار هذه الكواكب (للمشتري وحده خمسة عشر قمراً) وملايين الشموس في مجرة درب التبانة، ومليارات الشموس في باقي المجرات، يعني أن جميع هذه الكواكب والأقمار والمجرات الهائلة بشموسها العظيمة، هي تحت السماء الدنيا، وكذلك معهن ما توصل إليه العلم من معارف وأسرار وكشوف وأجرام، وما لم يتوصل إليه بعد، لا يمكن إلا أن يكون تحت سمائنا الدنيا هذه. ولا يمكن إلاّ أن يكون من توابع أرضنا هذه، أو زينة

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤. (٢) سورة طٰه، الآية ٧٥.

لسمائها ورجوماً لشياطينها وبالنجم هم يهتدون.

فحرصاً على فكر التوحيد، وفيه الحرص على فهم عدالة الله سبحانه، وفوق عدالته رحمته، كان بديهياً علاج مشكلة واسعة الانتشار، وتشكل خللاً في صلب العقيدة، حيث بدلاً من أن نعتقد برحمة الله الواسعة ترانا نعتقد بظلمه وتحكمه، سبحانه وتعالى عما يصفون.

وهذه المشكلة التي يرددها أكثر الناس، تارة ببراءة، وتارة بجهالة، تتلخص بهذا التساؤل:

إذا كان أبوانا آدم وحواء، أكلا من شجرة الخطيئة، فما ذنبنا نحن حتى نتحمل وزرهما، ونتيجة خطيئتهما، حيث أُهْبِطَا من تلك الجنة التي فيها رغد العيش، ولا يجوع الإنسان فيها ولا يعرى، ولا يظمأ ولا يضحى. فما ذنبنا نحن وما خطيئتنا، حتى نعيش في كَدْحٍ وكَبَدٍ، وحتى تبدو لنا سؤاتنا، ونجوع ونعرى، ونظمأ ونضحى، ونحيا في هذه الأرض بعضنا لبعض عدو، ومن اتبع منا هدى الله تبارك وتعالى، فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عنه، فإن له معيشة ضنكاً، ويحشره يوم القيامة أعمى... في وقت كان من حقنا أن نمرّ بنفس التجربة، وفي نفس الجنة التي أهبط منها أبوانا.

ومن ذا الذي يدعي بدون بينة، أننا كنا سنخون عهد الله سبحانه ونعصي أمره، وننخدع بكلام عدوّ واضح العداء، هو إبليس المجرم. فضلاً عن أن ربنا الله عزّ وجل، حذر أبوينا منه تحذيراً شديداً.

على أي حال، كان من حقنا أن نمرّ بنفس التجربة، ونحن ندعي، بل ونجزم، أننا كنا تلافينا السقوط، الذي سقط فيه أبوانا. ثم إنّ الله عزّ وجل يقول:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٤، سورة الإسراء، الآية ١٥، سورة الزمر، الآية ٧.

ويقول سبحانه:
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[١].

فكيف يحملنا عز شأنه وزر غيرنا؟ وكذلك يرتهننا بما كسب ذلك الغير؟..

هذا بإيجاز، ما يُتَدَاوَل به عامةً بين الناس، وهو كما نرى، تحد للعقل الإسلامي الموحّد.

ولا بد من ملاحظة في السياق، تلفت إلى أن كثيراً من الحبر أهريق في سبيل الدفاع عن خطيئة أبينا آدم المزعومة، وملخصه أن أمر الله سبحانه لأبينا آدم كان تنزيهياً ولم يكن مَوْلَوِيّاً[٢] (مما لا يغير شيئاً في أصل المشكلة).. إلى كلام آخر، موجزه أيضاً أن الله عزّ وجل، جرّب آدم وزوجه في تلك الجنة، فوجد بعد التجربة ـ عبرهما ـ أن الإنسان لا يستطيع أن يتربى إلّا في حجر الطاعة والتعاليم، وأكثر ما تناسبه هذه الأرض الدنيا.

وبما أن الحقيقة أحق من ذلك كله، فقد قررنا بإذن الله تبارك وتعالى، أن نعقد بحثاً، نجلو فيه، ما يقيض لنا الله سبحانه من الحقائق.. وبه أستعين، راجياً وجهه الكريم ولا شيء إلّا وجهه الكريم.

أما ما قد يحمل عليّ بحثي هذا وبقية أبحاثي. من ردود فعل، قد يكون أقلها الإطلالة العصبية من سجن التقليد، والروايات الموضوعة، والأحاديث الدخيلة، والإسرائيليات.. أو حتى الرمي بهرطقات الفلاسفة، أو شطحات الصوفية، فإني بفضل ربي من ذلك كله بريء. والله حسبي، هو نعم المولى ونعم النصير.

فإلى توضيح ذلك، والله المستعان.

---

(١) سورة المدثر، الآية ٣٨.

(٢) كأمر السيد لمولاه.

(٤)

بحث علمي قرآني
أين كانت جنة آدم...
الأرض الدنيا ليست هذه الكرة وحدها

* الأرض من المجرة أم المجرة من الأرض؟
* آدم أبو البشر.. والبشر اسمهم آدم.
* وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ. فَنَسِيَ.. (أي المجموع الإنساني).

الأرض الدنيا.. ليست هذه الكرة وحدها

قبل أن ندخل في صلب الموضوع، لا بد أن نذكر بإيجاز، ما هو شائع عند الباحثين والمفسرين، من احتمالات عن مكان جنة آدم. فقد قيل فيها أنها جنة كانت في الأرض ـ المقصود هذه الكرة ـ وقيل إنها كذلك، وبشكل خاص في عدن، وقيل إنها في السماء ولكن هي غير الجنة الموعودة للمؤمنين. وقيل هي الجنة الموعودة عينها. وقد حسم هذا الأمر الأخير أئمتنا عليهم السلام في بعض الروايات بالقول: إن آدم لو كان في جنة الخلد الموعودة لما خرج منها أبداً.. وانطلاقاً من هنا نقول، أن بقية المزاعم كانت رهناً بالقصور العلمي عن الكون وعن الفلك، بسبب عدم تدبر القرآن كفاية.

من هنا لَفَتَني بفضل منه تعالى قوله:

﴿ونُفِخَ في الصُّوُرِ فإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إلى ربِّهِمْ يَنْسِلُوْنَ. قَالُوا يَـوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقدنَا هَذَا ما وَعَدَ الرحْمَـنَ وَصَدَقَ المُـرْسَلُون. إنْ كَانتْ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذَا هُمْ جَمِيْعَاً لَدَيْنَا مُحْضَرُوْن﴾[1].

فما هو هذا المرقد؟ وأين هو؟ وأين ينسلون من الأجداث؟ هل في

(١) سورة يس، الآيات ٥١ ـ ٥٣.

حدود هذه الكرة الأرضية فقط؟ منذ مدة تحطمت مركبة للسوفيات على سطح القمر، وتحطمت مركبة أخرى وأكثر، وفيها بشر، تحطمت في المجال الجوي بين الكواكب، وحسب النظرية العلمية التطبيقية، تبقى الأجسام في مناطق الجذب، تدور حول الأجرام الجاذبة، وهي لا تنزل إلى الكرة الأرضية، بل تبقى حيث هي لا يعرف مصيرها. وهنا يمكننا الاستنتاج وببساطة، أن أجداثنا ومرقدنا المنوه عنهما في الخبر القرآني، يجب عقلاً أن يكون حيّزهما في جملة مجموعتنا الشمسية كلها، وليس فقط في كرتنا الأرضية، ثم ليس في مجموعتنا الشمسية فحسب، وإنما فيها داخلة في المجرة كجزء من أجزائها، متحركة بحركتها. وبكلمة فالأرض ليست فقط هذه الكرية. لأن الأرض الكرية عضو لا يمكن أن يؤخذ، بالنظر الاعتباري، مفصولاً عن بقية الأعضاء، التي هي مجموعتنا الشمسية على أضيق الافتراضات. لأن كرية الأرض بحدود جرمها، يستحيل أن تقوم فيها حياة، من إنسان وحيوان ونبات، كما يستحيل أن تتحرك بحركات جرمها الثلاث، حول نفسها وحول الشمس وحركة المجرة وهي فيها، وكذلك حركات أجزائها، من براكين وزلازل، ومدّ وجزر، وجذب ودفع إلخ.. يستحيل أن يتم ذلك كله بالنظر إليها مُبَانَةً عن جسمها الذي هي عضو فيه، إذ إن حياة الأرض كريتنا وما يتبعها من حركات خاصة وعامة، إنما هي بسبب وجودها في هذا الجسم الذي هو المجرة، وحيث إن الله عزّ وجل، قد أبى أن تتم الأمور إلاّ بأسبابها، فيجب أن تكون الأرض ذلك الجسم الكبير، الذي من أعضائه الشمس والقمر والمشتري و... وكريتنا الأرضية هذه.

الأرض من المجرة؟ أم المجرة من الأرض؟

وكما أن الله سبحانه وتعالى سمى في الإنسان عينيه وأذنيه، وقلبه ولسانه، وعقله ونفسه، ويديه ورجليه وجلده، وغير ذلك، على أن كلية هذه الأعضاء متصلة متماسكة سماها الخلاق العظيم آدم وسماها بشراً وسماها

إنساناً. كذلك سمى من متعلقات الأرض: القمر والشمس والليل والنهار والنجوم والسماء الدنيا، إلى غير ذلك من المتعلقات. وإذا كان نظر الإنسان يعجز غالباً عن تصور حقيقة الاتصال والتماسك بين هذه الأجرام وأسرار حياتها، فسبب عجزه توهم البعد ـ بنظره ـ بين كتلاتها الضخمة من جهة، ومن جهة ثانية، قصور طاقات الإنسان عن إدراك اليسير من آثار عظمة الخالق وأسراره في خلقه:

﴿وَتَرَى الجِبَالَ جَامِدَةً وِهَي تَمُرُّ مَرَّ السَحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ إنَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(١).

ثم لنتأمل قوله عزّ شأنه:

﴿قُلْ أَئِنَّكُم لتكفرون باللَّهِ الذِي خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْن وَتجْعَلُوْنَ لَهُ أَنْدَاداً ذلِكَ رَبُّ العالِمِيْنَ. وجَعَلَ فِيْهـا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهـا وَبٰرَكَ فِيْها وقَدَّرَ فِيْهـا أقْواتَهَـا في أَرْبَعَةِ أَيَامٍ سَوَاءً للسَّائِلِيْنَ. ثُمَّ استَوَىٰ إلى السمـاءِ وِهيَ دُخانٌ فَقَالَ لَهَا وللأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعَاً أَوْ كُرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِيْنَ. فَقَضَٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ﴾(٢).

فعلى أساس هذه الآيات كانت السمٰوات سماء عظمى واحدة، وكذلك قوله تعالى: **﴿خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْنِ﴾** يعني الأرض العظمى قبل تقسيمها إلى سبع أرضين: تحت كل سماء أرض **﴿جَعَلَ فِيْهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبٰرَكَ فِيها وقَدَّرَ فِيْها أَقْوَاتَها. .﴾**.

هكذا جعل لنا سبحانه بعض الآيات منطلقاً للتفكر والكشف وضبط المنطلقات العلمية ومساراتها.

لنتأمل مثلاً في الآيات الكريمة التالية التي تكشف لنا أسراراً عن الفلك المشهود للعلماء وغير المشهود، نثبتها بغير تعليق. يقول عز شأنه:

---

(١) سورة النمل، الآية ٨٨.

(٢) سورة فصلت، الآيات ٩ ـ ١٢.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيْراً﴾[1].

أما الآيات فقوله تبارك وتعالى:

ـ ﴿الـذِيْ خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوٰتٍ طِبَاقـاً. مـا تَـرَى فِيْ خَلْقِ الـرَحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فـاَرجِعِ البَصَـرَ هَلْ تَـرَى مِنْ فُطُوْرٍ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَـرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلِيْكَ البَصَـرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيْـرٌ. وَلَقَد زَيَّنّـا السَماءَ الـدُّنْيـا بِمَصَـٰبِيْحَ وجَعلْنَاهَا رُجُوْماً لِلشَيَـٰطِيْنِ. وأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَعِيْرِ﴾[2].

٢ ـ ﴿مُتَكِّئِيْنَ فِـيْهـا عَـلىٰ الأرائِـكِ لَا يَـرُوْنَ فِيْهـا شَمْـسَـاً وَلَا زَمْهَرِيْرا﴾[3].

٣ ـ ﴿وَهْـوَ الذِيْ خَلَقَ اللَيْـلَ والنَّهَارَ والشَمْس والقَمَـرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يُسْبَحُوْن﴾[4].

٤ ـ ﴿تَبَارَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَمَـاءِ بُرُوْجاً وجَعَلَ فِيْها سِرَاجَاً وَقَمراً مُنِيْراً﴾[5].

١ ـ آدم أبو البشر.. والبشر اسمهم آدم:

إذا قلنا عاد وثمـود وسبأ إلـخ.. نفهم بهم الأقوام الـذين ورد ذكرهم في القرآن المجيد، كما هو معلوم. فإن كل قوم من هؤلاء إنما سمي بـاسم شخص هو الأب. وفي المجمع عن فروة بن مسيك قال: سألت رسـول الله صلى الله عليه وآله عن سبأ أرجلٌ هُوَ أمْ امرأةٌ، فقال: هو رجـل من العرب ولد عشرة، تَيَامَنَ منهم ستة، وتشاءمَ أربعة. فأما الذين تيامنـوا فـالأزد وكنـدة

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٣.
(٢) سورة الملك، الآيات ٣ ـ ٥.
(٣) سورة الإنسان، الآية ١٣.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ٣٣.
(٥) سورة الفرقان، الآية ٦١.

ومذحج والأشعرون وأنمار وحمير، فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا فعاملة (الذين نحن منهم، يعني نحن من سبأ)[١] وجذام ولخم وغسان.

ونحن نسأل، إذا قلنا «آدم» قاصدين به قوماً ينسبون لشخص هو آدم الأب، فهل نكون قد تجاوزنا العرف أو القاعدة، والقرآن المجيد يجري هذا المجرى في كثير من التسميات؟.

فإذا ساعدتنا القرائن ولم يعترضنا مانع من القرآن، أو مما صحّ عن غيره، فسنعتبر محنة الشجرة المحرمة في الجنة، ليست مختصة بأبوينا آدم وزوجه ـ التي لم يسمها القرآن ولا مرة ـ وإنما محنة الشجرة، هي محنة كل إنسان في أية مرحلة من مراحل التاريخ عاش، أو سيعيش هذا حتى يوم القيامة. محنة الشجرة كانت محنة كل إنسان حاضراً ناظراً عائشاً الواقع العملي، بدون مجاز، وألغاز وتخيلات.

والشجرة، هي شجرة المعصية، التي أصلها طاعة الشيطان وما تهوى الأنفس، وفروعها الكبائر وأغصانها الصغائر، وفيها تورط أبونا آدم الذي سماه بهذا الإسم ربنا سبحانه، نسبة لأديم الأرض الذي منه خلقه، وزوجه. ثم بنو آدم، أو بكلمة أخرى آدم (القوم) الذين تورطوا كذلك، ثم ذرية بني آدم، وهم شعوب البشرية التي انشعبت من تلك الأصول، ليمروا بنفس الامتحان، حتى ﴿لا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

أما لأبوينا آدم وزوجه، ومعهما بنوهما أو شعبهما (آدم، الذي انشعب منهما، فكان من ربنا سبحانه، الخطاب التالي، موجهاً بوجه الخصوص للأبوين، لمقامهما الرئاسي أو القيادي، وبوجه العموم ـ تعريضاً ـ لبني آدم التابعين آنذاك الممتحنين بنفس الامتحان، الواقعين في نفس الورطة، في تلك الجنة المفقودة، قوله تبارك وتعالى:

---

(١) سكان جبل عامل أو عاملة، في جنوب لبنان.

﴿وَيَآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذِهِ الشَجرةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَلِمِيْنَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَيْطَنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُوْرِيَ مِنْ سَوْءآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هِذِهِ الشَجَرَةِ أَلاَّ أَنْ تَكُوْنَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَلِدِيْنَ. وَقَاسَمَهُما إِنِّيْ لَكُمَا مِنَ النصِحِيْنَ. فَدَلَّهُمَا بِغُرُوْرٍ فَلَّمَا ذَاقَا الشَجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءآتُهُمَا وَطفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ ورق الجَنَّةِ ونَادَاهُمَا ربُّهُمَا أَلمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَجَرةِ وأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَيْطَنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِيْنٌ. قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الخَسِرِيْنَ﴾[١].

ثم كان الأمر بالإهباط لجميع قوم آدم، أي الأبوين الرئيسين والفوج الأول، أو الشعب الذي انشعب منهما. مبقياً على ذريتهم (بني آدم) لتمريرهم في نفس الامتحان الإنساني التاريخي.

وبعد أن أُهبط آدم وزوجه وبنوه، (أي آدم القوم)، وبقيت في الجنة المعهودة، الذرية، التي هي مجموع البشرية من ولد أبينا آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، كان لهم هذا الخطاب، الذي هو في سياق الآيات الآنفة، قوله تعالى:

﴿يَبَنِيْ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِيْ سَوْءآتِكُمْ وَرِيْشاً ولِبَاسُ التقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَتِ اللَّهِ لعلَّهُمْ يُذَّكَّرون﴾[٢].

لعلهم يذكّرون ماذا؟ لعلهم يذكرون العهد الذي في الآية التي بعد هذه مباشرة قوله تعالى:

﴿يَبَنِيْ آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ الشَيْطَنُ كَمَا أَخْرجَ أَبَوْيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لباسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوءآتِهِما إِنَّه يَرَاكُمْ هُوْ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّنا جَعَلْنَا الشَيَطِيْنَ أولياءَ للذِيْنَ لا يُؤْمِنُوْنَ﴾[٣].

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٩ ـ ٢٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

هذا عهد الله سبحانه وتعالى لبني آدم وهم في الجنة بعد أبويهم آدم وزوجه وبنيه (آدم القوم الأوائل)، وهو هو العهد عينه الذي يذكرهم به في سورة يٓس، قوله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيْ آدَمَ انْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ. وأَنْ اعْبُدُوْنِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. ولَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيْراً أَفَلَمْ تَكُوْنُوا تَعْقِلُوْن﴾[1]. (صدق الله العظيم).

والعبادة المذكورة هنا هي الطاعة، وذلك معناها أينما وقعت بشكل عام. فكل طاعة فيما يرضي الله، هي عبادة لله عز وجل وتبارك وتعالى.

وهذا العهد الذي أخذ على ذرية بني آدم في الجنة هو بعد الإشهاد المشهور في قوله عزت عظمته:

﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ آدَمَ مِنْ ظُهُوْرِهِمْ ذريتهم وأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَـٰمَةِ أَنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُوْنَ﴾[2].

ولقد عهدنا إلى آدم مِنْ قبل فنسي.. (أي المجموع الإنساني):

لذلك، يحق لنا أن نقول: أن العهد بمعنى الميثاق العمومي، مأخوذ من جميع الإنسان، ومن الأنبياء خاصة بوجهٍ آكدٍ وأغلظ، مرتباً سبحانه الجزاء لكلا الفريقين تناسباً مع العزائم:

- ﴿ولقد عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمَا﴾[3].
- ﴿فاصبرْ كما صَبَر أولوا العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ﴾[4].

---

(١) سورة يٓس، الآية ٦٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٣.
(٣) سورة طه، الآية ١١٥.
(٤) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.

ولأهمية هذا الموضوع، وما يترتب عليه أساساً، من مسؤولية أمام الله عز شأنه، ثم من هدم لنظرية فلسفية تقليدية متوارثة، قررنا بعون الله تعالى، تفصيل ذلك في البحث التالي: (القسم الخامس من هذا الكتاب).

والحمد لله حمداً خالداً بخلوده

(٥)

مؤمنون وكفار قبل الدنيا..
أهبطوا إليها جميعاً

بحث يدحض النظرية العقلية في الفلسفة الإسلامية

مؤمنون وكفار قبل الدنيا.. أهبطوا إليها جميعاً

بحث يدحض النظرية العقلية في الفلسفة الإسلامية:

﴿هُوَ الذِيْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ومِنْكُمْ مُؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ﴾[1].

نحاول في هذا البحث، بإذنه تعالى، أن نثبت أمرين: **الأول**، أنه قبل الحياة الدنيا، كان الناس في مكان ما وزمان ما، فريقين: كفاراً ومؤمنين. والأمر **الثاني**، أن الجميع أهبطوا إلى هذه الأرض، وبعضهم لبعض عدو (أما لماذا أهبط المؤمنون، فلأنهم عصوا وتابوا، وكفر الآخرون، وسنفصل ذلك إن شاء الله في نهاية هذا الباب). معتمدين لإثبات الأمرين المذكورين، على خمسة أدلة رئيسة من القرآن المجيد (عدا ما يلحق بها في السياق) وعلى ثلاثة نصوص، عن ثلاثة من آل بيت النبوة عليهم السلام: الإمام عليّ، والإمام الحسين، والإمام زين العابدين، صلوات الله عليهم أجمعين.

(١) ـ قوله عز وجل:

﴿قَالَ اهبِطَا مِنْهَا جَمِيْعاً بعْضُكُمْ لِبَعضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً

---

(١) سورة التغابن، الآية ٢.

﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولاَ يَشْقَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَىٰ﴾[1].

فبخصوص هذه الآية الكريمة، هناك ادعاءان:

أولهما: أن الخطاب لثلاثة: آدم وحواء وإبليس.

ويدل على وهنه قوله تعالى **﴿اهبطا﴾**، فإذا كان إبليس فريقاً، فما معنى قوله سبحانه: **﴿فإما يأتينّكم مني هدى فمن اتبع هداي﴾**... والمعلوم أن إبليس عليه اللعنة، أصرَّ على كفره واستكباره بصريح النصوص. فلا معنى إذن من مخاطبته بالقول **﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾** وبالقول: **﴿فمن اتبع هداي﴾** فواضح أنه لا يمكن أن يكون مقصوداً بالخطاب في هذه الآية أو في أشباهها كما سنرى فيما سيأتي.

الثاني: أن الخطاب لشخصين فقط، هما آدم وحواء، دون غيرهما من الأبناء والذرية.

وهذا مردود أيضاً، لأنه سبحانه استعمل صيغة المثنى **﴿اهبطا﴾** ثم أتبعها بصيغة الجمع **﴿يأتينكم﴾**. وصحيح أنه يجوز خطاب الإثنين، لغة، بصيغة الجمع للتوقير والاحترام، ولكن المورد هنا ليس كذلك، بل هو مورد العقوبة. فلو كانا في هذا المورد اثنين فقط، لكان قال سبحانه **﴿فإما يأتينكما مني هدى...﴾**.

فنخلص من ذلك كله، إلى حقيقة أن الخطاب كان لجمعين: آدم وزوجه، أي الذكور والإناث، ومثله قوله تعالى:

﴿... وقَالَ لَهَا ولِلأَرْضِ آتِيَا طَوْعَاً أَوْ كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِيْنَ﴾[2].

علماً أن الأرض سبعة أجرام. وكذلك قوله عز وجل:

---

(١) سورة طه، الآيتان ١٢٣ و١٢٤.

(٢) سورة فصلت، الآية ١١.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ والأرضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا﴾[١].

وهما جمعان، فقال (حفظهما) بصيغة الإثنين.

على أن هذه الآية التي بدأت بصيغة المثنى (قال اهبطا) يقابلها ثلاث، بخصوص نفس الموضوع، بصيغة الجمع (اهبطوا) كما سنرى وقبل أن يتسرب للظن، أنهما اثنان وإبليس معهما فأصبحوا جمعاً، نعود فنذكّر، بأن قوله تعالى في الآية:

﴿فإما يأتينكم مني هدى...﴾.

لا يمكن أن يشمل إبليس، وهو قد أبلس[٢] من رحمة الله تعالى، ولو كان موجهاً لآدم وزوجه حواء، فقط، لكان قال سبحانه (فإما يأتينكما مني هدى...) مستثنياً إبليس، باعتبار ثبوت اللعنة عليه، وهي الإخراج من رحمة الله، ووعده بتخليده بالعذاب

ثم نعود، فنقول إنهم بعد الإهباط، وعدهم سبحانه بأن يأتينّهم بهدىً من عنده:

﴿فمن اتبع هداي﴾...

ـ قبل الإهباط، وبعده ـ وهذا الاستنتاج، سيصدم الفهم التقليدي، ولكن مع تحرير الفكر مستعيناً بالله.

﴿فلا يضل ولا يشقى...﴾.

ومن أعرض عن الذكر ـ الذي هو الهدى ـ في السابق، فله تجربة الحياة الدنيا، وباب التوبة مفتوح أبداً، وباب الرحمة أوسع.

ومن أعرض عن الذكر، في النشأة الأولى وفي النشأة الثانية، فقد حرم هو نفسه من رحمة الله تعالى، وفوّت على نفسه فرصة التوبة،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٢) يَئِسَ.

متفلسفاً، أو مقلّداً، بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير. مما ينتج عنه المعيشة الضنك، والعمى يوم القيامة، يعني عيش الغفلة والبهيمية والتأزم، ويوم النشور يحجبه صدوده عن الرحمة، وآثامه وكفره، وعدم توبته، عن مصدر العفو والعافية الأبدية، فيسقط في الظلام الأبدي، هكذا، مختاراً، جهاراً نهاراً:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ولكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُوْنَ﴾[1].

(صدق الله العظيم)

وفوق ذلك كله، يبدو أن الأمر أبلغ وأعمق، فالذين آمنوا قبل الإهباط، وكأنه محسوم أمر هدايتهم بعد الإهباط. أما العكس فصحيح. ولعل هذا يلقي ضوءاً على قول رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي، بسبب من عدم فهمه، حاول الكثيرون ردّه أو تضعيفه، أو في أحسن الحالات تجميده. والحديث الشريف هو قوله صلى الله عليه وآله: «السعيدُ سعيدُ في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه».

وهنا، ينبغي لجلاء الأمر، إعطاء فكرة كافية مقنعة بما نشير إليه، أن نذكِّر بالأحد عشرة آية من بداية سورة (يس)، وهي السورة التي أَلْفَتَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى تميزها بقوله: «لكل شيء قلب وقلب القرآن سورية (يس)»،

فلنرجع إلى المرجع، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولنتأمل بخشوع وتدبر وروية هذه الآيات، ولا نكوننّ ممن عناهم سبحانه بقوله:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٧.

(٢) سورة محمد، الآية ٢٤.

ولا من الذين قال تعالى فيهم:

﴿وإِذَا قِيْلَ لَهُم اتَّبِعُوْا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجْدَنا عَلَيْهِ آبـاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَيْطَانُ يَدْعُوْهُمْ إلى عَذَابِ السَعِيْرِ﴾[1].

وآيـات (يس) التي ندعـو للتأمـل فيهـا، تشهـد لنفسهـا، لغنـاهـا عن البيان. ولعلنا في ضوئها نفهم نسبـة صحة الحـديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه».

وتـزول غرابـة ما نـرمي إليه، إذا تـأملنا ضمن هـذه الآيات الكـريمـة خاصة في قوله تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلىٰ أَكْثرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ﴾[2].

وقولُه عز شأنه:

﴿وسَوَاءٌ عَلَيْهِم أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ﴾[3].

(٢) ـ قوله تبارك وتعالى:

﴿قُلْنَا اَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيْعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[4].

تكرار هذه الصيغـة تجده في بضـع آيات تتعلق بنفس الـواقعة، وفيـه لغة الجمع ومبدأ العداوة.

ومصداق ذلك ما نراه مستمراً بين ولد آدم في تواريخ الأمم، والتاريخ المعاصر، وطبعاً إلى قيام الساعة.

والـذي يحلم منا، بمـرحلة من الزمـان يكـون فيهـا النعيم على هـذه الأرض، فهو مشتغل بروايات ما أنزل الله بها من سلطان، منسوبة زوراً إلى

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢١.
(٢) سورة يس، الآية ٧.
(٣) سورة يس، الآية ١٠.
(٤) سورة البقرة، الآية ٣٦.

رسول الله صلى الله عليه وآله، وأئمة الهدى عليهم السلام، وبينما القرآن يردها وينفيها، نراهم، إما يفسرون القرآن بموجبها، والعكس هو المطلوب، وإما يخوضون فيها خوضاً شنيعاً ويجعلون القرآن وراء ظهورهم.

ونعود لنقول إن النشأة الثانية هذه، في الأرض الدنيا، هي من حيث العداوة بين فريق الخير وفريق الشر، يبدو أنها صورة مكررة عن النشأة الأولى.

وهذه العداوة كانت عبر نوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح عليهم السلام وأقوامهم، ثم موسى وعيسى عليهما السلام، ثم الخاتم محمد صلى الله عليه وآله، وفي ذلك قول الله عز وجل:

﴿وكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لكلِ نَبِيّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِيْنَ﴾[١].

والملاحظ بشكل مدهش، عبر القصص القرآني، دائماً، القلة النوعية من المؤمنين، المنتصرة بالله عز شأنه، والكثرةُ الكاثرة من الكافرين، المخذولة من الله عز وجل.

ويستمر صراع النقيضين: المؤمنين والكفرة، في المحطة الثانية أرضنا هذه:

﴿لِيَقْضِي اللَّهُ أمراً كان مَفْعُولاً﴾[٢].

(٣) ـ قول الله عزّ وجل:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدَىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُوْنَ. والذِيْنَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآيَتِنَا أولئِكَ أصْحَابَ النارِ هُمْ فِيْها خَالِدُوْنَ﴾[٣].

(١) سورة الفرقان، الآية ٣١.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٢.
(٣) سورة البقرة، الآيتان ٣٨ و٣٩.

كذلك، بخصوص أن الناس كانوا قبل الحياة الدنيا، أيضاً نلاحظ عبارة:

﴿فمن اتبع هداي﴾.

التي قلنا إنها تحمل معنى الماضي. وكذلك عبارة:

﴿والذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآياتِنا﴾.

والقرآن كما هو معلوم له ظهور وبطون.

وقد حمّلهما سبحانه معنى (الماضي) قبل هذه الدنيا، إرشاداً لواقع الحال. وأما المستقبل الذي هو بعد الإهباط، فجلّيٌ في قوله تعالى:

﴿فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً﴾.

وكلا الأمرين الإهباط وتجديد الهداية، ما هما إلّا تفضل منه وتكرم وحجة على رحمته الواسعة التي هي الغايةُ من خلقه، والتي صدّ عنها من صدّ، وكفر بها من كفر، وما أراد بها سبحانه إلّا إسعادهم، وهو تبارك وتعالى بغنىً عنهم وعن عباداتهم وعن طاعاتهم وعن جميع ما خلق ومن خلق، قوله سبحانه الكبير المتعال:

﴿ويُسَبِّحُ الرَعْدُ بِحَمْدِهِ والمَلائِكَةُ مِنْ خَيْفَتِهِ، وهُمْ يُجَادِلُونَ في الله وهُو شَدِيْدُ المِحَالِ﴾[١].

وقوله عز شأنه:

﴿فَكَفَرُوا وتَوَلَّوْا واسْتَغْنَى اللَّهُ واللَّهُ غنيٌ حَمِيْدٌ﴾[٢].

(٤) ـ قوله عزّ شأنه:

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعَضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ ولَكُمْ فِيْ الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إلى حِيْنَ﴾[٣].

---

(١) سورة الوعد، الآية ١٣.

(٢) سورة التغابن، الآية ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٤.

إن إهباط الكفرة للأرض كان إمعاناً في إلقاء الحجة عليهم.

ولماذا لم يُنْزِلْ بهم العقوبة سبحانه قبل الإهباط؟ لأن القضية قضية تخليد في العذاب، والأمر جلل. ولأن رحمته سبحانه تسبق غضبه.

أما إذا كان الإصرار على استدعاء غضبه، والأعراض عن رحمته، والتعرض لنقمته، فالكافر هو يستعجل العذاب في هكذا حال. والله عز وجل يعطيه فكرة عملية، عن العذاب والآلام، سواء عبر العداوة لأهل الحق، وما يتعرض له الكفار من خزي وعنت وخذلان، أو عبر شتى الابتلاءات التي تلحق بالمؤمنين، ثم مقارنة ذلك كله، بتذوق ألوان المتع والسعادات.

والإنسان ملزم في ذلك بالاستنتاج عقلاً، أن عذاب الله عز شأنه، في الآخرة هو العذاب الأكبر الأبدي، وأن نعيم الله تبارك وتعالى، في دار البقاء، هو النعيم الأبهى والأشهى والأرغد والأخلد.

ونستفيد استعجال الكافر العذاب، وتأكيده سبحانه أن وعده الحق آت ولو بعد حين، رغم تأجيله النقمة بالرحمة، مع النذير بشدة العذاب، لعلّ الكافر يرعوي، أو يثوب إلى رحمة ربه، من قوله تبارك وتعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُوْنَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّوْنَ﴾[1].

وإشارة إلى طول العذاب لمن أعرض عن رحمة الله تبارك وتعالى، وجه من وجوه قوله عز شأنه:

﴿وإن يوماً﴾.

معنى ذلك أنه يوم من أيام عديدة. أبو عبدالله الصادق عليه السلام ألقى عليها الضوء في حديث: «ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإن

(١) سورة الحج، الآية ٤٧.

في القيامة خمسين موقفاً كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية:

﴿في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وفي المجمع روى أبو سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما أطول هذا اليوم! فقال: «والذي نفس محمد بيده أنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»(*).

والفرق العظيم الهائل، بين حال من يعرض عن ربه وعن رحمة ربه، وبين من يقبل عليه سبحانه، وعلى رحمته عابداً ساجداً شاكراً!...

ذلك هو الفرق بين أقصى درجات الشقاء وأعلى درجات السعادة.

* ولماذا أمرنا بدعوة الكفار إلى الله وإلى دينه الحنيف؟

* كذلك لإلقاء الحجة وإبراء الذمة.

* ولماذا كان إهباط المؤمنين؟

* لاستكمال التوبة، وللأخذ بأسباب القوة على أساس دين التوحيد، لضبط المجتمعات، وعمارة الأرض، وتحقيقاً لوعده سبحانه بالاستخلاف. وزيادة في أجر المؤمنين في المجاهدة، وحمل الأمانة....

ثم نظرة في قوله عز وجل:

﴿وَذَكِّرْ إِنَّ الذِكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِيْنَ﴾.

تفيد أن غير المؤمنين مستثنون.

أما إلقاء الحجة وإبراء الذمة، فيجعلنا غير قادرين غالباً على ضبطهم، حيث إنهم في حال تمكن المؤمنين، يتسترون بالإيمان، ويلبسون لباس التقوى وهم ألدّ الخصام.

(*) الميزان، المجلد العشرون، ص١٢.

فإلقاء الحجة عليهم يكون من المؤمنين من جانب، ومن اللباس الذي هم تلبسوا فيه من جانب آخر.

أما إبراء الذمة، فتلبية لأمره. عز وجل، قوله تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُو أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهْتَدِيْنَ﴾[1].

فلحكمة منه سبحانه في جعلنا أيضاً غير قادرين غالباً على التمييز، بين من هو مؤمن ومن هو كافر أو منافق.

ومن وجوه حكمته في ذلك، الرحمة بالفريقين، لأنه إذا رفع الغطاء عن الكفرة، انكشفت حقائقهم عن قردة وكلاب وخنازير، منها من يحكم، ومنها من يساكنك ويؤاكلك، وتعالج معه شؤون الساح وشؤون المجتمع، فكيف تكون الحالة والعيش معهم إذا أطلوا بهذه الحقائق من تحت الجلود؟! . . .

لذلك سبحابه احتفظ بعلم ذلك وحجبه عنا ـ إلاّ لَماماً ـ حيث يتفضل تعالى بشيء من ذلك إذا كان فيه مصلحة للعباد. أما القاعدة العامة في هذا الصدد فهي قوله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوْ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾.

* ولماذا، أيضاً، كان اهباط المؤمنين؟

* فوق ما ذكرناه مختصراً: للتزود بالباقيات الصالحات، استعداداً لتلبية أمره سبحانه وتعالى في قوله عز شأنه:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِيْ إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلِيْ في عِبَادِيْ وادْخُلِيْ جَنَّتِيْ﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) سورة الفجر، الآية ٣٠.

﴿ولِكُلّ دَرَجَـٰتٌ مِمَّا عَمِلُوا ولِيُوَفِّيَهُم أعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ﴾[١].

(٥) ـ وأخيراً وليس آخراً، من أدلة القرآن الكريم على ما نحن في صدده ـ إذ ما يزال في القرآن الكثير من الأدلة الدامغة على ما نقول ـ هذه الآية المدهشة، قوله عز شأنه:

﴿الذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَـٰبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُوْنَ. وإذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمنَّا بِهِ إنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّنَا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِيْنَ. أولئكَ يُؤْتَوْنَ أجرَهُمْ مرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾[٢].

قبل أن نرصد في هذه الآيات الكريمة، نشأة أولى قبل نشأة الحياة الدنيا هذه، يجب أن نحل عقدة في آية مشهورة هي قوله عز وجل:

﴿واللَّهُ الذِيْ أخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُوْنِ أُمَهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَمْعَ والأَبصَـٰرَ والأفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾[٣].

وشهرة هذه الآية الكريمة عائدة إلى كون كثير من الكتاب الإسلاميين في مجال التفسير عامة، وفي مجال الفلسفة خاصة، كثيراً ما يعتمدون عليها كدليل قوي يستدلون به على كون الإنسان لا يملك أية معلومات سابقة قبل خلقه على هذه الأرض.

ومن هنا كان إسقاط نظرية المُثُل عند أفلاطون[٤]، وكذلك مقولات (كانت)[٥] و(ديكارت) وغيرهما في هذا المجال، ومقاربة آراء الحسيين

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٩.
(٢) سورة القصص، الآيات ٥٢ ـ ٥٤.
(٣) سورة النحل، الآية ٧٨.
(٤) أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م) فيلسوف مثالي يوناني وتلميذ لسقراط ومؤسس المثالية الموضوعية. حارب التعاليم المادية ولكي يتمكن من تفسير الوجود أنشأ نظرية عن وجود الصور الخالدة للأشياء سماها (المُثُل) أو الأفكار، ووحّدَ بينها وبين الوجود، ووضع في مقابل (المُثل) العدم الذي هو المادة والمكان... (المراجع).
(٥) اعتبر أرسطو المقولات Categories أنها الأحوال الرئيسية للوجود إذ رصد عشر

مثل (بيكون)، والخروج بنظرية الانتزاع وما شاكلها.

على أنه في معزل عن الفلسفة التي لا نتحمس لها لا من قريب ولا من بعيد، نبقى مع القرآن المجيد، لنتابع القول، أنه في مجال تعارض الأدلة القرآنية إذا رجح المحكم على المتشابه أخذ بالمحكم، ثم وجوب النظر في عدد الأدلة الصريحة، من حيث الكثرة في مقابل دليل واحد، أو أدلة قليلة يكتنفها الغموض.

ويظهر الغموض في آية:

﴿واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُوْنِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً﴾.

كلما أمعنا النظر في الآيات السابقات ـ مما ذكرنا ومما لم نذكر كثير ـ ولكن الغموض ينجلي بقليل من التأمل والمقارنة:

فعوداً إلى قوله تعالى في آية الإشهاد:

﴿أَنْ تَقُولُوْا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ﴾.

يبدو أنها الغفلة الطبيعية، بسبب رحلة ما بعد الإشهاد، وصدمة الإهباط:

﴿قَالَ اهْبِطُوْا مِنْها جَمِيْعاً﴾.

والسفر في الأصلاب والأرحام عبر ظلمات ثلاث، والظاهر أنه بديهي أن يخرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وهم في حالة ما يشبه فقد الذاكرة، إلّا أنه لا بدَّ من تذكر الحقائق العليا، التي نوه عنها سبحانه في

مقولات (الجوهر الكيف الكم... إلخ) أما المقولات عند كانط، الذي طوَّر المذهب المثالي، فهي أشياء قَبْلية للتأمل والعقل. ونظر هيغل Hegel إلى المقولات في تطورها الجدلي ولكنها في مذهبه أشكال ومراحل مثالية في تطور الفكرة المطلقة التي تخلق العالم الواقعي، ويجري تجاهل المقولات في الفلسفة المثالية المعاصرة.. (تراجع الموسوعة الفلسفية... بإشراف م. روزنتال وب. يودين... دار الطليعة بيروت، ١٩٦٧ ص٤٤٩).

آيـة الإشهاد وآيـة الفطرة وآيـة إقرار الأنبيـاء والآيـات التي فصلنـا في هـذا البحث، سيّما الدليل الخامس. والمتأمل في سيـاقات القـرآن الكريم يجـد الكثير من المدهشات، التي يصبح معها خبر:

﴿لا تَعْلَمُوْن شَيْئاً﴾.

قضيـة مرحليـة في بـدايـة العمـر، بعـد السفـر الـطويـل في الـزمـان والمكان، والصدمات بين إهباط وتحويل وولادة.

نعم، لا بد من تذكر الحقائق العليـا، ولكن لكي يتم التذكـر، لا بدّ من مثيرات، تمامـاً كما يحصـل للناس الأسـوياء في حيـاتنا العـادية، حيث إنهم يتعلمون أموراً عقلية وبراهين ثم ينسونها فـإذا هم سمعوا، أو رأوا، أو شعروا، أو فكروا بما يذكرهم بها، تذكروها. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

وعلى ذلـك نبّه الله سبحـانه في آيـة ﴿لا تعلمون شيئـاً﴾ بقـولـه عـز شأنه:

﴿وجَعَلَ لَكُمْ السَمْعَ والأبْصَارَ والأفْئِدَةَ﴾.

وهذه الجوارح خلقهـا عز وجـل، لغايـات ومصالـح وفوائـد، تكاد لا تحصى ولكن لعـل أهمها وأبـرزها، التـذكـر. إذ لـولا التـذكـر، والـذكـر، والـذاكرة، لمـا صمد علم ولا فقـه ولا دين عند الإنسـان، ولضلّ الإنسـان حتى عن نفسه، وعمن وعما حوله، فضلاً عن بقية الضلالات.

من هنـا أصبحت الآيـات الثـلاث في الـدليـل رقم (٥) أبلغَ حجـة، وحقيقة النشأة الأولى قبل نشأتنا في هذه الحياة الدنيا، أكثر إشراقاً.

فمن يدعي في معنى قوله عز وجل:

﴿الذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَـبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُوْنَ﴾[1].

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٢.

والكلام عن القرآن المجيد، والخبر فيه تعميم، من يدعي أن المقصود بذلك هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى؟ وهل يزعم عاقل تدبر القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي، أن أهل الكتاب هؤلاء، آمنوا بالقرآن المجيد؟ إذن ما قضية جدال اليهود ومعاندتهم وكذبهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ثم مساعدتهم لأهل الشرك ومؤامراتهم، وبعد ذلك كله كيدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وللمسلمين.

وما قضية حرب المسلمين لبني القينقاع وبني النضير وبني قريظة واجتياح حصونهم.

ثم النصارى ووفدهم الرئيسي وجدالهم الذي تعنتوا فيه حتى كانت قضية المباهلة.

وبعد ذلك كله كيف يقال إن هذه الآية الكريمة تعني اليهود والنصارى وإنهم آمنوا بالقرآن الكريم؟ إذن هم أسلموا وهذا خلاف الواقع التاريخي والواقع الراهن.

وكذلك قوله تبارك وتعالى في الآية الثانية:

﴿وإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم قَالُوا آمنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقّ مِنْ ربِّنَا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِيْنَ﴾(١).

وهذا المعنى قطعاً لا ينطبق لا على اليهود ولا على النصارى، ولا على أي أهل كتاب غيرهم في حياتنا الدنيا هذه. ونعود لنلفت النظر إلى أن الكلام فيه تعميم.

ثم الآية الثالثة وهي الأعجب، قوله عز وجل:

﴿أولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾...

أي اليهود والنصارى، حسب التفسير التقليدي، وعلى ذلك فإن

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٣.

الكافر الأصلي يؤتي أجره مرة واحدة، إذا هو صدّق بالقرآن وأسلم، وهو لا يملك أية مقومات دينية أو إيمانية، بينما الذي يملك مقومات، وهو المفروض به أن يسارع إلى اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وما أنزل الله عليه من القرآن، نراه يؤجر مرة زائدة على الكافر الأصلي. وهذا خلاف منطق العقل السويّ. وشرع الله عزّ وجل، فُصِّل كفاية للعقول السوية، فإذن هذا يخالف شرع الله تبارك وتعالى.

إذن ما معنى هذه الآيات الثلاث الكريمة؟

لم يبق هناك مجال لأي افتراض. إذن الحقيقة هي نشأة أولى قبل نشأة الحياة الدنيا هذه، والمقصود بالآيات الثلاث، أولئك الذين أوتوا الكتاب في النشأة السابقة فصدقوا به وآمنوا، ثم صدقوا بالقرآن الكريم وآمنوا، أولئك يؤتون أجرهم مرتين، والحمد لله رب العالمين.

أما النصوص الثلاثة التي كنت وعدت بها في مطلع هذا البحث فهي:

* في (دعاء الصباح) لأمير المؤمنين قوله عليه السلام، مصلياً على محمد وآل محمد:

ـ صلّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل، والماسك من أسبابك بحبل الشرف الأطول، والناصع الحسب في ذروة الكاهل الأعبل، **والثابت القدم على زحاليفها في الزمن الأول**..ـ.

* (دعاء عرفه) للإمام الحسين عليه السلام، وهو من الأدعية الطوال، وشهرته عائدة لكونه كنز لا يثمن، من شفيف المعاني، وحرارة التوجه، وصدق التبتل وصفاء العبرة، ورقة النبرة، إلى معان يشعر معها الإنسان المؤمن، بمدى حبه العظيم لخالقه العظيم عز شأنه وجلت قدرته، وبشوق إلى رحمة الله ونعيمه تصغر معه هذه الأرض، حتى لتغدو لعباد الله الأحرار، سجناً مَمِضّاً، مُمِلاً خانقاً يحنون فيه لفك القيد والانعتاق.

وفي هذا الدعاء، دليل على المطلب الذي نعالجه منذ بداية البحث، وهو قول الإمام الحسين عليه السلام:

ــ . . . لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي له يسرتني، وفيه أنشأتني ومن قبل ذلك رؤفت بي بجميل صنعك وسوابغ نعمك، فابتدعت خلقي من مني يمنى، وأسكنتني في ظلمات ثلاث من لحم ودم وجلد، لم تشهدني خلقي، ولم تجعل لي شيئاً من أمري، ثم أخرجتني للذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا تاماً سوياً، وحفظتني في المهد صبياً. . . ــ.

* أما النص الثالث للإمام زين العابدين عليه السلام، فهو أيضاً (دعاء عرفة) الخاص به، وهو الإمام السجاد، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، من دوحة طيبة زكية طاهرة مطهرة، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. وهذا الدعاء في الصحيفة السجادية، التي ما زالت تكتب فيها الشروح والتعليقات، وهي على كثرتها، لم تف بعد ببعض بعض فضل الله تبارك وتعالى على العباد فيها.

والدليل الذي نريد، هو قول الإمام السجاد عليه السلام:

ــ اللهم وأنا عبدك الذي أنعمت عليه قبل خلقك له، وبعد خلقك إياه، فجعلته ممن هديته لدينك. . . ــ.

ونحن لم نعلق على النصوص الثلاثة لوضوح المطلب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(٦)
الدماغ
بين
علم العقل و علم النفس

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البرِّ والبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيِّباتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

الخلايا العصبيّة أو مفاعل النشاط البشري

في تحقيق عن الدماغ تحت عنوان «رحلة العلماء في كشف أسرار الدماغ والعقل» ورد فيه: «ولكن الأساس في ذلك هو (خلية عصبية تستطيع أن تتخاطب مع أنواعها بلغتها الخاصة، ولغة هذه النبضات الكترونية، تسري في داخل الكائنات الحية، دون أن تشعر بسريانها. وبهذه اللغة الغريبة التي تسجلها أجهزتها الإلكترونية الحساسة على هيئة خطوط ترتفع وتنخفض، يكون التخاطب والتفاهم، بين هذا المجتمع الخلوي العظيم، الذي تضمه أجسام الكائنات الحيَّة».

«إن «الخلية العصبية» واحدة في جميع الكائنات الحية».

«إن أعصاب الدماغ تطلق مادة قادحة عند المحور».

عدد خلايا الدماغ ١٢ مليون خلية هي بمثابة ١٢ مليون بطارية»(*).

نستنتج، **أولاً**: ما هي هذه اللغة التي تتخاطب بها الخلايا العصبية، بثاً وتلقياً، وشعوراً وإحساساً، وتفكراً وتخيلاً، ونوماً ويقظةً، ونشاطاً وهدوءاً و... إلى ما لا يمكن حصره من نشاطات الإنسان ولو بموسوعات، ما هي هذه اللغة الثرية البسيطة على تعقيدها، الواسعة التي تكاد تسع العالم،

(*) العربي - العدد ٢٦٩ أبريل ١٩٨١.

ومن وضع رموزها وشيفرتها، منذ دبت الحياة على هذا الكوكب. هذه اللغة التي تستوعب كل اللغات ولكن كل اللغات الأرضية لا تستوعبها ولا تفهمها:

﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُوْنِيْ مَاذَا خَلَقَ الذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ﴾[1]. صدق الله العظيم.

ثانياً: ما دامت الخلية واحدة في جميع الكائنات الحية، فلماذا لم يكن الفيل والجمل، أو الشمبانزي أو الأورانج من القردة العليا، هي صاحبة الحضارة المسلطة على الإنسان، وهي التي تقود السيارة والطيارة والباخرة، وتنظم الشعر، وترتل الكتب المقدسة؟

وما دام الإنسان عينه لم يخلق هو دماغه ولا خلاياه، ولا أدمغة غيره ولا خلاياها من الكائنات الحية، وهو كذلك لم يضع لغة هذه الخلايا ولا يفهم لغتها الباطنية ولا أسرارها منذ وجد وحتى الآن؟ فمن ذا الذي سوّده على الأرض والفضاء والبحار وبالتالي على الكائنات الحية، من ذا الذي سخر له ما في الأرض وما في السماء جميعاً منه، ومن أعطاه هذه القدرات الهائلة التي بنى بها المجتمعات والحضارات وتجول في أجواء الكرة السماوية وغزا القمر وراود الكواكب الدّوارة، يستكشفها وقد يهبط عليها يوماً ما، وهو ما زال يطلق مركباته الفضائية، يرصد كوكبنا الأرض من جميع جهاته كما يرصد الشموس والأقمار والمجرات. من جعل هذا الإنسان سيداً ومكنه علىٰ هذا الكوكب في وقت ما زال فيه عاجزاً عن فهم لغة خلاياه العصبية وغير العصبية حيث تحافظ الأولى (العصبية) على عددها (١٤ مليار خلية عند الإنسان: دماغه وجملة جهازه العصبي) يكتمل عددها قبل الولادة بأربعة أشهر بدون أي تغيير أو نقص أو تكاثر[*]، أما غير العصبية، فتتغير وتنشطر، ويموت البدن كله بموتها كل عشر سنوات، ليحل محله بدن جديد.

---

(١) سورة لقمان، الآية ١١.

(*) كتاب (الطب محراب العلوم) للدكتور خالص جلبي.

الادراك بين النوع والدرجة

في المعركة العلمية التي ما زالت قائمة بين الدينيين الذين يقولون إن الإنسان خلق رأساً خلقاً مستقلاً عن بقية المخلوقات لا سيما عن الحيوان، وبين أصحاب النظريات التي تعتبره تحول وتطور عن القردة، أقول في هذه المعركة كان للإدراك الحيّز الأكبر والأهم في مجالي المقارنة والاستنتاج.

واستدلّ أصحاب نظرية النشوء والتطور على أن الإنسان تحول من القرد بعدة أمور أبرزها تشابه القرد مع الإنسان من حيث الفهم والإدراك، حيث يقولون إن إدراك القردة العليا وتصرفاتها الواعية تفوق جميع الحيوانات الأخرى، وأنها قريبة في ذلك من الإنسان وأن الإنسان لا يفوقها إلاّ في الدرجة.

يقول الدكتور مقداد يالجن(*): «والقرود الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغاً، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠ غراماً وغاية ما بلغه في الأورانج ٤٢٠ غراماً ويعدون ذلك من الشواذ.

ثم يذكر يالجن ميزات كثيرة للإدراك عند الإنسان ليست موجودة لدى القردة العليا، وأظهر هذه الميزات، الحقيقة الدينية، يقول: «من هنا صدق الذين قالوا أن الدين نشأ مع نشأة الإنسان، ووجد مع وجوده، لأن الشعور الديني والتفكير الديني، ظاهرةٌ لواقعٍ مخلوق في الإنسان، ومن هنا لا نجد أية ظاهرة للتدين لدى أي كائن حيواني غير الإنسان، ولهذا كان التدين من المميزات الخاصة للإنسان.

وهكذا يحاول يالجن أن يثبت بردوده واستدلالاته أن الفارق بين الإنسان وبين الحيوانات بشكل عام والقردة بشكل خاص هو فارق بالنوع وليس بالدرجة(*).

(*) مجلة الهادي. السنة الخامسة، العدد الرابع.

(*) نفس المصدر.

في الحقيقــة إن رأي يَـاْلْجِنْ هــو نصف الحقيقـة، والحقيقــة هي: صحيـح أنه فـارق بالنـوع في أصل الخلقـة ولكن هـذا الأصـل ينتكس في قطاعات كبيرة من البشر فيصبح فارقاً بالدرجة، وتفصيل ذلك فيما يلي:

هل وزن الدماغ عند الإنسان دليل على سلامة تفكيره؟

قبل أن نجيب على السؤال، لا بدَّ من التنبيـه، إلى أننا عنـدما نتكلم عن وزن الدماغ والفـوارق فيه بين الإنسـان والحيوانـات، فإنمـا نعني دائماً الـوزن النسبي، أي المتناسب مـع أوزان الأبدان (فـالفيل مثـلاً يزن دمـاغـه ثلاثة أضعاف وزن دماغ الإنسان، والحوت الكبير يزن دماغه خمسة أضعاف دماغ الإنسان. ولكن النسبة ما بين وزن الكائن ووزن دماغه هي أرقى وأكبر شيء عند الإنسان فقط، حيث تعـادل النسبة تقـريباً ٢,٧٣٪ بينمـا هي عند الحيوانات القاضمة ٢,٠٪)[1].

وهكذا على صعيد النوع الإنساني، فقد يكون وزن دماغ إنسان نحيل بالنسبة لجسمه، هو أرجح وزناً من دمـاغ إنسان ضخم أو يعـادله أو تنعكس القضية، فالأمر متعلق بأمور متداخلة بين النشأة الأولى والنشأة الثانية.

إلّا أن الأهم في المـوضوع، هـو أن رجحان الـوزن، وإن كان دليـلاً على السعة، إلّا أنه ليس دليـلاً على العقل المؤمن الفعـال ولا على سلامـة التفكير واتباع الحق.

ولتفصيـل ذلك، فـإنه مـا من شك أن لفـارق الوزن بين دمـاغ إنسان ودماغ إنسان آخر دلالة أكيـدة على الفارق بـالطاقـة والكفاءة، والقـدرة على الإنتاج والفاعلية، ولكن يتضح لنا من القرآن المجيد، أنه مع كل رجحان، تكون هناك زيادة في التكليف وحمل المسؤولية قوله عز وجل:

---

(١) (الطب محراب العلوم) للدكتور الجلبي.

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿وقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرى اللَّهُ عَمَلَكُم وَرَسُوْلُه والمُؤْمِنُوْنَ﴾[٢].

وقد ضرب الله مثلاً على سعة وأوزان الأدمغة وأصحابها، ومقاديز ما تنتج ونوعية ما تنتج، وما ينفع من نتاجها وما يضر، والمحق منها والمبطل، والسقيم منها والصحيح بقوله عزّ شأنه:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحْتَمَلَ السَيْلُ زَبَداً رَابِياً ومِمَّا يُوْقِدُوْنَ عَلَيْهِ فِيْ النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ اوْ متاع زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والبَاطِلَ فأَمَّا الزَبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنْفَعُ الناسَ فَيَمْكُثُ فِيْ الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[٣].

وفي الآية التي تليها ينقلنا تبارك وتعالى من روعة المَثَل البليغ وجمال رموزه، إلى ما يترتب على هذا المثل من واقع الحال وخطر المسؤولية، بسبب ما تحمله هذه الأدمغة من حريات عامة وحرية خاصة، هي حرية الاختيار، وبخصوص انقيادها للعقل المهتدي بالله، أو انقيادها لهوى النفس وأهواء الآخرين وبكيفية تفاعلها مع ما تحمل، وأيضاً بخصوص ما تترك من آثار.. ونتيجة كل ذلك.. بقوله سبحانه:

﴿لِلَّذِيْنَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الحُسْنَى والَّذِيْنَ لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أولئك لهم سُوءُ الحِسَابِ ومَأْواهُمْ جِهَنَّمُ وبِئْسَ المِهَادِ﴾[٤].

ثم هذا النص المدهش، في كتاب الله الكريم، وفيه حوار بين

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٥.
(٣) سورة الرعد، الآية ١٧.
(٤) سورة الرعد، الآية ١٨.

التابعين الضالين ويسميهم الله (المستضعفين)، وبين الذين ركبوا رؤوسهم عناداً وبهيمية من أصحاب الأدمغة الوازنة، ويسميهم الله (المستكبرين) يقول عز شأنه:

﴿وقَالَ الذِيْنَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القُرآنِ ولا بالذِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القَوْلَ يَقُوْلُ الذِيْنَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُم لكُنَّا مُؤْمِنِيْنَ. قَالَ الذِيْنَ اسْتَكْبَروا لِلَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا أنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِيْنَ. وَقَالَ الَّذِيْن اسْتُضعِفُوا لِلَّذِيْنَ آسْتَكْبَرُوا بَلْ مُكْرُ اللَّيْلِ والَّنهارِ إذْ تَأْمُرُونَنَا أنْ نَكْفُرَ بالله وَنَجْعَل لَهُ أَنْدَاداً وأَسرُّوا النَدَامَةَ لمَّا رَءَوْا العَذَابَ وجَعَلْنَا الأغْلالَ في أعْنَاقِ الذِيْنَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾[1].

الإنسان ليس أفضل خلق الله:

قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِيْ البَرِّ والبَحْرِ وَرَزْقنَاهُمْ مِنَ الطَيِّبَاتِ وَفضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلا﴾[2].

فيستفاد من هذه الآية الكريمة أن الإنسان ليس هو أفضل مخلوق في خلق الله، ومن الأدلة على ذلك، قوله عز وجل مخاطباً إبليس لعنه الله عندما امتنع عن السجود لله سبحانه، باتجاه آدم، بعدما أمره الله بهذا الاتجاه:

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العالين﴾[3].

إذ إن (العالين) خَلْقٌ لم يدخل في الملائكة الذين أمرهم الله

---

(١) سورة سبأ، الآية ٣١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

(٣) سورة صٓ، الآية ٧٥.

بالسجود لآدم عليه السلام.

يبقى أن الخَلْقَ الكثير الذي فضل الله بني آدم عليه، هو المدرج في الآية الكريمة:

﴿وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِيْ السَمٰوَاتِ وَمَا فِيْ الأَرْضِ جَمِيْعاً مِنْه﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَمٰوَاتِ وَمَا فِيْ الأَرْضِ﴾[2].

مع الالتفات إلى لفظة (ما) في الآيتين، حيث تستعمل في اللغة عامة لأصناف الحيوان وللأشياء.

أدمغتهم كبيرة ولكنهم مجرمون:

أما ذووا الأدمغة الكبيرة، الذين ضلوا وأضلوا، فمن شأنهم على اختلاف درجاتهم وحقول نشاطهم، أن يبرزوا وينشهروا، ويتصدروا المواقع في المجتمعات والأمم، ويكون لهم من ذوي الأدمغة الأدنى وزناً، أو من ذوي النفوس الضعيفة، أتباع وأتباع، كان فرضاً عليهم وبالحد الأدنى من التفكير السليم، أن يتبعوا أولي الألباب من الأنبياء والأولياء والصديقين، وقد أوجب الله عليهم ذلك ويسّرهم لهم إلى قيام الساعة، أما وقد هانوا وانقادوا لذوي الأدمغة الكبيرة الشاردة والنفوس المجرمة بين الحاد وعلمنة ونرجسية، أو قوة مال وجاهلية في شتى نشاطات الحياة من سياسة وعلم ظني، وشعر وأدب وفن، وأخلاق، كل ذلك مما تمارسه أبالسة الأقلام وأبالسة الإعلام، فسيكون لهم مصير لا تنفع معه ندامة: والله عز وجل يصور مصيرهم بقوله:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وجوْهُهُمُ فِيْ النَارِ يَقُوْلُوْنَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وأَطَعْنَا الرَسُولا، ربَّنَا إنَّا أطَعْنَا سَادَاتِنَا وكُبَراءَنا فأَضَلّوْنَا السَبِيْلاَ﴾[3].

---

(١) سورة الجاثية، الآية ١٣.

(٢) سورة لقمان، الآية ٢٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٦٦ و٦٧.

وهكذا الإنسان. الإنسان الذي سخرت له مُقَدَّرَات السمٰوات والأرض، ودماغ الإنسان، هذه الميزة الكبرى والآية الكبرى. فمن حيث الخصوص كل دماغ يكون لصاحبه إما الخلاص وإما الكارثة ما دام لا يعقل به كما ينبغي له، ومن حيث العموم فإن الذين يقودون المجتمعات إما أن يكونوا سبباً في خلاص مجتمعاتهم وإما سبباً في كوارثها. ويهون الأمر إذا انتهت الكوارث في حدود الأرض، ولكن الأمر شديد الخطورة رهيب، ما دام متعلقاً بحياة بعد الموت، وبحياة طويلة.. طويلة.. خالدة...

وأنت إما أن تكون قائداً، وإما أن تكون تابعاً.. وبحث التبعية عندي أهم في بلادنا هذه التي يكثر فيها الأتباع والأزلام والطبالون والزمارون. وما أكفر القادرة ـ إلّا من رحم ربك ـ وما أسفه الأتباع الإمعات!... فالعجب العجب، من أناس يتبعون الكفرة والفجرة والظلمة من اللادينيين، ويتخلون عن عباد الرحمٰن أهل اليقين أولي الألباب. ويقذفون بأنفسهم مختارين، إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

الدماغ يزيد وينقص:

كما رأينا بخصوص المفاعل الذي هو المخ، فإن الفارق التقريبي بين وزن دماغ الإنسان ومتوسط دماغ القردة العليا هو ١٣٦٠ - ٣٦٠ = ١٠٠٠ غراما لمصلحة الإنسان، أي بنسبة واحد عند القردة العليا إلى أربعة أمثال عند الإنسان المتوسط.

بشر تحولوا إلى قرود:

العجيب في أنصار نظرية النشوء والتطور، أنهم انطلقوا من الإصرار على فكرة أن التحول يكون دائماً إلى الأرقى، والحقيقة أنه ليس دائماً كذلك إذ يقابله ـ وهو تحويل وليس تحولاً ـ أن يكون أيضاً من الأرقى إلى الأدنى. والكون كله يديره ربه رب العالمين، ويدبره بنواميس، أحدها هو هذا التحويل من الأدنى إلى الأرقى ومن الأرقى إلى الأدنى (يتضمنه ناموس

آخر هو نـاموس الجـزاء) أما الأمثلة عن التحـول من الأدنى إلى الأرقى فقد اهتم بها اهتماماً بالغاً أصحاب نظرية النشوء والتطور. فكفونا مؤونتها، على أنهم رأوا بالعين الواحدة، ولا نقول نصف الحقيقـة، لأن رؤيتهم بالأسـاس ظنيـة. وقـد تبين لـدى العلمـاء الـذين لهم نفس الاختصـاصـات، أن هـذا الـظن ـ دارون[1] ومـدرستـه ـ خـاطىء. والقــاعـدة في علم المنــطق: إن الانطلاق من نقطة خـطأ، وإن هي مرّت بحيثيـات صحيحة، إلا أنهـا تنتهي إلى الخطأ، إلى نتيجة خطأ.

أمـا التحويـل من الأرقى إلى الأدنى، فأمثلتـه كثيـرة، وهي أيضـاً من أفواه أهل الاختصاص وتحقيقاتهم، ويكفي هنا أن نورد بعضهـا ونوجـز، إذ الأمــر يقتضي إذا أسهبنـا، تخصيص بحث مستقــل ومستفيض، في هــذه النظرية المعاكسة التي نحن بصددها.

ففي المجال العلمي، إن علماء النبات لديهم الكثير من الوقـائع التي تثبت حـالة التـراجع في شتى أنـواع النباتـات، إذا تركت بـدون عنـايـة في الاستنبـات، وإضافـة إلى ذلك فـإن أجيال النبـات تختلف كلما بعـدت عن الجيـل الأول (السوي العمـلاق) حتى ليخرج منهـا المتناقضـات بين عمالقة النبات وأقزامه، من الفصيلة الواحدة، وكذلك عند علمـاء التناسـل، وعلماء الـوراثة، فعنـدهم تقـاريـر ودراسـات مفصلة في مجـالي التـراجـع والتقـدم النـوعيين. ثم أخيـراً وليس آخـراً، في مجـال الفلك والأجـرام السمـاويـة، والحديث الحامي عن القـانون الثـاني للحرارة الـديناميكيـة Second law of thermo dinamics، وموجزه أن الحرارة تنتقل من وجود حراري، إلى عـدم

---

(١) دارون (Darwin) (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) عـالم طبيعي إنكليـزي أسس نـظريـة التـطور التاريخي للعالم العضوي. له كتاب «أصل الأنواع..» فصَّلَ فيه القضايا الأساسيـة لنـظرية التـطور. له كتـاب «سلالـة الإنسان والانتخـاب بالنسبـة للجنس» (١٨٧١) عرض فيه انحدار الإنسان من الأسلاف الحيوانية (الموسوعة الفلسفية ص١٧٥).

حراري. وهذا معناه أن توهج النجوم يتراجع حتى الانطفاء، وحتى تتساوى حرارة جميع الموجودات، وبذلك تنعدم كفاءة عمل الكون، وتنعدم معها كل مظاهر الحياة. فهل هذا التراجع المتدرج من حيث الكفاءة ثم الانطفاء العام ـ طبعاً البحث في العالم المرئي في حال إيصال هذا القانون إلى غايته القصوى ـ هل هذا يعني سوى التحويل من الأرقى إلى الأدنى.

وواجبة هنا، وقفة تصحيحية، فبعض العلماء، ومعهم كثيرون، يربطون قيام الساعة بهذه القاعدة العلمية، وهم يقدرون لهذا الأمر الذي فيه الانطفاء والدمار الكوني ـ حسب تعبيرهم ـ ملايين السنين. وهذا ما يرده القرآن المجيد، رداً دامغاً ـ وهو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ متبوعاً بفضل الله، بتأييدات الكشوف الحديثة في كتاب الكون، والبراهين العقلية. وخلاصة القول فيه أن علم الساعة غيب له مقدمات يظهرها الله سبحانه لخاصة أوليائه، ليظهروها بدورهم للناس في وقتها، وقد سماها أشراطاً، وهي إذا بدأت بالتحقق، وجب على الناس الاستنفار توقعاً لتكاملها ومباغتة الساعة تبعاً لهذه الأشراط. وواقع الحال أن النذر الأولى قد ظهرت بقوة ووضوح في هذا العقد الأخير من هذا القرن العشرين، وهي راهنة جلية لكل من ألقى السمع وهو شهيد:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بالسَاعَةِ وأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيْراً﴾[١].

وسنفرد لها فصلاً خاصاً في هذا الكتاب، إن شاء الله الحليم الكريم.

ثم عوداً على بدء فإن العقل الإسلامي يتلو في القرآن الكريم قوله تعالى:

---

(١) سورة الفرقان، الآية ١١.

﴿ونَــزَّلْنَــا عَلَيْــكَ الكِتَـٰبَ تِبْيَــانَــاً لِكُــلِّ شَيْءٍ وَهُــدَىً وَرَحْـمَــةً لِلْمُسْلِمِيْنَ﴾(١).

هـذا العقـل يمـر على المجلدات التي صنفت في نـظريـة (النشـوء والتطور التي تقول إن الإنسـان كان قـرداً) وأحدثت ثـورة تشكيكية في أكثـر من نصف العالم ولأكثر من مائة سنة وما زالت.. هذا العقل يمـر بها مـوقناً بما آتاه الله سبحانه مطمئناً، غير عابىء بلغوهم وتزويـرهم للحقيقة، ويـرتل قول الله تعالى:

﴿وإذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرّوا كِرَاماً﴾(٢).

ثم يتلو قول الله عز شأنه مخاطباً بني إسرائيل:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الذِيْنَ اعْتَـدَوْا مِنْكُمْ في السَبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُـوْنُوا قِـرَدَةً خَاسِئِيْنَ فَجَعَلْناهَا نِكَالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَمَا خَلْفَها ومَوْعِظَةً للْمُتَّقِيْنَ﴾(٣).

وأيضاً:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَـرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوْبَةً عِنْـدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وجَعَلَ مِنْهُم القِرَدَةَ والخَنَازِيْرَ وَعبَدَ الطَاغُوْتَ أولَئِكَ شَرٌّ مَكَـاناً وأَضَـلُّ عَنْ سَوَاءِ السَبِيْلِ﴾(٤).

وكذلك:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوْا عَنْه قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾(٥).

---

(١) سورة النحل، الآية ٨٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٧٢.
(٣) سورة البقرة، الآيتان ٦٥ و٦٦.
(٤) سورة المائدة، الآية ٦٠.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

من هنا من مضمون هذه الآيات الثلاث، نجد أن الإنسان الواردة صفاته في هذه الآيات يحول من الأرقى إلى الأدنى، من واقعه الإنساني إلى واقع آخر بهيمي، يعني أن هذا الإنسان يخرج من النوع ويدخل في الدرجة.

فمن المعاني الجليلة المتقدمة في الآيات الكريمة، نستنتج حقيقة أن يخرج الإنسان من أصل النوع خروجاً اختيارياً، يترتب عليه التحويل ونوع الجزاء:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها ونَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إنَّا جَعَلْنَا عَلى قُلُوْبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِيْ آذَانِهِمْ وَقْراً وإنْ تَدْعُهُم إلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أَبداً﴾[1].

فمن قوله تعالى (ذكر... فأعرض...) نفهم أن خروج الإنسان الذي أعرض عن آيات الله، يعني رفض أن يُعقل، وهو خروج اختياري عن أصل نوعه العاقل، وإنما يترتب عليه أن يجعل الله تعالى، على قلب الخارج المعرض، كِناً وفي أذنيه وقراً. وبقية الآية الكريمة: **﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً﴾** فيها الخطر الأكبر: يبدأ بالإعراض عن آيات الله تبارك وتعالى، ثم يتدرج سفراً في البهيمية إلى غير رجعة، والعقل في هكذا حال يأخذ بالتراجع حاملاً معه النورانية، حيث تظلم النفس في المقابل تدريجياً، إلى أن تنقطع عن المدد الإلّهي وتصبح مقفلة مثقلة بأرجاسها.

والواقع الملموس انطلاقاً من فكر التوحيد، أن الناس فريقان: فريقُ كُفْرٍ على درجات، وفريقُ إيمانٍ على درجات.

والكلام عن العقل، فيما كتبه أهل الفكر، كثير، ولأنه ظني وافتراضي فمعظمه مردود، وعن فرضية أن الدماغ هو العقل، أو أن الدماغ

(١) سورة الكهف، الآية ٥٧.

وحده هو مركز العقل، مردود كذلك، وسنفند ذلك بالحجة والبرهان في موضعه المناسب من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

أما الدماغ وكلية الجهاز العصبي في مجال التشريح ، فقد بذلوا فيه جهوداً رائعة، وكشفوا عن آيات مجيدة، وحيث تشعبت فيه حقول الاختصاص، ففي كل حقل نشطت مختبرات علمية، وكتب مختلفة الأحجام تتلقف منها الموسوعات العلمية أهم ما فيها، وسنذكر أيضاً في الموضع المناسب إن شاء الله أحدث وأهم اكتشاف في مجال الغيبيات، على يد جراح شهير مختص بجراحة الدماغ والكتلة العصبية.

أما ما يجب أن يقال، هو أن كل فقرة علمية في هذه البحوث هي مدهشة مذهلة، ليس عجيباً إذا أدركها الصخر الأصم، أن يخر ساجداً لعظمة الله، خاشعاً خاضعاً هاتفاً من أعماقه: أشهد أن لا إلّه إلّا الله، والله أكبر، وتبارك الله الخلاق العظيم، والحمد لله حمداً لا ينقطع، حمداً خالداً بخلوده، وأن يتلو قول الله جلت قدرته:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُوْنِيْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنِ مِنْ دُوْنِهِ﴾[١].

هذا مع كل خبر يكشف رائعة من روائع الخلق، بخصوص الدماغ والجهاز العصبي أو في مجال الإنسان كله ظاهراً وباطناً، ونفساً وبدناً فضلاً عن مجالات الأرض الدوارة، والكواكب المسافرة أبداً في مداراتها كالمغازل الهائلة وعليها حضارات جميلة كريمة، وعليها شقاء وبقاء في الشقاء.

وإذا كانت هذه الدهشة، مع كل خبر يكشف عن سر أو لغز أو رقم يدخل بحسبان و﴿الشَمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[٢]. فكيف يكون الحال أمام كلية أسرار الدماغ والقلب، وهذا أمير البدن، وأكرم وأنبل عضو فيه، وذاك

(١) سورة لقمان، الآية ١١.

(٢) سورة الرحمٰن، الآية ٥.

عرشه وعاصمته وروافد مؤسساته. كيف يكون الحال مع كشف الإنسان المتكامل، روحاً وأنفساً في ذات واحدة، وبَدَناً هو بيت النفس يظلم إذا أظلمت ويشرق إذا أشرقت، ولا استقلال أبداً عن عناية الله وحكمته. هذا الإنسان الذي حمله ربه الأمانة جملة وتفصيلاً، وجعله كنز معارف وعلوم، وحثه على سبر أعماق هذا الكون وأبعاده والإلمام بحقائقه وروائعه، التي هي آثار عظمته سبحانه، فاطر السمٰوات والأرض وما فيهن وما بينهن رب العرش العظيم:

﴿قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيْها إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ، سَيَقُولُوْنَ للّٰهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ ربّ السَمٰواتِ السَبْعِ وربُّ العَرْشِ العَظِيْمِ سَيَقُولُوْنَ للّٰهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلكُوْت كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ يُجِيْرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إنْ كُنْتُم تَعْلَمُوْنَ، سَيَقُوْلُوْنَ للّٰهِ قُلْ فأنَّى تُسْحَرُوْنَ﴾(*) صدق الله العظيم.

العبرة في كيفية استعمال الدماغ:

في الدماغ بصائر، هكذا أثبت التشريح المتقدم الرائع ـ دائماً بفضل الله وبإذن الله ـ ففي كل خلية ذاكرة ذات فاعلية وإضاءة ونشاط عجيب. وهذه الذاكرات تعمل منفردة ومجتمعة بتنسيق إلٰهي، لم يستطع العلماء ومعهم الأجهزة الإلكترونية، أن يكتشفوا إلا جزءاً يسيراً من أسرارها، ويقولون ما زال الدرب أمامنا طويلاً طويلاً.

وهذه الخلايا ـ البصائر، إذا تركت على فطرتها متفتحة على بارئها سبحانه، تتغذى بنعمته وتعاليمه طائعة وفيّة شاكرة، رفع الله صاحبها درجة درجة حتى يؤتيه اليقين، فيبلغ به ذروة الإنسانية، حكمة وعلماً حقيقياً نافعاً، وحضارة مؤيدة برضى الله مباركة، أما بخصوص تساميه، مرحلة مرحلة فلأن الإسلام درجات حدّها اليقين، واليقين درجات، حدها أن يغدو الإنسان مصداقاً لقوله تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات ٨٤ ـ ٨٩.

﴿الـذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ رِسَـالاَتِ اللّهِ ويَخْشَوْنَـهُ وَلاَ يَخْشَـوْنَ أحَـدَاً إلاَّ اللّهَ وكَفَى باللّهِ حَسِيْباً﴾(١).

أما تعاليمه في هذا المجال فهي كثيرة. منها قوله تعالى:

﴿إنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فاَعْبُدْنِي وأَقِمْ الصلاة لذكري﴾(٢).

وقوله سبحانه:

﴿فَسَبِـحْ بِحَمْدِ رَبِّـكَ وَكُنْ مِنَ السَاجِـدِيْنَ واعْبُـدْ رَبَّـكَ حَتى يَـأْتِيْـكَ اليَقِينْ﴾ (٣).

وقوله عز وجل، إشارة إلى ابتلاء الإنسان وامتحانه مرة بعد مرة لـرفعه درجة درجة:

﴿وإِذْ ٱبْتَلَىٰ إِبْـرَاهِيْمَ رَبُّـهُ بِكَلِمَـاتٍ فـأَتَمَّهُنَّ، قَـالَ إني جَـاعِلُكَ للنَّـاسِ إمَاماً﴾(٤).

أما إذا لوّثت هذه الخلايا بوحول المادية، وبنزّعات النفس الأمارة، وبهلوسات الفكر المنفلت من ضـوابط الجد والاعتـدال، ووقع الإنسـان في الإفراط أو التفريط في مجال نيته واعتقاده وسلوكه، أخذت هذه البصـائر في خلايا الدماغ، تخبو شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى درجة الانطفاء.

وهكذا تعمى بصيرة الخلية، بينما تبقى عاديةً نشاطاتهـا الفيزيـولوجيـة بتعقيداتها العجيبة، كما يبقى عادياً غذاؤها الذي هو أرقى نـوع في السكَّر، وهو المادة المعروفة بالكليكوز، حيث لا تتقبل غيرها، باعتبارها أكرم خلايـا البدن، وتتحمل مسؤولية إدارته، كما أراد لها ذلك مسبب الأسباب.

وبنقص المسـاحـة النـظيفـة، المستنيـرة في الخـلايـا، يلحق النقص

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٩.
(٢) سورة طه، الآية ١٤.
(٣) سورة الحجر، الآية ٩٩.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

بعمليات الضبط والربط، ومن ثم القدرة على الذكر الحق والتذكر، والتفكر في خلق السموات والأرض، ويصبح التفكير في درجات من الفوضى، التي تُجْهِدْ صاحبها في محاولة تنظيمها، ولا يلاحظها في أصحابها إلا المستنيرون. وقد يصل الأمر معها إلى أن تصبح فوضى كاملة، فتؤدي بالدماغ اما إلى الانفجار، وإما إلى الإصابة ببعض أنواع السرطان حيث تتكاثر خلايا الدماغ بشكل فوضوي، ثم تقع الكارثة.

ثم يأتي في الموضع المناسب من هذا الكتاب إن شاء الله، بحث تأثر هذه الخلايا إما بالعقل فتكون النجاة، وإما بالنفس الأمّارة فتكون الهلكة. وبذلك يتضح الأمر وينجلي أكثر فأكثر.

بين العقل والنفس والدماغ

إن لفظة (العقل) هي لفظة عربية مشتقة من المجرد الثلاثي (عقل) على دعوى أن الفعل المجرد هو أصل الاشتقاق، أو هي مصدر مشتقاتها حسب من يقول أن المصدر هو الأصل في الاشتقاق، ولذلك سمي مصدراً. ومن معانيها في اللغة: فهم وفقه، وربط وقيّد، وهي معان متقاربة.

أما في القرآن الكريم الذي هو المعيار الأعلى في دراسة المعاني وقوالبها، فإن هذه اللفظة (العقل) لم ترد فيه إطلاقاً بصيغة المصدر أو الإسم، وإنما وردت فقط بصيغة الأفعال المضارعة (تعقلون) ٢٤ مرة و(يعقلون) ٢٢ مرة، و(نعقل) مرة واحدة في قوله تعالى:

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ أَصْحَـٰبَ السَعِيْرِ﴾[١].

ومرة واحدة (يعقلها) في قوله تعالى:

﴿وتِلْكَ الأمثَالَ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُهَا إلاَّ العَلِمُون﴾[٢].

---

(١) سورة الملك، الآية ١٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.

ومرة واحدة بصيغة الفعل الماضي (عقلوه) في قوله تعالى:

﴿يَسمعُوْنَ كَلَامَ اللّٰهِ ثُمَّ يُحرِّفُوْنَه بَعْدَمَا عَقَلُوْه﴾[1].

ومن مرادفاتها، فَكَّر، وَفَهِمَ، وَدَرى، وجميعها كذلك لم ترد إلا بصيغة الفعل.

فمن هذه الصيغ الفعلية: عقل وفهم وفكر ودرى، التي جاءت في القرآن الكريم مختصة بالإنسان، فهمنا أن الله تبارك وتعالى هكذا شاءه يعقل ويفكر ويفهم ويدري، وذلك بعد أن نفخ فيه من روحه سبحانه، مستنتجين بالضرورة، وربطا بالنصوص، أن الإنسان قبل أن ينفخ الله فيه من روحه، لم يكن يعقل ولا يفهم ولا يفكر ولا يعلم ولا يدري.

فإذن إن ما نسميه نحن (العقل) إنما هو بالضرورة الروح التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله:

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَهَادَةِ العَزِيْزُ الرَحِيْمُ، الذِيْ أَحْسَنُ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِيْنٍ، ثم جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ، ثُمَّ سَوّاهُ ونَفَخَ فِيْهِ مِنْ رُوْحِهِ وجَعَلَ لَكُمْ الأبصَرَ والأفئِدَةَ قَلِيْلاً ما تَشْكُرُوْنَ﴾[2].

وقوله تبارك وتعالى:

﴿وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَلِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُوْنٍ، فَإِذَا سَوَّيْتهُ ونَفَخْتُ فِيهُ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ﴾[3].

وخلاصة القول حول العقل والنفس والدماغ، إن الدماغ ليس هو العقل، وإنما هو من المراكز الأساسية للعقل، وهو مع القلب من (الألباب)

---

(١) سورة البقرة، الآية ٧٥.

(٢) سورة السجدة، الآيات ٦ ـ ٩.

(٣) سورة الحِجْر، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

المشار إليها في ١٦ ـ ست عشرة آية من القرآن الكريم، اخترنا ثلاثة للإيجاز: قوله تعالى:

* ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ ولِيَذَّكَّرَ أولُوا الألْبَابِ﴾[1].
* ﴿أُوْلَئِكَ الذِيْنَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأولئِكَ هُمْ أوْلُوا الألْبَابِ﴾[2].
* ﴿هُدَىً وذِكْرَىٰ لأُوْلِيْ الألْبَابِ﴾[3].

وبين الدماغ والقلب مشاركة فعلية في مجالات العقل والفكر والعواطف، تترتب عليها المشاركة الفيزيولوجية المعروفة في علم التشريح. على أن معظم النشاطات سنَنْسِبُها بعد قليل إلى الدماغ لأن الله عز وجل أراده هكذا: رأساً وقائداً للإنسان، ومعه القلب في جميع ميادين النشاط البشري.

أما دليلنا القرآني على أن القلب هو من مراكز العقل أو الأعضاء المتفاعلة مع العقل، وأن المعني به هذا الذي بين الضلوع، فقوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِيْ الأَرْضِ فَتَكُوْنَ لهم قُلُوْبٌ يَعْقِلُوْنَ بها أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإنَّها لا تَعَمَى الأَبْصَار وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوْبُ التي في الصُدُورِ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَد ذَرَأْنَا لَجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ لَهُمْ قُلُوْبٌ لَا يَفْقَهُون بِهَا﴾[5].

وآمل من القارىء أن يعتبر أن ما سينسب إلى الدماغ من علاقة بالعقل كذلك نسبتها إلى القلب، وأهمها تقريرنا أن الدماغ يعقل فينجو بصاحبه، أو لا يعقل فيهوي بصاحبه، وكذلك القلب وبقية الجوارح.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٩.
(٣) سورة المؤمن، الآية ٥٤.
(٤) سورة الحج، الآية ٤٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

العلاقات الوظيفية بين العقل والنفس والدماغ:

ولكن الدماغ هو (اللب) الأوسع نشاطاً، أو هو المفاعل الأعلى خطراً في عالم الجواهر المادية. فهو مركز التبليغ والترجمة والتفسير، إضافة إلى الإحساس والذاكرة، والعواطف والقدرة على الحركة، فإن ضاق عن العقل تحول إلى الآلية والغريزية بنسبة ما يضيق، وبقيت له هذه الأمور كما هي للدماغ الإلكتروني أو المخلوقات الغريزية الراقية.

أما العقل، فهو الروح المؤيد بعلم الفطرة، السابقة على البدن، ومن ميزاته إدراك الحقائق المجردة، البسيطة والمركبة، غير مستقل عن ربه تبارك وتعالى، خالد، يغضب ويتأذى، ولكنه لا يتعب ولا يتعذب، تأخذ منه خلايا الدماغ توجيهاً وتعليماً وهداية حسب استعدادها، يرجع إلى ربه، والنفس هي التي تسعد أو تشقى، ووظيفته دعوة النفس إلى خالقها الله الذي لا إلّه إلا هو، ومقاضاتها بتعاليمه سبحانه مبيناً لها الحق من الباطل، والمطلوب من السلوك في معراج العبادة، موصلاً إياها إلى أعلى درجات اليقين والعلم ـ في حدود العقل الإنساني ـ والسعادة الحقيقية في الدارين ـ قول أحد العارفين: لو عرف الملوك سعادتنا لقاتلونا عليها بالسيوف ـ كل ذلك برموز تفهمها جميع لغات البشر ولهجاتهم، هذه الرموز يقوم الدماغ بترجمتها بناء على ما عُلِّمَ ولقِّن، ليقدمها للنفس باللغة التي ترتاح إليها، وذلك أثناء التزام النفس بكلية البدن والجهاز العصبي. أما إذا تحررت النفس، فلا تعود بحاجة إلى الدماغ، ولكنها تحتفظ بأدائه، وتفهم لغة الرموز الكونية بدون ترجمة، فضلاً عن إمكانية تعبيرها بأية لغة شاءت لم تكن تعلمتها في حال الإرتهان.

وإن العلاقة بين العقل والدماغ، هي علاقة الطاقة الغيبية الموجّهة لبرمجة مفاعلها الأرقى في جواهر المادة. والنفس هي التي تسبب انفتاح الدماغ على العقل أو انغلاقه دونه، أو جعله في حالات بين الحالتين. يعني يكون هذا الواقع المتكيِف، رهن بمدى إقبال الإنسان على ربه، أو

تباعده عنه جلّت عظمته.

وفي حال تلبس النفس بكفر أو شرك أو استكبار، أو الوقوع في هوى أو إثم، ينشغل الدماغ والنفس بالحدث منصرفين عن العقل، فتفقد النفس بذلك الهداية والسداد والرشاد، وتحاول الاستئثار ضالة ظالمة بموقع القيادة، مأذوناً لها بذلك تبعاً لاختيارها وتنكرها لولاية الله ورعايته، فيتخلى عنها الله امتهاناً وإمهالاً وتحجيماً، وليس إهمالاً أو تفويضاً، وفيها قال سبحانه:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها﴾(١).

ومن حيث رعايته سبحانه، للأنفس البارة النقية المجاهدة، وخذلانه للأنفس الجاحدة المعاندة البهيمية في الحياة الدنيا وعند الموت، وحين الانتقال من محطة الأنفس، هذه الأرض الدنيا إلى الأرض العليا على اختلاف درجاتها، قوله تبارك وتعالى في الأبرار:

﴿الذِيْنَ تَتوَفَاهُمُ المَلاِئِكَةُ طَيِّبِيْنَ﴾(٢).

﴿يَا أَيَّتُها النَفْسُ المطمَئِنَّةَ ارْجِعِيْ إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِيْ عِبَادِيْ وادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٣).

وقوله سبحانه في أهل الضلالة:

﴿وَلَوْ تَرَى إذْ الظَالِمُوْنَ فِيْ غَمَرَاتِ المَوْتِ والمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيْهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ غَيرَ الحَقِّ وكنتُمْ عَنْ آيَتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ١١.
(٢) سورة النحل، الآية ٣٢.
(٣) سورة الفجر، الآية ٣٠.
(٤) سورة الأنعام، الآية ٩٣.

هنا يخطر سؤال مهم، هو كيف يكون مستوى الإنسان الفكري والإنساني عامة، إذا هو لم يقلع عن غيه ولم يعقل؟ والجواب، ولو أنه قد مر موزعاً خلال البحث، إلاّ أنه ينبغي إيجازه بالقول: يكون شأنه كشأن حيوان راق متحضر، متعلم، أمثال الأنواع العليا من القردة، إنما يميزه شكله الإنساني وذلاقة لسانه وقلمه، وكثرة الأرقام التي يتعامل معها، والمهارات التي يباشرها في شتى حقوله، وكذلك حجم دماغه المتناسب مع بدنه، وقد تتراوح هذه الحالة بين التضيّق في التعامل مع العقل، مع رحمة الله وسمائه وأسمائه، وبين تجافي الإنسان وتباعده عنها، ثم انقطاعه بشكل نهائي، حيث لا يفلح بعد ذلك كيد في إذهاب غيظ. قوله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِيْ الدُّنْيَا والآخرةِ فليمْدُدْ بِسَببٍ إلى السَماءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كيدُهُ ما يَغِيْظ﴾[1].

للعقل تفتح أبواب الملكوت

علماء تحرروا بالعقل، فسجدوا لعزة الله، فانفتحت لهم أبواب الملكوت:

في سلسلة عالم المعرفة، التي تصدر في الكويت. صدر مترجماً للعربية، كتاب «العلم في منظوره الجديد» تاريخ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ/ شباط ١٩٨٩م أوجزوا مباحثه بما يلي:

يدور البحث في الكتاب في شكل موازنة بين مقولات النظرة العلمية القديمة والنظرة العلمية الجديدة، وقد عرض المؤلفان ـ مؤلفا الكتاب: روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو ـ للنظرة التي نشأت في ظلها النظرة العلمية القديمة التي اصطبغت بصبغة مادية كرد فعل إزاء هيمنة الفلسفة المدرسية المسيحية على العقول، والتي وصلت إلى حالة من التحجر العقلي، والتخبط الفكري، وقد انتهت النظرة القديمة إلى الإلحاد

---

(١) سورة الحج، الآية ١٥.

والاستهتار بكل القيم الأخلاقية والروحية، وفسرت السلوك تفسيراً غريزياً فسيولوجياً.

إزاء هذه النظرة ظهرت، في مطلع القرن العشرين، نظرة علمية منافسة كان من ألمع روادها أينشتاين، وهايز نبرغ، وبور، وغيرهم، وقد أجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية والكوزمولوجيا في هذا القرن على أن المادة ليست أزلية، وأن الكون في تطوُّر وتمدد مستمرين. فدعوا إلى الإيمان بعقل أزلي الوجود، يدبر هذا الكون ويرعى شؤونه.

ثم جاء جيل من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب، من أمثال شرنغتون، وأكلس، وسبري، فخلصوا ـ بعد بحوث مضنية ـ إلى أن الإنسان مكون من عنصرين جوهريين: جسد فانٍ وروح باقية لا ينالها الفناء، وأن الإدراك والتفكير ليسا من صنع المادة، بل يؤثران تأثيراً مباشرًا في العمليات الفسيولوجية ذاتها.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، ظهرت حركة جديدة في علم النفس، اعترف روادها بالعقل، ورفضوا تفسير السلوك البشري بلغة الدوافع والغرائز الحيوانية، وآمنوا بدلاً من ذلك بالقيم الأخلاقية والجمالية، والجوانب الروحية والفكرية والفلسفة.

صحيح أن هذا مهم ومهم جداً بالنسبة لهؤلاء العلماء وبالنسبة إلى أقوامهم. أقصد التوصل إلى أن الإنسان مكون من جسد فانٍ وروح باقية ـ حسب تعبيرهم ـ لا يدركها الفناء، وصحيح أن هذا يؤنسنا ويريحنا في مجال دعوتنا إياهم إلى الله وإلى التصديق بوحدانيته، وبأنه الخالق، وبأنه المدير والمدبّر لهذا الكون، آمنوا بذلك كله حين اكتشفوا جزئيات من عالم الجواهر الغيبية، وبشكل ما زال نسبياً متردداً وخجولاً، ولكن بعد أن باد من أقوامهم من باد جاحداً، وهلك ملحداً، وهم على بيّنة من أننا على حق، وعلى بيّنة من علمائهم هؤلاء المهديين من أن النظريات والفلسفات المادية على باطل، وليس غربهم فقط عانى من هذا الخسران المبين وإنما قطاعات

كبيرة من شرقنا مبهورة بالفقاقيع وبريق المادة، هي أيضاً ـ نتيجة لانبهارها ـ وقعت في الخسران المبين:

﴿وَلكِنْ لِيَقْضِي اللَّهُ أمراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيَ من حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1].

فبينما علماء الغرب، في شغل شاغل بحثاً عن النفس، بحثاً عن العقل، بحثاً عن الروح، علّهم يتوصلون عبر ذلك كله لوجود الخالق، باذلين أعمارهم في هذه التحقيقات ومختبراتهم، ترانا ولله الحمد ـ عنيت علماء المسلمين ـ في عافية من الشك والتردد، والإلحاد والشرك، شغلنا الشاغل العلم العملي الذي يقيم جسراً بين الأرض والسماء، سبباً بين الدنيا والآخرة.

علّمنا الله تبارك وتعالى، عبر قرآنه المجيد، وآثار أنبيائه وأوليائه. وبقبولنا ما علمنا إياه وتمسكنا به عن يقين هو يقين الصديقين، وفرّ علينا الله اللغو والخوض والتجريب، فكلما ضج علماء الغرب في مجال النفس أو التربية أو الفلسفة أو التشريح أو الفلك أو الذرة أو الروح باكتشاف أو أكثر، ترانا نبتسم هادئين ابتسامة المطمئن إلى ما علّمه علام الغيوب مقررين أن أمامهم الكثير ليتوصلوا إلى ما آتانا الله من فضله وأن أمامنا الكثير، في جميع درجاتنا، ليتدرج كل من موقعه العلمي والعرفاني في معراج الإيمان وفهم التوحيد، وصولاً إلى الإنسان الكامل الذي أراده الله، وأحب الله وأحبه الله سبحانه له الحمد.

ولفهم العلم الذي أعنيه، والذي هو شغلنا الشاعل، والذي هو العلم الأشرف بين سائر العلوم ـ على شرف الكثير منها ـ أعطى نبذة عن هذا العلم الذي هو علم التوحيد وفكرة عن أهله الذين هم أهل العرفان وأولياء الله الصالحين.

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٢.

كلمة في العقل في القلب

إن لفكر التوحيد عند أهل العرفان شرائط وضوابط، يرفع الله تعالى بها وبنسبها، كلاًّ حسب جهاده، وأهليته، ويجعل له نوراً يمشي به في الناس، ويؤتيه أسراراً من الذكر، تقيه شر ما يُرَى وما لا يُرى، وتكون له عوناً على دنياه وكنوزاً من الباقيات الصالحات في دار الخلود.

وليقر في الأذهان أن التوحيد مسؤولية عظيمة، وأنه أسمى معرفة يتشرف بها العقل البشري، لذلك نلمح وبإيجاز إلى بعض الرموز الخاصة بركني الطهارة والصلاة.

ففي ركن الطهارة نرى معراجاً يبدأ بسر التخلية، وسرُّ سرّها التجريدُ، وسِرُّها المستسر التنزيهُ، والسِرُّ المُقَنَّع بالسرِّ التنزيهُ من التنزيه والتقييدُ.

أما الركن الثاني وهو الأعظمُ، فهو محصور بالصلاة، وسرُّه التجليةُ، وسرُّ سره التفريدُ، وسره المستسر التوحيد، وسره المقَّنَّعُ بالسر التنزيهُ عن التوحيد والتقييد.

وهنا نفهم بعضاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ـ الصلاة معراج المؤمن ـ ولكل ذلك شروح تُطْلبُ من مظانها، وخاصة من أهل العرفان، زاد الله بهم الأمة نفعاً وعرفاناً. مع أهمية الإشارة إلى أنه يبقى عندهم من الأسرار ما لا يذاع. ومن هنا، المعروف عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه كان يقول(*):

إني لأكتمُ من علمي جواهرَه ... كي لا يَرى الحقَّ ذو جهل فيفتتنا

(*) عن كتاب الحقايق في محاسن الأخلاق للفيض الكاشاني قدس سره أورد الأبيات كما ذكرناها، ولكن في كتاب التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك أوردها مسقطاً البيت الثاني هكذا:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقـد تقـدم في هـذا أبـو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنـا
يـا رُبَّ جـوهـرِ علمٍ لـو أبوحُ بـه ... لقيـل لي أنت ممن يعبدُ الـوثنا
ولاستحـل رجـال مسلمـون دمي ... يـرون أقبح مـا يأتـونه حسنـا

وفي كتاب الحقايق للفيض الكاشاني(**) أورد ما يلي:

ـ وعن السجاد عليه السلام أنه قال: والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما، فما ظنكم بسائر الخلق. إن علم العلماء صعب مستصعب، لا يحتمله (يتحمله خ) إلاّ ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان. قال وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرؤ منا أهل البيت، فلذلك نسبته إلى العلماء.

ـ أراد عليه السلام (***)، أهل التوحيد والعلم، والمعرفة والحكمة لا أهل بيت النسوان والصبيان، والأهل والأولاد، وفي الحديث النبوي أيضاً: «لو علم أبو ذر ما في بطن سلمان من الحكمة لكفره وفي رواية لقتله ـ.

وفي أكثر من مصدر، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، سأله كميل بن زياد عن الحقيقة، فقال عليّ عليه السلام،: مالك والحقيقة؟ قال: أولست صاحب سرك؟ قال: بلى، ولكن يرشح عليك ما يطفح مني، ثم أجابه عمّا سأل.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام:

ـ الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح... إلى أن قال: هاه! إن ههنا لعلماً جمّاً ـ وأشار إلى صدره ـ لو أصبت له حملة.. بلى، أصيب:

(**) ص ١٢/ دار الكتاب العربي.

(***) هذا التعليق للفيض الكاشاني في نفس السياق.

* لَقِناً غيرَ مأمون عليه. .
* أو منقاداً لحَمَلَةِ الحق ليس له بصيرة في أحنائه(*)، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهه. لا ذا، ولا ذاك.
* أو منهوماً باللذة، سلس القياد للشهوة. .
* أو مُغْرَى بالجمع والادخار. .

أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه ـ

الادراك نسبي في مراتب الخلق.. والعقل هو الأقدس

لا شك أن العقل هو الميزة الكبرى، التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات إلّا أن هذا لا يعني عدم الوعي أو الإدراك النسبي لدى المخلوقات غير العاقلة من الجمادات، إلى النبات إلى الحيوان، إلى الإنسان الذي سخر له الله ما في السموات والأرض جميعاً منه سبحانه.

والحقيقة أنه ثبت بوضوح، أن لا شيء في الكون المعروف، له صفة الجمود الحقيقي، من الذرة إلى المجرة، بل الأشياء كلها في حركة دائمة دائبة. حتى تماسك الحديد الظاهري، ليس هو كما نحسه ونفهمه، بل هو ربما بالنسبة لمخلوق أرقى من الإنسان وأكثر إحاطة وأبصر، سيبدو مختلف المظهر والملمس، وقد تظهر ذرات الحديد لهذا المخلوق الأعلى من الإنسان كما تظهر لنا نحن، عبر التلسكوب المجموعة الكوكبية في أبعادها عن بعضها في حركتها المتصلة.

(*) هكذا في النسخ وفي نهج البلاغة: أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه إلخ. . والظاهر أن المراد منهم هو المقلِّد إذ لا بصيرة له في دقايق الحق وخفاياه، لعدم علمه بالبرهان والحجة فينقدح الشك. (هذا التعليق في هذه الحاشية للفيض الكاشاني) قدس سره.

المناظير المكبرة والمقربة العجيبة التي علّمها الله للعلماء، تحكي حكايا من هذا القبيل. ومن هنا أيضاً، إن لهذه الأشياء نِسَبٌ من الوعي، درّجها فيها خالق كل شيء، المحيط بكل شيء، الله العلي القدير.

ومن الأهمية بمكان، معرفة أن الإنسان مجرداً من العقل، هو أرقى وعياً وإدراكاً وغرائز، من جميع الكائنات المحسوسة. أمّا بالعقل، فهو أقدس من ذلك، إذ إن بالعقل صلته مع خالق الأكوان الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. فأرضنا هذه التي نحن عليها، والصخور التي فيها، والجمادات (ظاهرياً) لها نسبة من الوعي - إلّا أن النبات أظهر حياة وإحساساً، كما أن الحيوان درجته وميزاته على النبات واضحة. وهكذا ترجحُ المعطيات التي عند الإنسان على الجميع، وعياً وإدراكاً وغرائز، وإرادة ومنهجية. وكل ذلك بدون العقل فالعقل شيء أقدس من كل ذلك.

وهكذا، فلم يعد عبثاً، أو مجازاً، فهمنا لقول الله عز وجل، للسماوات والأرض:

﴿إِئْتِيَا طَوْعَاً أو كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِيْنَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَـهُ السَمٰواتُ السَبْـعُ والأرْضُ ومَنْ فِيْهِنَّ وإنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لاَ تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ، إنَّهُ كَانَ حَلِيْماً غَفُوْراً﴾[2].

ثم قوله عز وجل:

﴿ومَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرْضِ وَلاَ في السَمَاءِ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ ولا أكْبَرُ إلاَّ في كِتَابٍ مُبِيْنٍ﴾[3].

---

(١) سورة فصلت، الآية ١١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس، الآية ٦١.

فإذن نستنتج من الآية الأولى أن الأشياء واعية والحقيقة أنه لا معنى لتسبيح الأشياء وهي لا تعي ما تفعل.

حتى الحياة، هي مفهوم نسبي أيضاً، فكما نفهم الحياة للإنسان وللحيوان والنبات بدلالة الحركة وردود الفعل، فكذلك هي للجمادات (الظاهرية) وحتى لأرضنا هذه وللشمس والقمر وبقية الأجرام السماوية، وذلك أيضاً في صريح قول الله عز وجل في الآية الثانية.

فكل هذه المجسمات، من الإنسان إلى المجرات إلى بقية الكائنات الأرضية والسماوية، مبنية على الذرة، أو النظام الذري، وأصبح معلوماً وببساطة أن في الذرة حركةً لأجزائها لا تهدأ. و(الكتاب المبين) المذيلة به الآية الكريمة، هو الحقائق الباطنية للأشياء، فضلاً عن حقائقها الظاهرية، ومن قبيل ذلك، التركيب الذري للكون وأجزائه، بما في ذلك أسرار الذرة وأسرار أجزائها.

وهكذا فإن جميع ما في هذا الكون متناغماً، متناسقاً، يسبح بحمد ربه، واعياً مدركاً حقيقةً لا مجازاً. إلّا البشر فإنهم انقسموا فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير.

إن درجات الوعي في الكائنات، هي حقائق مرهونة بالألوان والأشكال. والجواهر هي معاني الحقائق، وتفاعلها ونتائجها وتوجهاتها ضمن النواميس الإلّهية. ندرك أن فيها من وجوه الحكمة، وإظهار سلطان العقل، وقوة النفس إذا انقادت إليه وانعتقت به، فتحررت من حبس ما تحت السماوات السبع إلى سدرة المنتهى، مرتمسة بنوره، منغمرة برحمته، على أنفاس مشتاق إلى الله الحبيب الأبدي، في صعوده يخترق السماوات بصوته يقول: لا إلّه إلّا الله.

بلى، هكذا فإن من خصائص العقل، أن تنفتح له السماوات بإذن الله الحبيب الأبدي. وهذا لا يقال عن النبات أو الحيوان أو الإنسان اللارباني، فالنبات ليس له قدرة على فهم الحيوان، أو الإفادة منه،

والحيوان يفهم النبات ومنافع النبات فيقبل عليه وكذلك يتفاعل مع أبناء جنسه، ولكن دائماً موجهاً بدافع الغرائز، توجهاً لا يخالفه مختاراً أبداً، وذلك لأنه ليس لديه الملكة التي تحدد له المسار والهدف، يعني ليس عنده خيارات، لأن ذلك يحتاج إلى نفس فيها قابلية أن تستلهم وتختار، كما هي الحال عند إنسان النوع قبل أن يصبح ربانياً، فإذا أصبح ربانياً، تصنف درجة عليا دونها درجة إنسان النوع وما دونه نزولاً في سلّم الخلق.

من مهمات العقل وحده إذن، المنهجية التي تؤدي إلى الكمال، الكمال الذي يتناسب مع العقل، هذا الذي يسود ما دونه، ويقود إلى الأبقى والأجمل.

﴿ورِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أكبرُ﴾(١) لو كانوا يعلمون.

* * *

في عام ١٩٧٥ صدر كتاب «لغز العقل». لأحد كبار الاختصاصيين في الدماغ الدكتور Penfield ذكر فيه ما مؤداه أن العقل قوة غير مادية، وجودها خارج الدماغ والبدن، وأن الدماغ وظيفته تتعلق بآلية البدن، بما فيها من الحس والحركة والمشاعر وغير ذلك. فهو إذن، بزعمه، اكتشف العقل، ونحن إذ نقدر لبنفيلد جهاده في رحلة الاستكشاف، هذه الفائقة الروعة، نشير إلى أمر بغاية الأهمية، هو أن بنفيلد لم يكتشف العقل كما توهم، وإنما هو اكتشف الطريق إلى العقل، هو اكتشف النفس، شأن كريستوف كولومبوس، الذي في رحلته المجيدة أيضاً، ظن أنه توصل إلى جزر الهند الشرقية، بينما كانت الحقيقة، أن ما توصل إليه هو قارة أميركا، وفوق ذلك ترك للعالم، أعظم شاهد عملي على كروية الأرض.

ويبدو أن أبرز الأسباب التي ساقت بنفيلد إلى البحث عن العقل وليس عن النفس أو عن كليهما، ثلاثة: **أولاً**، اختصاصه وتعامله مع الدماغ

---

(١) سورة التوبة، الآية ٧٢.

الذي كان يعني له العقل، كما صرح هو شخصياً. **وثانياً**، عدم إدراكه العلاقة الغيبية، بين ماهية مفترضة للعقل، وبين ماهية النفس، **وثالثاً**، أنه ليست لديه فكرة مسبقة عن عدد الأنفس في الذات الواحدة ولا عن خصائص هذه الأنفس، ودرجة كل منها في مراتب خلق الله عز شأنه، كما عرفناها من المشاهدة، وتبعاً لذلك فهمناها من كتاب الله المجيد والأحاديث القدسية.

ذات الإنسان ثلاثية الماهية:

من هنا، فإنه قد ثبت لنا بفضل من الله تبارك وتعالى أن لذات الإنسان ثلاث أنفس، بينما هي أربع للرسل والأنبياء والأولياء.

أما الثلاث فهي: النامية المادية، والحسية البهيمية، والملهمة فجورها وتقواها.

وأما الرابعة التي هي للرسل والأنبياء والأولياء إضافة لهذه الثلاث فهي النورانية الملهمة.

١ ـ فالنباتية المادية. هي البدن بحركاته العضوية، الداخلية والخارجية. ولها خاصية التنامي فالتناهي إلى الضعف، وماهيتها هي المقصودة بقوله تبارك وتعالى:

﴿هُوَ الذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخرِجْكُمْ طَفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشدَّكم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوْخاً ومِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أجَلاً مُسَمَّىً ولَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾[1].

٢ ـ والحسية البهيمية، هي الجهاز العصبي، من الدماغ إلى النخاع الشوكي إلى أدق تشعباته العصبية في جسم الإنسان. وقد قلنا عن الدماغ إنه المفاعل الأعلى خطراً في جواهر المادة، وأنه هو مركز

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٧.

التبليغ والترجمة، والتفسير، إضافة إلى الإحساس ـ سيما الحواس الخمس ـ والذاكرة والعواطف المتضادة.

٣ ـ والملهمة فجورها وتقواها، هي حقيقة الإنسان، وجوهره الباقي، ووجهه الذي لا يفنى، المقصود بقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[1].

وبقوله تعالى:

﴿فأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّيْنِ حَنِيْفاً﴾[2].

وهي التي ترى في المنام، مما يعطي فكرة عن ماهيتها، ودرجاتها وحالاتها في رحلة الإنسان وعمره على هذا الكوكب. وذلك بتوفيق من الله سبحانه ليرى الإنسان نفسه في أية درجة وأي حال من الأحوال هي عليه، ويشاهدها أولياء الله في يقظتهم على حقيقتها في معراج صلواتهم وعبادتهم.

كما يشاهدون الحقيقة المجردة للبدن بلبوس العبادة رمز الطهارة والعفة والحشمة وكما يشاهدون الحقيقة المجردة للجهاز العصبي بالصورة الآدمية، وإذا كان أحدهم من الرسل والأنبياء أو الأولياء، يشاهد فيها النفس الرابعة: نوراً غير الأنوار المعروفة في الأرض، يميل إلى الزرقة التي كفيروز شفيف مذاب لا يمس الأرض، بشكل إهليلجي وحجم قمر بدر أزرق مداف في غلالة سحابة، أكبر قليلاً من شال حرير. هي من سدرة المنتهى، بها بعث الله الأنبياء وعلّمهم الأشياء، واصطفى سبحانه من عباده من اصطفى، قبل ولادتهم في هذه الأرض، بين رسول ونبي وولي. أهبط نفوسهم من عليين، وإلى عليين يعيدهم بأرقام معدة سلفاً ودرجات إلى قيام الساعة. وهذا من معاني قوله سبحانه:

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٨.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٠.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾(١).

﴿وإذا النفوس زوجت﴾

ثم إن لكل إنسان بالضرورة نفس فلكية نورانية، ترمز إلى درجة الإنسان ومقامه، وهي قابلة وليست فاعلة، بحيث تنعكس عليها حالة الإنسان، فهي جرمه الفلكي الذي تبعاً لسلوك صاحبه، إما أن ينكدر وينحرف وفي النهاية يلزم أحدهما الآخر. وإما أن يوقن فيصفو ويغدو نميراً جوهره، ثم هو وصاحبه يتلازمان ويغدوان كنجم متلألىء نوره، يرسل ومعه سائق وشهيد، في مسار مستقيم، إلى سعادة أبدية، حيث رضى الله ورضوانه، بلى قوله تعالى:

﴿وإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

هكذا كلمح بالبصر، تصعد الأنفس الأرضية الكلية، منفصلة عن تلك النباتية المادية ـ حيث بَعْدُ، ستعود إلى مادتها الأصلية(٣) ـ وبثياب الشهرة والشكل الآدمي، لتزوّج أنفسها الفلكية. التي بها، إما أن تأتي يوماً عبوساً قمطريراً، وتهوي شقية في سخط الله وجحيمه. وإما بها تصعد وتسعد وتطير مخلّدة، في رحمة الله ونعيمه، ناجية من عبوس ذلك اليوم وعذاب الأبد:

﴿فَوَقَـٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ اليومِ ولَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وسُرُورا، وجَزٰهُمْ بِمَا

---

(١) سورة المطففين، الآيتان ١٩ و٢٠.
(٢) سورة التكوير، الآية ٧.
(٣) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُه﴾ (الأنبياء/١٠٤). ﴿هُوَ الذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ طِيْنٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ (الأنعام/٢): فيما يسمى بجنة آدم النوع وهو أجل مشروطٌ غير محدد. فَعَصَىٰ آدمُ ربَّه فأهبطه، وبقية الآية: «وأجل مسمى عنده» وهو الأجل المحدد المؤقت المتعلق بقيامة السمٰوات والأرض: ﴿مَا خَلَقْنَا السَمٰواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بالحَقِّ وأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ (الأحقاف/٣).

صَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيْرَا، مُتكِئِيْنَ فِيْها عَلَى الأرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيْها شَمْسَاً وَلاَ زَمْهَرِيْراً، ودَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وذُلِّلَتْ قُطُوْفُهَا تَذْلِيْلاً، ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأَكْوَابٍ كانتْ قَوارِيْرَاْ، قَوارِيْرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوْهَا تَقدِيْراً، وَيُسْقَوْنَ فِيْها كَأْسَاً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيْلاً، عَيْنَاً فِيْهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيْلاً، وَيَطُوْفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُوْنَ إذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوْراً. وإذَا رأَيْتَ ثَمَّ رأيت نَعِيْمَاً ومُلْكاً كَبِيْراً، عَالِيَهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ واستبرقٌ وحُلّوآ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوْراً، إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وكَانَ سَعيُكُمْ مَشْكُوْراً﴾[1].

(١) سورة الإنسان، الآيات ١١ ـ ٢٢.

(٧)
حقيقة الانسان هي نفسه
والبدن عنصر ثانوي

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾
(الرعد/٣٣)



حقيقة الانسان هي نفسه
والبدن عنصر ثانويّ

إنَّ اتحادَ الأنفس الثلاث مع البدن، مشكّلةً معه جسماً واحداً مركباً هو الإنسان النوع.

هو أشبه ما يكون بعنصر الماء المركب في الحقيقة من عنصري الأوكسجين والهيدورجين.

وكما ينفصل الأوكسجين عن الهيدروجين بفعل تيار كهربائي، كذلك تنفصل النفس عن البدن، وبنسب متفاوتة، تحت تأثير الموت أو النوم، أو مادة مبنّجة، أو ما شابه.

إن حقيقة الإنسان هي نفسه دون بدنه، أو ضمن بدنه مركبة معه. ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يخاطبها أو يخبر عنها وهي منفصلة عن البدن يوم القيامة والحساب، بصيغتي المؤنث والمذكر في ذات الوقت، قولُه تعالى:

﴿أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّـٰخِرِيْنَ. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ. أَوْ تَقُوْلَ حِيْنَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِيْ كَرَّةً فَأَكُوْنَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ. بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَـٰتِيْ فَكَذَّبْتَ بِهَا واسْتَكْبَرْتَ وكُنْتَ مِنَ الكَـٰفِرِيْنَ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر، الآيات ٥٦ ـ ٥٩.

نفسا البدن والجهاز العصبي: تُعَاقبان وتُعَافيان:

وكما أن النفسَ المخيِّرة الملهَمَة الباقيةَ، هي التي تسعد أو تشقى، في الدنيا مؤقتاً، وفي الآخرة مؤبداً، كذلك ـ وإنما في الحياة الدنيا فقط ـ تعاقب نفس الجهاز العصبي (الدماغ ومتفرعاته) بإلحاق أذى جزئي أو كلّي فيها أو آلام مختلفة (كالشلل ومشتقاته مما قد يصيب الوجه من التواء، وما شابه، وكذلك ما يسميه الطب عندما يعجز عن تشخيص الداء «عصبي» لجهله هذه الحقائق).

وكذلك تُعاقب نفس البدن، بإيقاع إصابة، أو خلل، في عضو أو أكثر من أعضائه، بشكل دائم، أو متكرر، أو عارض.

ومن أسباب الإخلالات التي تسبب الأوجاع في مكان ما من البدن، مثلاً، ما يكون بهدف وقاية الإنسان أو على سبيل تعليمه. حيث ينبّه الإنسان بوجع ما، فإذا لجأ لأيّ شيء من دون الله، معتبراً هذا الشيء كافياً لشفائه، وقع في الشرك، وربما فيما لا تحمد عقباه من الوجع. كذلك إذا وقع في رُوْعه مثلاً أن سبب هذا الوجع أو هذا الخلل برد أو حر أو ما شابه من الأسباب، معتقداً أنها منقطعة عن مسبب الأسباب الذي هو الله سبحانه، وقع كذلك في الشرك وفيما لا تحمد عقباه من مشاكل المرض الذي يبدأ ابتلاء ويصبح مع الشرك أو الكفر، حقيقة.

وقد يصاب الإنسان بوجع ما، للتذكير بتقصير ما، كنسيان فريضة، أو تكليف بمستوى الفريضة. أو الإخلال بفريضة ما أو تكليف ما، كعدم قراءة القرآن، أو عدم قراءة الدعاء، أو كقراءة القرآن وعدم تدبر معانيه، وهكذا. . .

أما الثواب فنقيض كل الذي ذكرنا من العقوبات لكلا النفسين العصبية والبدنية، الثواب بالعافية، التي معها السعادة وإشراقة هاتين النفسين انسجاماً مع الثالثة الأصيلة، تسامياً واقتراباً هنيئاً من رضاه، ثم رضوانه سبحانه عز شأنه وتبارك وتعالى، وذلك كذلك، إما بشكل عارض أو متكرر أو دائم.

وفي هذا المجال كذلك، مجال الثواب، قد تحصل في بعض الحالات إفرازات مختلفة من البدن، عن طريق الأنف أو الفم أو العين أو الأذن أو الجلد، أو أي مكان آخر، فإنما يكون ذلك استكمالاً لتطهير البدن وتنقيته من كل شائبة. هذا مع الإيمان والتوحيد ، أما مع خلاف ذلك، فأعراض المرض أو ديمومته.

هل العلاج مشروع؟

أما بخصوص الطب، فهو إما وقائي وإما علاجي، وكلاهما مشروع، وإنما الوقاية أشرف من العلاج.

ثم إن العلاج درجات أو حالات، فهو صحيح أنه غالبًا ـ وليس دائماً ـ يسكّن وجعاً، أو يبرىء مرضاً، أو يصلح خللاً، على المستويين النفسيين: البدني والعصبي، ولكنه مع كل فائدة، يفوّت مقابلها مصلحة أفضل منها. فمع العلاج الشافي: إذا كان الأمر عقوبة كتبت على صاحبها مؤجلة. وإذا كان تعليماً، خسر العلم الأنفع والأسمى، وإذا كان الوجع أو المرض تطهيراً وتزكية، خسر درجة القرب من الرحمن الرحيم، وهي الأفدح في حساب الخسائر، وإذا كان تذكيراً بفريضة أو تكليف، فاته الأجر، وحلّ محله تراكم الآثام.

وعلى كل حال، فإن العلاج في جميع حالاته وأشكاله ومستجداته، مضافاً إليه جهد المريض، والنفقات، وجهد الآخرين، كل ذلك مقدّر أيضاً وهو بإذنه تعالى، وقد تتداخل معه العقوبة، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

على أن هناك حالات كثيرة مفجعة، قد تحصل عبر العلاج، نادراً ما يصرّح بها. يعرف عنها الأطباء أكثر من المرضى ويكتمون.

ثم إن بعض الحالات قد يكون مقدراً لها الشفاء بدون علاج، فإذا دفعها التسرّع إلى العلاج أصبحت بليّة.

وما أكثر ما يمكن أن يكتِب في هذه المواضيع، على أننا للاختصار،

نضرب مثلاً، خبراً، نقلته وكالات الأعلام، لعل التأمل فيه، يفي ببعض الجوانب مما نريد أن يحصل معه الإيمان بالله الواحد القهار. والخبر كما ورد في جريدة السفير ١٧ كانون الثاني ١٩٩٠ هو: قام طبيب بلجيكي ببتر ساق سليمة لأحد الرجال، بعد أن أخطأ في فهم توجيهات كبير الجراحين ببتر الساق ذات درجة الحرارة الأقل. وكانت حرارة الساق المريضة قد زادت بعد أن انحسرت إصابة ميكروبية بطريقة مفاجئة قبل إجراء العملية ليبادر الجراح ببتر الساق السليمة. وقد شفيت الساق المريضة تماماً بعد ذلك.

تلف البدن يحرّر الأنفس الثلاث:

إن في الجسم كما هو معلوم، أعضاء رئيسة، كالرأس والقلب والأوداج والرئتين وغيرها، إذا أصيبت إصابات قاتلة، أو تعطلت وظائفها لسبب أو لآخر، حصلت الوفاة، والوفاة كما ذكرنا، هي انفصال الأنفس الثلاث عن البدن.

وكما أن هذه الأعضاء الرئيسة، يؤدي تعطيلها أو تخريبها ـ دفعياً أو تدريجياً ـ إلى الموت، كذلك فإن الأعضاء المرؤوسة، إذا أصيب بعضها بما قد ينتشر ليتلف الجسم كله، فإن ذلك يؤدي أيضاً إلى الموت.

وطبعاً هذا ليس بجديد، ولكن الجديد الذي نرمي إليه، هو أن لهذا الموضوع صلة وثيقة، بقانون هو من أهم القوانين الإلْهية التي يخضع لها الإنسان طائعاً أو مكرهاً، مختاراً أو مجبراً، عنيت قانون الهلاك والإهلاك. فما هو هذا القانون؟

قانون الهلاك والإهلاك:

من المعلوم في العرف الديني القرآني، أن الأعمار مؤجلة بآجال، أو موقوتة بمواقيت، وذلك اعتماداً على آيات أشهرها قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١)

والفهم الظاهري عند الناس عامة، أن الإنسان لا يموت قبل أن يستكمل عمرَه المكتوبَ له، لا يزيد عن ذلك ولا ينقص منه.

والحقيقة هي غير ذلك. الحقيقة أن هناك عمراً مكتوباً أصلاً وهذا صحيح، ولكن قد يطرأ على هذا المكتوب، ما يكتب عليه أو يكتب دونه، وهذا معنى الآية الكريمة:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢).

وفي قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٣).

تنبيه واضح إلى حقيقة أن عمر الإنسان المكتوب له أصلاً، قد ينقص منه. طبعاً لأسباب تتعلق باعتقاد الإنسان وسلوكه تبعاً لهذا الاعتقاد أو خلافاً له. ويتضح الأمر أكثر فأكثر في قوله تعالى:

﴿بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٤).

وقوله سبحانه:

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾(٥).

ونحن نرى أن جميع الخلق يهلكون، البَرُّ منهم والفاجر، والمؤمن والكافر، فلماذا خصّص سبحانه بالإهلاك في الآية الأولى القوم الفاسقين وفي الثانية الظالمين؟ ثم نقرأ في «غافر: آية٣٤»، قوله تبارك وتعالىٰ عن يوسف عليه السلام:

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٠.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٢.

(٣) سورة فاطر، الآية ١١.

(٤) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية ٤٧.

﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾.

وبالمقارنة، ندرك أن الهلاك غير اللإهلاك، ونفهم من لغة القرآن أن الهلاك هواستكمال العمر المكتوب أصلاً تماماً وكمالاً، وأن الإهلاك هو قطع العمر قبل أن يستكمل، بسبب من كفر أو شرك أو إصرار على اعتقاد فاسد، أو تكذيب الرسل، أو تكذيب لما أنزل الله، أو ظلم أو فسوق، أو إصرار على كبيرة، أو فساد أو إفساد في الأرض، إلى آخر ما هنالك من مستَدعِيات الإضرار بالأنفس أو الأبدان ومعها سخط الله جلّت عظمته.

على أن هناك استثناءاتٍ قد تندرج في مصاديق هذه الآية الكريمة قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَّاً. حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾[1].

فالذي نفهمه من الآية الكريمة هذه، نراه جليّاً على الأرض: فمن أهل استحقاق العذاب، من يعذب في الدنيا قبل الآخرة، ومنهم من يمدّ له بالعطاء والعافية، ويوم تقوم الساعة يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ونحن لم نحشد هذه الأدلة، إلاَّ لنقرر، بفضل منه سبحانه، فائدةً مهمةً جداً في جملة الفوائد، وهي أنه من يخرّب جسمه أو نفسه، كلاً أو بعضاً، بمحرم من المحرمات، إنما يقرّب أجله بيده، ويستعجل الموت قبل استكمال عمره، مستدعياً نقمة ربه سبحانه، ومتعرضاً لغضبه وعذابه.

ولأجل هذا ـ من وجه من الوجوه ـ كان من فضل الله سبحانه، تحليل الحلال وتحريم الحرام: تحليل الحلال من الطيب، المندوب والمباح، وتحريم الحرام ممّا يدخل الجوف أو الأنف أو الرئتين، أو ممّا يغرّر بالنفس أو يخبّلها أو يلامس ظاهر البدن، من رجس أونجس أو خبث

---

(١) سورة مريم، الآية ٧٥.

مخبّث، أو حتى بفرح ومرح بغير حق. وكل ذلك من عناصر الإهلاك الدفعي أو التدريجي.

وأفضل الدواء أو العلاج لذلك كله، سلامة القلب من الشرك، والترقي في فهم التوحيد، وحسن التوجّه إلى الله تبارك وتعالىٰ، وحسن التوكل عليه له الحمد.

هذا لمن تتشكل عنده قناعة يقينية بهذا الأمر، علماً أنه عن طريق العلاج، قد يأذن سبحانه ويتكرم بإصلاح ما فسد، أو بترميم عضو مصاب بتأثير محرم من المحرمات، مثل بعض الأشربة أو الأطعمة، أو المشبوهات كالتدخين، أو تعاطي أي منكر من المنكرات، ممارسة أو نظراً أو سماعاً. أو الإفراط زيادة عن الحاجة، أو التفريط إخلالاً بتوازن النفس والجسم وإتزانهما. فإن الإنسان المصاب كليّاً أو جزئياً بشيء من ذلك كله، يشفى ويرمّم بالتوبة النصوح، والإيمان الواعي لمعاني التوحيد وعمل الصالحات:

﴿قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

﴿... إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2].

وبالجملة، فإن الله سبحانه وتعالىٰ محيط بالجسوم وبالأنفس وبكل ذرة من الجسوم ومن الأنفس، وبكل جزيء من الذرة في الجسوم والأنفس، وكل شيء اشتمل عليه هذا الكون الذي لا يعلم أبعاده إلاَّ الله جلّت قدرته وعزّ شأنه:

﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[3].

﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ

---

(١) سورة يس، الآية ٧٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

(٣) سورة فصلت، الآية ٥٤.

مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1].

﴿آللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2].

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[3].

(١) سورة سبأ، الآية ٣.
(٢) سورة الزمر، الآية ٦٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية ٧٨ ـ ٨٢.

(٨)
استعدادا ليوم القيامة

العقل أمانة نحاسب عليها

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

(٣٠ : الروم)

استعدادا ليوم القيامة

العقل أمانة... نحاسب عليها أدق الحساب

العقيدة، هي ما ينعقد عليه القلب، حقّاً كان أو غير حق. والسبيل إلى الحق، هو العقل الذي شرفنا به الله عزّ وجلّ، وهو سبحانه وتعالىٰ في كثير من الآيات في كتابه الكريم، يهيبُ بالناس أن يستعملوا عقولهم، تفكراً وتدبّراً وتأملاً. ليتوصلوا إلى خلاص أنفسهم، بمعرفة الحق الذي هو الغاية الأسمى، وهو مناط الرجاء.

وما العقل الذي تتعدّد العناوين والمعاني المنتهية إليه، من مثل الإسلام أو الحنيفية أو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أو الروح التي فيها قوله تعالىٰ:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1].

أو الدين الذي دان به الإنسان لرب السموات السبع ورب العرش العظيم:

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[2].

ما العقل إذن، أو الإسلام أو الحـ يفية أو الفطرة أو الروح أو الدين

---

(١) سورة الحجر، الآية ٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٣.

الإلٓهي، إلَّا الأمانات التي أمر الله بعدم خيانتها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

هذه هي الأمانات التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال، لأجل نسبة التكليف العالية، التي يتلبس بها الإنسان من جرائها:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ [أكرمه الله بها] إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[2]:

الذي يخون عهود الله ولا يستعد لملاقاة الساعة، استعداد الصديقين والشهداء وأولو الألباب.

إلَّا أن فرقاً من الناس شذَّت، ولا تزال فرق وأفراد يشذُّون. يرفضون ما أهاب به الله سبحانه، ونبّه إليه بصريح الآيات، مصرّين على هجر العقل، آخذين بالسماع والتقليد، فيما لا يجوز التقليد فيه من أصول الدين، توحيداً ونبوة وإمامة ومعاداً وعدلاً، وهذه في الحقيقة أمور اعتقادية، ينبغي التوصّل إليها بالدليل العقلي، والبرهان القطعي، لأنها الأساس الذي تترتب عليه مدارج العبادات الصحيحة المقبولة عند رب العالمين.

هذا فضلاً عن تعامل الإنسان على أساسها مع نفسه ومع مجتمعه، وبالتحديد ينبغي التوصّل إليها عن طريق العقل الذي لم تحجب فطرته، فتستقلّ بالعمل النفس الأمّارة.

بين تهجّد الليل وصناعة القنبلة:

فإذا بقيت الفطرة سليمة أو إذا أزيلت عنها الأقنعة والحجب، بخروجٍ شجاع من دوائر الجذب الأرضي، وقرار حاسم جريء، يختار به الإنسان ربّه الله تبارك وتعالىٰ دون سواه. عندها يشرح الله سبحانه صدر هذا

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

الإنسان لدينه، فتنجلي البصيرة، وينجلي حتى البصر. . . حتى الألوان تتبدّل عنده ويصبح لها مذاق خاص. . . فإذا الأرض غير الأرض، وإذا السماء سموات، وإذا سرّ الله في قلب عبده ووليّه سعادة حقيقية يستحيل أن يتوصل إليها إلاّ بقلب طفل أو بقلب شجاع.

إذن بالعقل يستمطر النور من الله:

﴿يَهْدِي لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(١).

فيستضيء القلب ويزهر ويتلألأ بنور الله، بين الناس في الحياة الدنيا:

﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(٢).

وفي الآخرة، وبين الدنيا والآخرة:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾(٣).

أما بالسماع، والمحاكاة، والتقليد، في مجال الاعتقاد، بعيداً عن التوحيد، فصريح قول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾(٤).

الله عزّ وجلّ يذكر قولهم هذا، ثم يقرعهم بقوله تعالىٰ:

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٥).

أما ما يتوصل إليه العقل وينعقد عليه القلب، فبحاجة إلى مدد يزيده خيراً وبركاتٍ من لدن الله عزّ شأنه، فالإنسان لا يقوم بذاته، إنّما عليه أن

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢٢.
(٣) سورة التحريم، الآية ٨.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٢٢.
(٥) سورة الأنبياء، الآية ٥٤.

يخطو الخطوات الأولى تصميماً على المعرفة، صدقاً، وحبّاً، وإلتزاماً ـ وحتى هذا لا يكون إلّا بإذنه تعالىٰ ـ ثم تأتيه الهداية من حيث لا يحتسب:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾(١) صدق الله العظيم.

أما بدون اليقين عن طريق العقل، فلا يكون الوهج بين تخشّع وحنين في العبادة، وصفاء في التوجّه، وصدق في مجاهدة النفس وتزكيتها، وإقدام وبسالة في مجاهدة أعداء الله.

بدون اليقين عن طريق العقل، يبقى الإنسان إذا الريح مالت مال حيث تميل. وبدون اليقين عن طريق العقل، تبقى النفس خاوية، خالية، تتعكز على ظاهر البدن، وعلى الظواهر الشكلية عامة.

والناس في تاريخ التديّن، غالبيتهم من هذا النمط. بينما المطلوب الذي يتناسب مع الكرامة التي أكرم الله بها هذا الإنسان، وهي العقل، المطلوب أن لا يفرط الإنسان بهذه الكرامة، وأن يحسن الشكر لخالقه، تعبّداً على خوف ورجاء، وتقرّباً إليه سبحانه وتعالىٰ بكل صلاح يزكيه العقل المستنير بربّه، بين تهجّد الليل وصناعة الرغيف وصناعة القنبلة، جهاداً في سبيل الله.

أمّا كيف يتوصل العقل إلى الكشف ومعرفة الحقائق؟ وعلى ماذا يجب أن ينعقد القلب؟ فهنا تبدأ الحكاية، حكاية الإيمان الحقيقي والكفر الحقيقي.

في الواقع أن ما تعارفنا على تسميته «بالاعتقاد» هو الخطوط الرئيسية لدين الله عزّ شأنه، مضافة إلى الأساس الذي يستحيل أن يقوم بدونه، عنيت به التوحيد، هذا المخطط الهندسي الفذ، الذي أساسه ولحمته التوحيد، مطبوع في النفس البشرية، منقوش نقشاً، وهو وإن كان قابلاً لأن يحجب أو يطمس، إلّا أنه غير قابل لأن يبدّل أو يمحى...

---

(١) سورة مريم، الآية ٧٦.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[١].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾[٢].

نهاية الرحلة. . . فرح أعظم، أو وجع أعظم. . . في الأبدية:

أما حكاية الإيمان الحقيقي والكفر الحقيقي، فبما أنهما عقلاً، يستحيل أن يجتمعا في إنسان واحد، فيبقى أنه لا بدّ لكل نفس من أن تختار، أما الذي يختار الكفر فمحسوم أمره.

يبقى امتحان القلوب الذكية، التي نجحت ابتداء باختيار الإيمان، كيف تكمل مراحل التعليم الأشرف، والأنقى، والذي فيه حي على الفلاح. . . من أين تبدأ؟ وما هي الوسائل؟ وإلى أين تنتهي؟ فمعاً إن شاء الله في هذه الرحلة المجيدة، التي سنحاول بعونه تعالىٰ أن تكون قصيرة وممتعة.

ـ وهنا لا بدّ أن نستدرك ملمحين إلى أن الإنسان قد يستبطن كفراً ويظهر إيماناً، فتلك حالة مرضية، يتميز صاحبها بالخسّة، ومن أسمائها النفاق، وهي حالة ثالثة لسنا بصدد بحثها الآن ـ.

فعوداً إلى السؤال عن الإيمان الحقيقي، من أينَ يبدأ؟

كثيراً ما نسمع في مجتمعاتنا الإسلامية، وكذلك العالمية ادّعاءات عجيبة من مثل: فلان شيوعي. ولكنه مؤمن بالله ويصلي أو لا يصلي. . . . المهم أنه مؤمن بالله. . . وفلان يدين بالقومية ـ أيَّة قومية من قوميات أهل الأرض ـ أو العرقية، ولكنه مؤمن بالله. . . وفلان يدين بالعلمانية، ولكنه مؤمن بالله. . .

وكل أولئك يحسبون إنما الله سبحانه وتعالىٰ خلقهم وقال لهم تصرفوا على أهوائكم وأمزجتكم، ودينوا بالدين الذي يريحكم، واسلكوا السلوك

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٢) سورة يونس، الآية ٦٤.

الذي تشتهون، واختاروا النظام الذي يروقكم، وضعوا القوانين التي تتـوصل إليهـا آراؤكم وتجاربكم، واعتنقـوا الفلسفة الأكثـر دعايـة وتفلسفوا إن شئتم وكيف شئتم، ويكفيني منكم خـلال ذلك كله وفي النتيجـة، أن تقولـوا: لا إلَـه إلاَّ الله ـ هذا لمن يقـولها نـاهيك بمن يشـرك به سبحـانـه وتعـالىٰ عمّـا يشركون ـ كأنما الله عـزّ شأنـه بالنسبـة إليهم «ناطـور صحراء»، أو أنـه أخذ على نفسه سبحانه أن يدير الفلك، ويراقب نـظام الكواكب ومسـاراتها، وأن يمسك السموات حتى لا تقع على الأرض، وأن يرسل المطر وينبت الـزرع ويداول بين الليل والنهار والفصول الأربعة، ويضبط عقارب الساعة الكونية، وعليه إذا قَدَّمَت وعَليه إذا أَخَّرَتْ، وغير ذلك من قضايا الكون في السموات والأرض، كـل ذلك أوجبـوه على الله سبحـانـه، إلاَّ الإنسـان زعمـوا أن الله تبارك وتعالىٰ تركه واكتفى منه بأن يقـول: لا إلَه إلاَّ الله، ثم سمـح له بعـد ذلك أن يتخذ ماركس نبياً ولينين إمـاماً وأي رئيس للولايـات المتحدة أو أي بلد أوروبي، رمزاً للحضارة الإنسانية.

ترى أية فطرة إنسانية سوية تقبل بذلك؟ أليس العقل يحثّنا أن اسـألوا وتأمّلوا: لماذا خلقنا الله سبحانه؟

فإذا كان الجواب أنه خلقنـا كما خلق الأبقـار والثيران والـدببة، فـأين تذهب ميزة العقل وكرامة العقل؟

وإن كـان الجـواب ليس كـذلـك، وإنمـا خلقنـا لكي نـدين بـدينـه، ونستمتع بحبّه وكرمه ورحمته.

فما هو دين الله سبحانه؟

هنا وعلى الإجابـة على هذا السؤال، يتـوقف مصير الإنسـان، وتتعين نهـاية رحلتـه الأرضية الـدنيويـة: إما إلى الفـرح الأعـظم، وإمـا إلى الـندم الأعـظم المصحوب بـوجع في العـظام وغصص، وفي كـلا الحـالين الـزمن يطول ويطول. . . أين منه عمر الأرض الخاطف الذي معه يتخطف المـوتُ وليّ الله والمـراكسي والعلمـاني على حـد سـواء، دون أن يجـرؤ على

الاعتراض حتى «نيتشه» فيلسوف القوة أو أتباعه. ثم إننا على يقين أيضاً من أن هذا الموت له إيقاع على الناس، درجات هو، بين ألف السعادة وياء المرارة.

الرسل. . . أم الفلاسفة؟

بعد أن عقلنا الأصل الأساس الذي هو التوحيد ثم منه عقلنا النبوة والمعاد وما يتفرع عنهما، نجد أنفسنا أمام رياضة من نوع آخر، هي رياضة التلقي والتمثل والاستجابة، رياضة أن تغتني النفس ويغتني القلب بالروائع، بدءاً بأرقى تطلعات الروح: عنيت الحب، طبعاً حب الله جلّ جلاله، فكل حب دونه، هو ظلّ أو انعكاس، هنا إذا أهاب بنا الحبيب الأعظم، إلى صلاة وزكاة، وصيام وحج وجهاد، ولإقامة الدولة التي ترضيه، والنظام الذي أمر به، والاحتكام إلى ما شرّع هو سبحانه، لا ما شرع الناس، وإلى طاعته وطاعة نبيّه والقرآن الذي نزل على نبيه وطاعة وصيّه، وطاعة الأئمة الأبرار وأولياء الله الأطهار وعدم الشرك، وعدم الاهتمام بأية قوة في الأرض أو السماء غير قوته، ومعرفة أن لا قوة إلاّ به ولا عزّة إلاّ به ولا نصر إلاّ من عنده، ولا كرامة في الدنيا والآخرة إلاّ منه، وحب أوليائه وبغض أعدائه، ممّن لا يؤمن به ولا يدين بدينه، أو من هو سادر في معصية أو متلبس بظلم، كل هذه الأمور مجتمعة مترابطة متماسكة هي دين الله تبارك وتعالىٰ، وإذا أخذ بعضها وترك بعضها فهو الشرك إذ ليس الشرك فقط أن نعبد الصنم إضافة إلى عبادة الله سواء كان الصنم بشرياً أو حجرياً، وإنما الشرك ألوان كثيرة، معظم الناس واقع في جحيمها.

أوليس شركاً أن نؤمن بالله وندين بغير دينه؟ أوليس شركاً أن نترك شرائع الله ونحتكم إلى ما يبتدعه الناس من قوانين، أوليس شركاً أن نؤخذ بفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، أوليس شركاً أن نتبع رجالاً مرضى النفوس، يشكّكون بالله وبدين الله، وبنبوّة الأنبياء وخاصة بنبوَّة محمد ﷺ، ومع ذلك نسميهم قادة وفلاسِفة وعباقرة، ثم نقول صدق رسول الله، وصدق

رسول الشيطان... صدق نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم السلام، وصدق فلاسفة المادة والإلحاد... وهل يجتمع النقيضان. لِنَعُدْ إلى عقولنا نسائلُها: هل يجتمع النقيضان في عقل واحد؟ إذا كان الجواب لا، وهو قطعاً، لا، فإلى متى الانتظار وداعي الله يدعوك أيها الإنسان إلى كرامة الدارين، وسعادة الدارين وخير الدارين. وإذا كان الجواب أنه بالإمكان الخلط والترقيع، فاتّهم نفسك بالتزوير والفساد، وجناحيك بالكساح وستقرأ يوماً ما بحروف قاهرة:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

اتخاذ القرار:

قد يقتنع القارىء بما مرّ به، ويصمّم على التطبيق العملي، صدقاً والتزاماً بدين الله، ولكن هذا التصميم، يكون عادة ردّة فعل آنية للقارىء في حال تأمّله وتحكيم عقله، والكتاب أو المقالة بين يديه، فيقرّ ويذعن، ثم يعود إلى قواعده في المجتمع، حيث يأخذه التيار الجاهلي من جديد، فتصبح قناعاته نسياً منسياً.

والقارىء في هذه الحالة، كمن يقف أمام وردة عطرة، تلفته حقيقتها الوردية، رونقاً وعمقاً جمالياً، ويشم عطرها فينتشي، حتى إذا تركها، نسي العطر ونسي الوردة. فما هو المطلوب؟

المطلوب الذكر والتذكّر.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢].

ويكون ذلك باتخاذ القرار الجمالي، كأن يتأمل ويقول: تلك الوردة حياتها سر عطرها وجمالها:

---

(١) سورة النحل، الآية ٣٣.

(٢) سورة الرعد، الآية ١٩. وسورة الزمر، الآية ٩.

﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[١].

إذ لو كانت اصطناعية، لكانت بلا حياة، يعني بلا سر. ونحن ندرك هذا ونعقله فأيهما أكرم للنفس، أن تتعامل مع الجمال البلاستيكي المحنط؟ مع النتاج الإنساني، أم مع الجمال المطلق الغنيّ بالحياة وأسرار الحياة؟

بديهي أنه أكرم للفطرة أن لا تلوث، وللفكرة أن لا تتحجم فتنتكس، أكرم لها أن تتجاوز الأرض والسماء، أولى بها أن لا تنكمش فتتعذب بانكماشها. أولى بالإنسان الذي كرّمه الله سبحانه، وسخّر له ما في السموات والأرض جميعاً منه، أن لا يكون مقلِّداً لأدعياء الفكر، المنكوسين، الشذاذ. التقليد شيمة القرود. إلَّا إذا كان اتباعاً لأولياء الله، قوله تعالىٰ:

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[٢].

التيارات اللادينية[٣]:

التيارات الفكرية والفلسفية اللادينية، تغري ذوي الشخصيات الهزيلة، ومن هؤلاء يتشكل للأحزاب اللادينية رصيدها الشعبي، والأحزاب تستغل ضحالة تفكيرهم، حيث تنفخهم نفخاً بالمفاهيم التي تريد، وتلقنهم تلقيناً ببغائياً، وبالتالي تعتمد عليهم اعتماداً أشبه ما يكون بالتحريك الآلي، مستفيدة من الاندفاع العاطفي، الناتج عن ردّات الفعل العصبية والعضلية عندهم. لذلك لا نجد في هذه الأحزاب، مفكرين، ومنظرين إلَّا القادة. والقادة اللادينيون شياطين أو أخوة شياطين ضلّوا وباتوا يسوقون مبلبلي النفوس إلى الضلالة. وتعريف هذه الأحزاب تحديداً، هو ما كان منها بين العلمنة والإلحاد.

---

(١) سورة لقمان، الآية ١١.

(٢) سورة لقمان، الآية ١٥.

(٣) على أساس أن الدين هو عبادة الله الواحد الأحد، بدينه القيم، قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً...﴾ الآية.

كل حزب بما لديهم فرحون:

قد يثور القارىء الحزبي هنا، هذا إذا ما تحملت أعصابه وتمكن من الوصول إلى هذه الفقرة من هذا البحث. وإلاَّ فالعادة أن مثل هؤلاء إذا كانت الشحنة الحزبية فيهم قوية، أو كانوا دون الثلاثين، فإنهم غالباً يطرّحون الكتابات العقلية، يعني المؤمنة، وكثيراً ما يشتمون الكاتب، ويحكمون عليه بالرجعية، وهي التهمة الجاهزة دائماً نتيجة للتكرار في التلقين.

أقول قد يثور القارىء الحزبي هنا فيكون مصداقاً لما ذكرت من أنه لا يفكر بشخصية مستقلة، قوية، مجردة. وأعني باستقلال الشخصية، استقلالها عن المخلوق، وليس استقلالها عن خالقها لأن هذا مستحيل.

أما إذا توفّر قارىء يمكنه أن يعقل آنياً، فليس من السهولة بمكان أن يتخلى عن قواعده الحزبية ـ أو حتى المتفلتة ـ رغم تصديقه وَتَشَبُّعِهِ إيماناً بما أسلفنا.

صحيح أن التجرد والتعقل، مدعاة للمعرفة والإقرار بالحقيقة، ولكن المعرفة الآنية شيء. واتخاذ القرار الحاسم شيء آخر. فإن المعرفة إذا لم تتوّج بقرار جريء، تذهبْ سدى مع أول لقاء حميمي، مع الأخلاء الذين لا يدينون حقيقة بهذا الدين. تذهب القناعات كلها، مع أول هبّة ريح، من محازب أو صديق، أو رفيق، أو صاحب أو صويحبة. ولا سيما إذا كان اللقاء مع مجموعة، حيث يذهب بهذه القناعات، بريق ضحكات فارغة، أو أحاديث خاوية، تحت تأثير الخلة والحميمية. لذلك قال سبحانه:

﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[١].

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٦٧.

التضحية... في سبيل شرف الغاية:

فالقرار المصيري، يحتاج إلى شجاعة أصيلة، إلى جرأة، يوطن الإنسان معها نفسه، على أن يضحي بصحبة الرفاق والرفيقات، وإذا اقتضى الأمر بماله ومصادر ماله، إذا كانت مظنّة شبهة عنده، ويضحي حتى بحب المجتمع له، إذا كان المجتمعُ مجتمعَ رعاع، يحكمه أشباه الرجال، ولا رجال.

وليجاهدنّ حتى يصل إلى حالة، يفهم معها، أنه أصبح فريداً، معتزلاً الناس ليس له أنيسٌ إلاَّ ٱللَّهَ، ولا وليٌّ إلاَّ ٱللَّهَ، ولا حبيب إلاَّ الله، عند هذا فليحمدنّ الله، مصعداً بقلبه، وكأنه يرفعه على كفيه، إلى الله تبارك وتعالىٰ.

ولا يداخلنّه أَنَّ ذلك رهبانيةٌ، أو هروب، أو حالة نفسية سلبية، إنما هي أشد المواجهة، وأروع التحدّي، هي مرحلة في جهاد النفس عزيزة، ييسّرها الله لمن يشاء من عباده ـ ومشيئة الله لا تتخلّف عن مشيئة عبده ـ وهكذا يكون معها ـ مع النجاح ـ سرّ الانفتاح.

ولا يغيبنّ عن البال أنه طبيعي جدّاً، لمن يتخذ قراراً بالتحوّل عن جوّ عاشه فترة طويلة من الزمن، بما فيه من حميميات، وعادات، ووجوه يألفها، ومناخات ذهنية أنس بها، طبيعي جداً أن يجد صعوبة في تركها، ولكن شرف الغاية وسموّ الهدف يهونان كل ذلك، حتى أنه يأتي يوم، يصبح مجرد تذكر هذه الأجواء، موجع لذاكرته، بغيض إلى نفسه، فالهدف أسمى من التضحية بما لا يقاس.

رياضة محببة وجهاد أكبر:

هذا كله إذا قُبِلَ هذا الإنسان في الامتحان، فإذا قُبِل فهو في بداية النعيم، فليكثر من حمد الله سبحانه ومن الاستغفار، بلى، الشروط حساسة ودقيقة، فإيانا ثم إِيانا أن ننظر إلى الأمر بقلة اكتراث: نحن هنا

أمام التوبة، التوبة إلى الله العزيز المتعال، ذو الكبرياء والجبروت، الغني عنّا وعن توبتنا وعن العالمين. ومن شروط التوبة أن تكون مقترنة بنيّة الامتناع عن الرجوع إلى معصية، امتناعاً قطعياً مطلقاً، وملازمة الشعور بالندم الشديد، ولمجرد تذكّر ما فات من ذنوب. وبطريقة أنه لو خيّر التائب بين رجوع إلى معصية، وبين أن يحرق بالنار، فليصمّم على اختيار الحريق بالنار على أن يعود إلى معصية، وليبك إذا استطاع، خوفاً وامتناناً، أما المواظبة على العبادة، وأما الإكثار من ذكر الله عزّ وجلّ، فحدث ولا حرج، إضافة إلى قضاء ما فات.

قد يقول القارىء هذا كثير، وهذا متعب. لا ليس كثيراً ولا متعباً، إذا كان بِحُبٍ وشوقٍ، ومعرفة أمورٍ عن عظمة الخالق، أما كل عظمته سبحانه، لا يحيط بها عقل مخلوق لا في الأرض ولا في السموات. وفي المواقف الصعبة، ليتذكر قول الرسول الكريم ﷺ: «ربي إن لم يكن بك عليّ غضب، فلست أبالي، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك. يا حبيباه، يا الله، يا ربّاه، يا رب العالمين».

لا كل ذلك ليس كثيراً، بل هو قليل قطعاً، إلى جانب عظمة الله، ونعم الله، وكرم الله، ورحمة الله. ذلك كله قليل وقليل جداً، إذا عرف التائبُ ـ مع اكتمال شروط توبته ـ أن الله عزّ وجلّ يبدِّل سيئاته حسنات، ويضاعف له أجره، ويزيدُهُ من فضله، وهو ذو الفضل العظيم، ويصلح باله، ويصلح حاله، وذلك كله بوعد منه سبحانه في كتابه العزيز:

﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1].

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

وهاتيك النتائج والحبوات والعطاءات، معروفة بالتجربة المحسوسة، يعرفها العارفون:

(١) سورة يونس، الآية ٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١١.

﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(١).

* * *

وممّا هو من اختصاص العقل في الصميم، وجدير بالعقلاء أن يُلموا به ويعقلوه، لكي لا يكونوا ممّن قال الله تعالىٰ فيهم:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

قلت ممّا هو من اختصاص العقل في الصميم هو وجوب إدراك معنى الآيتين الكريمتين، قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(٣).

وقوله عزّ شأنه:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾(٤).

ولنكون في ضوئهما بنسبة عالية، لا بدّ من إيضاحات:

فواقع الحال، هو أن كل مؤمن متعرض لابتلاءات، وممتحن بامتحانات لا بدّ منها، قوله تعالىٰ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ أَلَم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلمَنَّ ٱللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٩.

(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٥.

(٤) سورة التوبة، الآية ١١٥.

(٥) سورة العنكبوت، الآية ١ ـ ٣.

وهذه الامتحانات قد تكون فردية، كامتحان أيوب عليه السلام في نفسه وبدنه، وقد تكون في بعض متعلقات الإنسان، من أهل ومال، كامتحان إبراهيم في ذبح إبنه عليهما السلام، الابن الذي كان ما زال وحيداً، وهو أغلى على أبيه من كل أهل الأرض آنذاك فاستجابا لربهما طائعين راضيين، وكان الفداء العظيم للبلاء العظيم. وامتحان سليمان عليه السلام في ماله الذي ضحّى به وهو من خير المال وأجمله (الصافنات الجياد)، إذ أوقعه هذا المال في معصية الانشغال عن الصلاة، فأعدمه وثاب إلى ربّه خائفاً خاشعاً. وقد تكون في مواجهة جمهور من الناس، على صعيد قرية أو أكثر، أو مدينة أو أكثر، أو شعب أو أمة أو العالم بأسره، مواجهتهم بما لا يحبون. ممّا يعتبرون أنه حدّ من حرياتهم المزعومة، من دعوة للحشمة بدل التسيّب الأخلاقي والانتحار الجماعي بالفواحش، أو دعوة إلى النظام بدل الشتات والفوضى، أو إلى العدل والرحمة، في أزمنة الظلم والطغيان والتشوّه وسفك الدماء، إلى آخر ما تتعرض له المجتمعات البشرية في مراحل بعدها الزمني عن عهودها مع الله ومنزلاته:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

وإنما تكون هذه المواجهات بالنسبة للمكلفين على درجتين: الأولى: درجة النبوة وورثة الكتاب، والثانية درجة الفقهاء والعاديين.

فالدرجة الأولى هي التي تكون بأمر من الله بيّن لا لبس فيه، عموماً هو الوحي والإلهام، فيختلف فيه التكليف وفق أزمنة المكلفين ومجتمعاتهم، فتارة يكون بمجرد توجيه النداءات وعرض التعاليم المنزلة، مع تحمّل صنوف الأذى والائتمار بالصبر على ردود الفعل مهما كان شرّها،

---

(١) سورة الحديد، الآية ١٦.

وذلك كما حصل لرسول الله عيسىٰ عليه السلام، وتارة يكون التكليف مُلْزِماً بالدفاع عن الرسالة، وهنا يضاف إلى ما ذكرناه عن تكليف المسيح عليه السلام، أمر الله عزّ وجلّ بالدفاع عن الدعوة إليه سبحانه وعن الرسالة، بأسباب القوة، كالتكليف الذي كان لمحمد ﷺ (بتبليغ الرسالة والقتال دونها). وفيه تكليف بتوجيه النداءات وعرض التعاليم المنزلة، مع تحمّل صنوف الأذى، والائتمار بالصبر على ردود الفعل الشريرة، وفوق ذلك كله، تكليفه بالتصدّي لقتال من يقف في وجه الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، وقتال كل من يقف موقفاً عدوانياً من الله ورسوله، والدين الذي أنزل على رسوله، دين التوحيد أو الحنيفية، وهي الاستقامة والعدالة والرحمة، قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

على أن ابتلاءات الأنبياء والرسل كثيرة ومتعددة، بتعدّد الغايات منها، سواء ما كان شخصياً متعلقاً بكل فرد من الأنبياء على حدّه، أو ما كان منها ذا وجهين خاص وعام، فوجه يخصّ النبيّ والآخر عامة الناس، كأنْ يكون درساً أو قدوة أو عبرة لأولي الألباب. وما دام موضوعنا ليس سرد أنواع الإبتلاء، وإنما معنى آيتي الجاثية والتوبة الأنفتي الذكر، فسنكتفي بهذا المقدار عن الابتلاء الذي توخينا به أن يكون مدخلاً للكلام عن الآيتين الكريمتين.

ومن هذا الفريق (الأنبياء والرسل) ورثة الكتاب، وهم كذلك اصطفاهم الله سبحانه قبل ولادتهم، لأدوار، مثلما اصطفى الذين من قبلهم من النبيين والمرسلين، واجتباهم، وأورثهم الكتاب، وذكر ذلك في كتابه الكريم مخاطباً رسوله محمداً ﷺ:

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٥.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّ آللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ آللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

والمقصود من ظلم النفس في الآية الثانية، لا هو من الكفر ولا من الشرك ولا من ظلم الآخرين، وإنما من الظلم السلوكي الشخصي: من السيئات التي هي مع التوبة والإنابة، يبدّلها الله سبحانه لمصلحة صاحبها بحسنات. ويوضح ذلك سياق الآيات، وصولاً إلى قوله تعالىٰ: **﴿جنات عدن يدخلونها﴾** فهو سبحانه لم يستثن من المصطفين حتى الظالم لنفسه من دخول الجنة.

كما يوضح ذلك كثير من الآيات المتعلقة بتصريحات لبعض الأنبياء، مثل قول إبراهيم عليه السلام.

. . . **﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾**[2].

وكلمة خطيئة قد تعني الجمع في اللغة، ومثلها كلمة نعمة وغيرها، قال تعالىٰ:

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ آللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[3].

وقال سبحانه:

---

(١) سورة فاطر، الآية ٣١ ـ ٣٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٨١ ـ ٨٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[1].

وواضح أن المقصود بكلمة (نعمة) في الآيتين الكريمتين هو الجمع أي النعم. ومثل هذا في اللغة كثير.

ومثله قول موسىٰ عليه السلام عندما قتل رجلاً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ...﴾[2].

إلى آخر ما هنالك من تصريحات الأنبياء، وصريح النصوص عنهم في القرآن المجيد.

فإذا كان أفراد هذا الفريق (الأنبياء والرسل وورثة الكتاب) مبتلين ممتحنين وهم عند الله المصطفون الأخيار، والمجاهدون الأبرار، فكيف بأفراد الفريق الثاني، عنيت الفقهاء وبقية الناس.

يعني ما أريد أن أوضحه، هو أنه إذا كان الأقرب الأحب إلى الله معرضاً ـ وهو بشر ـ للوقوع في المعصية [كآدم عليه السلام]، والخطيئة [كإبراهيم عليه السلام]، والفتنة [كداود عليه السلام]، مؤاخذاً عليها أشد المؤاخذة أحياناً [كحبس يونس عليه السلام في بطن الحوت]، وما خطاياهم ومعاصيهم بذات بال إذا قورنت بخطايا البشر العاديين وجرائمهم. إذا كان كل هذا الرصيد لا يشكل عليهم حصانة تقيهم العثرات ـ خارج نطاق الوحي ـ فتراهم دائماً أحوج ما يكونون لرعاية الله، وعنايته وإرشاده وتسديده لهم، فما هو رصيد غير المصطفين من الناس، خاصتهم وعامتهم، حتى يتصدوا لمواقف مصيرية، بكثير من التحكم والمزاجية والغرور، والزج بالناس من أتباعهم ومنافسيهم في أتون فتن، فيها الدمار والحرائق وسفك الدماء، أم لهم ضمان عند الله، أم اتخذوا عنده بذلك عهداً؟!...

---

(١) سورة النحل، الآية ٥٣.

(٢) سورة القصص، الآية ١٦.

وإذا كان من حق الأنبياء والرسل وورثة الكتاب أن يتبعوا وأن يطاعوا، ومن واجب الناس أن يؤمنوا لهم ويتبعوهم ويطيعوهم ويجاهدوا في سبيل الله بين أيديهم، ذلك لأن هؤلاء المصطفين، يوصلهم سبحانه عبر مراحل من التربية إلى درجة السداد والرشاد، وندرة الوقوع في الخطأ ولو صغيرة، وكذلك في المرحلة الأخيرة من تربيتهم، عدم الوقوع في معصية أو خطيئة أو فتنة حتى خارج نطاق الوحي.

ولأخذ فكرة عن عظمة وأهمية هذه التربية، التي يربيها سبحانه للمصطفين من عباده، نلخصها في سبع مراحل:

الأولى: الحياة العادية.

الثانية: الإشعار بالمسؤولية بشكل غير عادي.

الثالثة: التَبَتُّل، وإخلاص القلب لله، وإخلاص كلية الإنسان لله، ثم الفناء في فناء الله، ثم الصحو بعد المحو، ثم العطاءات من كرم الله ورحمته.

وهذه المراحل الثلاث قد يتوصل إليها أي إنسان يصدق في توجّهه إلى الله سبحانه، وقد شرحناها في مكان آخر من هذا الكتاب في مبحث: «لا إسلام بدون توحيد».

أما المراحل الأربع الباقية، فالله سبحانه اختصّ بها أصفياءه من عباده:

أولاها: مرحلة: **﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾**[1] (لاحظ سين الاستقبال).

الثانية: مرحلة: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾**[2].

(وفيها رعاية مباشرة منه سبحانه ولكن فقط في الصلاة والمواقف).

---

(١) سورة الصافات، الآية ٩٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٧ ـ ٢١٨ ـ ٢١٩.

الثالثة :مرحلة : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[١].

(وفيها رعاية هائمة منه سبحانه في جميع حالات ذي العلاقة).

الرابعة:مرحلة : ﴿وإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٢].

والمعنى المتعارف في «وإن تظاهرا عليه» (زوجتان للنبي ﷺ، إلاَّ أن التأويل أعمّ وأعظم، وهو الأصل، إذ المقصود فيه، الثقلان: الإنس والجن، فهي عناية ربانية مباشرة، في الأمور العظمى، ثم حسب أهمية الأمور، يأمر جبريل عليه السلام، وصالح المؤمنين والملائكة، بنصرة من يصطفيه من عباده، له الحمد حمداً خالداً بخلوده.

ومع ذلك لماذا لا يتولى سبحانه كل ذلك مباشرة، دون توسيط أحد من خلقه، وهو الغني عن العالمين؟ صحيح، وإنما ذلك:

لأن ﴿لَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[٣].

* * *

بعد أن أخذنا فكرة عن تلك التربية الحكيمة الفذّة، والحليمة الكريمة، والتي منطلقاتها جملةً وتفصيلاً، من قوله تعالىٰ، لمن يصطفيه أو يجتبيه أو يختاره:

﴿ ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[٤].

لِيُصْبحَ بعد ذلك أهلاً للنبوة أو الرسالة أو وراثة الكتاب.

ليصير بعد ذلك قائداً ملهماً من الله بالحقيقة، مسدّداً من الله بالحقيقة، داعياً إلى الله وحده لا شريك له، لا إلى نفسه، ولا إلى طائفة من الناس ولا إلى مخلوق ممّا خلق الله، ولا إلى قضية فيها إثم أو معصية، ولا إلى قضية فيها شبهة إثم أو معصية، ولا مفرقاً بين المؤمنين ولا بين

---

(١) الطور، الآية ٤٨.

(٢) سورة التحريم، الآية ٤.

(٣) سورة الجاثية، الآية ٣٧.

(٤) سورة طه، الآية ٣٩.

المسلمين، ولا متجبراً ولا متحكماً، ولا منفراً من دين الله بحزب يتقوقع فيه، أو تنظيم يتسلط من خلاله. بل يكون سمحاً بعيد المرمى، واسع الأفق، رفيقاً بقومه على علاّتهم، متسامحاً مع جميع الناس على اختلاف مللهم وتوجّهاتهم، ما لم يعتدوا ويفسدوا ويحاولوا إلغاء دين الله وطمس رسالاته، داعياً المؤمنين لأن يسلكوا مسالكه، عملاً بتعاليم الله سبحانه وتعالىٰ، ومنها هذا العجب العجاب من حيث أمر الله بالتسامح:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

ومنها: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفحَ الجَمِيلَ﴾(٢).

ومنها: ﴿وَأَنْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٣).

ومنها: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾(٤).

ومنها: ﴿ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٥).

ومنها: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ... وَيَدْرَأُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٦).

ومنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. يُثَبِّتُ ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سورة الجاثية، الآية ١٤.
(٢) سورة الحجر، الآية ٨٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٤) سورة المائدة، الآية ٣٢.
(٥) سورة فصلت، الآية ٣٤ ـ ٣٥.
(٦) سورة الرعد، الآية ٢٢.

بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَونَهَا وَبِئْسَ القَرَارِ﴾(١).

ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(٢).

ومنها: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣).

ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾(٤).

ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ أَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(٥).

إلى آخر ما هنالك من تعاليم، تطهر القلوب من رواسب الشرك، والنفوس من الحيرة والشبهات، والظن بأن النفع والضرّ بأيدي المخلوقين، والواقع أنه حتى محمد ﷺ أمره ربه سبحانه أن يقول للناس:

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً﴾(٦).

فكيف بمن هم دون محمد ﷺ منزلة عند الله، أو بمنزلة محمد ﷺ، فإنهم قطعاً كما قال الله سبحانه لا يملكون للناس ضرّاً ولا رشداً.

بلى إن هذه التعاليم القرآنية، تغسل القلوب من الرين، وتزيل العتمة

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٤ ـ ٢٩.
(٢) سورة الحجرات، الآية ٦.
(٣) سورة الحجرات، الآية ١٠.
(٤) سورة الحجرات، الآية ١١.
(٥) سورة الحجرات، الآية ١٢.
(٦) سورة الجن، الآية ٢١.

من النفوس المظلمة التي تعشعش فيها شياطين الحقد والعصبية والغرور والأنانية، والقناعة بوجوب إلغاء الآخر المنافس، والحسد، وبقية فروع الشجرة الشيطانية، ولعل أبرزها أن يعتقد شخص أو مجموعة، أو حزب أو تنظيم أنهم هم وحدهم يسندون أعمدة السماء، ولولاهم لوقعت على الأرض، وأنهم هم وحدهم يدبّرون أمر الأمة ولولاهم لذهبت الأمة إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم. ويقرأون كتاب الله العزيز، ويتلون فيه الآية الكريمة:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1].

ولا يفهمون. . .

وخاصة قوله فيها سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، وكذلك قوله تعالىٰ في مكان آخر:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[2].

ولا يفهمون. . . أن الأمر في جوهره هو أمر الله من قبل ومن بعد، وأن الله بالغه عاجلاً أو آجلاً، وهو الأعلم به، وقد قدّر الأمور تقديراً أدق ممّا قد يظنون أو يحلمون، وهو أسرع الحاسبين، ولا يفهمون قبل كل ذلك، في هذه الآية وفي كثير غيرها، أن من معاني التوكّل، الثقة بالله وحده، وليس الاعتماد على شخص بعينه أو دولة بعينها، أو شعب بعينه، أو أية قوة من مراكز القوىٰ الظنيّة في الأرض أو في السماء من دون الله العزيز الحكيم ذي القوة والجبروت، فإن القوة لله جميعاً وإن العزّة لله جميعاً.

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية ٣.

فمن أعزّه الله، فهو العزيز، ومن أذلّه الله، فهو الذليل، وقد ينخدع بذلك ذو ضلالة، إذا ظهر ظهوراً مؤقتاً، بقوة سياسية، أو مالية، أو عسكرية، فيحسب أنه هو العزيز الكريم، في وقت قد يكون فيه، ممّن مدّ لهم الله عزّ وجلّ في الضلالة، أو ممّن قال سبحانه فيهم:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾[1].

فيكون في جملة من أخبر عنهم سبحانه في سورة الدخان:

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ . . . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ . ثم صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ ـ ذُقْ أَنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[2].

تقولها الملائكة تهكماً واحتقاراً للمتجبرين المتكبرين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٥.

(٢) سورة الدخان، الآية ٤٣ ـ ٤٩.

﴿الَّـذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـالاَتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَـهُ وَلاَ يَخْشَـوْنَ أَحَـدَاً إِلاَّ ٱللَّهَ وَكَفَى بِٱللَّهِ حَسِيبَا﴾. (٣٩: الأحزاب).

(٩)
بين يدي القيامتين
رسالة
الى قادة الشرق والغرب ومن بينهما

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الى قادة الغرب والشرق ومن بينهما

بسم الله وبالله، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى[1].

حضراتُ القادةِ والسادةِ ـ طبعاً بما فيهم العلماء ـ الغربيين والشرقيين، وأشياعهم.

السلام على من اتبع الهدى، وبعد،

تقرّباً إلى الله تعالىٰ، وبداعي الأخوة الإنسانية، والإشفاق وأن نحب لكم ما نحب لأنفسنا عملاً بوصية نبينا محمد ﷺ، أدعوكم إلى الله ـ كما أمرنا سبحانه ـ بالحكمة والموعظة الحسنة، لعلكم تهتدون، فنسعد وإياكم بعفوه وغفرانه، وننعم وإياكم برحمته الغامرة في الدارين.

ولذلك بلغة النذير المشفق، أخاطبكم، قبيل وقوع الحرب العامة الآتية، رغم اتفاقات السلام الظاهرية، لأنها القيامة الصغرى ـ نتاج أيديكم ـ على كوكبنا هذا الملغّم بما تعلمون، وبعدها ـ لمن يبقى ـ قبيل قيام الساعة على مستوى الكون، القيامة الكبرى، التي بدأت أشراطها ـ المرسومة عندنا في كتاب الله والواقعة عملياً تحت أبصاركم ولكنكم لا تعلمون أنها أشراط الساعة ـ تظهر بقوة مرعبة، يواكب بعضها بعضاً.

---

(١) سورة النمل، الآية ٥٩.

ولأنه بقي لدينا بعض الوقت للدعوة إلى الله سبحانه، وبهدوء، قبل بدء الارتجاجات تحت سمائنا الدنيا، فنؤجل الآن ـ موضوع أشراط الساعة وتبعاً لها ترادف القيامتين ـ إلى فصل بعد هذه الرسالة حيث نفرد له باباً مستقلاً لأهميته القصوى.

فاستفادة من الحالة العالمية الراهنة، والتي ما زال ممكناً معها، التفكير المسؤول، والتأمّل، ومحاسبة النفس، بادروا إلى تقوى الله، وحاولوا مخلصين فهم الإسلام الحقيقي، ولو بخطوطه العريضة، وهذا أمر يسير لمن آمن بالله بعمق وصفاء، فالإسلام الحقيقي بسيط، غير معقّد، فضلاً عن أن الله عزّ وجلّ يوجب عليكم وجوباً قطعيّاً أن تدينوا به، إذ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾[1] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2] هذا أمر الله وقضاؤه. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُبْطِلُونَ﴾[3].

بادروا لأعمال العقل، لا النفس الأمّارة، بادروا قبل التورط، والحساب، والعذاب الذي لا تنفع معه الندامة.

فيا أهل المغرب ويا أهل المشرق، الله عزّ وجلّ هو الذي شاء وقدّر، وقضى فأبرم لمحمد ﷺ، كما شاء وقدّر وقضى فأبرم لموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، فأين تذهبون.

فانتهزوا الفرصة، وتأمّلوا ملياً في (العقل الإسلامي وعلم الفلك) حيث سنقدم لكم عنهما في هذه الرسالة، عجالة، لعلكم تعتبرون، ولعلكم تفقهون أن السبق الظاهري الذي اغتررتم به، إنما هو سبق السلحفاة للبراق، إذ إن أعظم علمائكم اليوم في علم الفلك، مع أضخم مراصدكم وسفنكم الفضائية، ما توصل من الكشف إلى بعض بعض ما يتوصل إليه

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٥.
(٣) سورة غافر، الآية ٧٨.

عبد من عباد الله الصالحين وهو قائم في مناجاة، أو ساجد في مصلاه لله ربّ العالمين. والعاقبة للتقوى. وَأَمَامَنَا الحصاد:.

. . . ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾(١).

قد يغضب من هذا الكلام، من حيث لا تغضبون، أتباع لكم تتلمذوا عليكم من قريب أو بعيد، وكانوا مسلمين، ولكن لما غشيهم موج حضارتكم الزنديقة بهر منهم القلوب والأدمغة والأبصار فارتدوا عن إسلامهم، دين العقل، دين التوحيد، ليدخلوا في شرك الآلة ومادية الآلة وأرباب الآلة، مكذبين بالآيات البينات، مرعوبين من الموعظة، فرحين بما عندكم، وربما عندهم من لعب العلم وأقول (لعب) قياساً على أسرار وأبعاد السموات والأرض، هؤلاء أيضاً تحملون من أوزارهم وبالنتيجة معكم يحشرون.

في وقت كان لزاماً على من ابتلاهم الله بالكشوف العلمية أن يزدادوا إيماناً وصلاحاً، وإصلاحاً وعدلاً، ورأفة بالشعوب ورحمة بالناس وتقرّباً إلى الله لما يفتح عليهم من أسرار علمه ـ وقد أوجب على الناس طلبه ـ فيزيدهم علماً نافعاً ويسعدهم به، بدل أن يدمّر عليهم بعد أن عزموا هم على تدمير أنفسهم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

على أي حال بإخلاص الناصح، ورفق الأخ الإنسان، المنيب إلى ربّه تعالىٰ، أدعوكم لتأمّل هذه الآيات التي طالما أفزعت العقلاء المستنيرين، والتي تكشف ضآلة الذين يفرحون بما عندهم من العلم، مستهزئين بكل بشير ونذير، شرقياً كان أم غربياً، فتضعهم هذه الآيات ـ إذا

(١) سورة الرحمن، الآية ٣٥.
(٢) سورة النحل، الآية ٣٣.

أصرّوا على عتوهم ـ في مهب الحسرات، ولات ساعة مندم، بعد دمار الحضارة وأهلها: قال تعالىٰ:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(١).

وقال عزّ شأنه:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾(٢).

ألا، وإن بأس الله لآتٍ، فهل تنتظرون انتظار العاجز عن اتخاذ القرار حتى يدهمكم بأس الله غاضباً مدمراً في خسف وقصف وأعاصير وزلازل وطوفانات أو قيامة، أو غير ذلك من الآيات، ومقدمات كل ذلك في عصرنا هذا، هي للمستنيرين أظهر من الشمس في رائعة النهار، اقرؤوا الآية التالية وأنظروا، ثم خذوا طريق الحق الذي هو الخير والذي هو الجمال. قبل أن يتحقق شيء من هذه الآية، قوله تعالىٰ:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾(٣).

* * *

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٢٨.

(٢) سورة غافر، الآية ٨٢ ـ ٨٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥٨.

والآن، بعد هذه المقدمة، نبدأ بعرض ما وعدنا به آنفاً، بخصوص لمعات عن القرآن الكريم والذي أنزل عليه القرآن ﷺ وعن الفلك. حيث سيكون تركيزنا إن شاء الله على ما نعتقد أن فيه الفائدة للمجتمع الإنساني كله، إذا أعمل قادته عقولهم وأخذوا بحكم الله وبما أنزل الله، ناظرين بتجرد وموضوعية، إلى بحوثنا الآتية ضمن هذا الكتاب نظر المؤتمن على أغلى أمانة حملها الإنسان: نفسِهِ وشرفِهِ، وشرفِ الإنسانية، وباختصار دينِ الله القيم الذي أشار إليه سبحانه بقوله تعالىٰ:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

وقوله تعالىٰ مخاطباً رسولَه محمداً ﷺ والبشرية كلَّها مع رسوله محمد ﷺ، ليعقلوا ما شرع لهم من الدين، وليعقلوا حقيقة الإسلام. الإسلام الذي كان منذ آدم، شرائع متناسبة مع كل عصر من العصور السالفة: فكمّل نوح ما كان قبله، وما نقضه، وجاء إبراهيم شيعةً لنوح، مكملاً ما جاء به وما نقضه، وكمل موسىٰ ما كان قبله، وما نقضه، وكمل عيسىٰ ما جاء به موسىٰ، وما نقضه، إلى أن جاء محمدُ ﷺ خاتَماً للنبيين عليه وعليهم أزكى الصلاة والسلام، مكمِلاً بوحي الله ما أتى به الرسل من قبله، وإنما جعل الله الشريعة التي أرسله بها نظام دولة مؤمنة تقية ثريَّةٍ عادلة، دولة واحدة موحِّدة، يحكمها الله الواحد الأحد بتعاليمه، وما ناسها إلاَّ منفذون. وذلك منهاج عمل عقلي ونفسي ومادي، ملزِم، منقذ للبشرية إلى قيام الساعة، أفراداً ومجتمعات، وذلك لقصر الزمان الواقع بين بعثة محمد الميمونة، وبين القيامة الكبرى، التي في أيامنا هذه، تطل أشراطها برؤوسها بين بر وبحار وأنهار، ودرع غيوم حرارية تلف الأرض وتعقد لها

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

المؤتمرات، ناهيك عمّا في الفلك من مفاجآت داخت حيالها المراصد، فكيف يكون حال الراصدين. أما الآية التي عنيت فهي قوله سبحانه مخاطباً رسوله محمداً ﷺ:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إليهِ آللَّهُ يَجْتَبِي إليهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إليهِ مَنْ يُنِيبُ. وَمَا تَفَرَّقُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِمَا جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَأَنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[1].

* * *

(١) سورة الشورى، الآية ١٣ ـ ١٤.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]. (قرآن كريم).

من أين القرآن؟

* وقفة قصيرة مع الكمبيوتر.
* هل في القرآن أسرار حسابية؟

إذا ثبت أن القرآن منزل من عند الله سبحانه ـ وهو لا يمكن إلاّ أن يكون كذلك كما سنرى ـ فسيكون أعظمَ حجة على أهل الأرض منذ تنزيله.

فالمطلوب في هذه العجالة، إثبات أنه من لدن رب العالمين.

معلوم أن وجوه الإعجاز في القرآن كثيرة وكثيرة جداً، منها ما هو باطني ومنه الإعجاز التركيبي المولّد للطاقة الفاعلة، وبه تحدّى الله الأنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله. ومنها ما هو رقمي معقّد يعتمد البسملة الرقم (١٩) قاسماً مشتركاً لما يسمّى بالأحرف النورانية، وهي الأحرف الموجودة في مفاتيح السور، مثل كهيعص وحمعسق وغيرها. وهو اكتشاف مدهش، كشف عن سرّ واحد من الأسرار الكثيرة العجيبة لهذه المفاتيح النورانية، التي هي بمثابة (الشيفرة) بين الله عزّ وجلّ وبين أهل الزلفى من عباده.

وقد قام بإزاحة الستار عن سرّها الحسابي، الدكتور ـ رشاد خليفة المصري، أثناء وجوده في الأمم المتحدة مندوباً من حكومته. ولما كان قد

---

(١) سورة محمد، الآية ٢٤.

عزم على ترجمة القرآن المجيد إلى اللغة الانكليزية، بادئاً بسورة البقرة، كان لا بدّ من وقفة طويلة محيّرة أمام «بسم الله الرحمن الرحيم ألم» ما هو معناها؟ وماذا يقول لقراء الانكليزية في ترجمتها؟

وبتكرارها. . . فتح الله عليه، وَألجأه إلى العقل الإلكتروني، وقد آن أوانه لعرض هذا التحدّي الجديد، في بناء القرآن، إضافة للتحدّيات السابقة، في ظاهره وباطنه، وتفسيزه وتأويله، وجَرْسِهِ وبيانِهِ، وعجيب كنوزه وأسراره.

*** الأحرف النورانية (شيفرة يفتح الله ببعضها على أوليائه أبواب السموات والأرض.**
*** الأحرف النورانية من الأسرار المطلسمة، ما حاولها طامع معاند إلاَّ لفح أو هوى أو احترق.**
*** بسببها وبغيره اتهم رسول الله ﷺ أن به جُنَّة.**
*** لا عرافة ولا كهانة في فداء عبد الله والد رسول الله ﷺ.**

لقد كانت هذه المفاتيح أو الأحرف النورانية التي لا معنى لها في الظاهر، من الأمور المهمة جداً التي امتحن بها الله الإنس والجن، فالذين انخلعوا من الدنيا، ونذروا أنفسهم بدون شرك ظاهر أو خفي لرب السموات والأرض رب العرش العظيم. الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، أعطاهم هيبة هذه (الشيفرة) فخشعوا وخضعوا له وأخذوا بمزيد من التقوى، وقد أكرمهم الله تعالىٰ فأسماهم الراسخين في العلم، لما ذكرناه في بحث سابق(*)، ولخشيتهم من كشف أسرارها بدون إذن أو مؤشر، وهو قال سبحانه:

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِرَّ وَأَخْفَى﴾(١).

(١) سورة طه، الآية ٧.

(*) كتاب (الحكمة الإسلامية ـ بحوث من مقتضيات العصر).

ومدحهم بقوله تبارك وتعالىٰ:

. . . ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾[١].

وبنسبة درجاتهم في مفهوم التوحيد أفاض عليهم أسرار هذه المفاتيح، أو من أسرارها، في مجالات تطهير النفس وتقرّبها من بارئها، أو في دفع الأذى عن النفس وعن المؤمنين، بشرط كتمانها، حيث إن النفوس العادية وما دون العادية غير مؤهلة لها، على أن فاعليتها وآثارها العجيبة وإن كانت تخصُّ أهل العرفان:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾[٢]. إلَّا أنها تنفع وتعمُّ جميع المؤمنين.

أما أهل الشرك في زمن محمد ﷺ فقد زعم فريق منهم أنه رجل به جِنَّةٌ قياساً من جهة على ما كان سائداً في أيامهم من العرافة والكهانة، اللتين تعتمدان الجن، ومن جهة لزعمهم أن الحروف المقطعة، ربما كانت من لغة الجن وكلامهم، لا سيّما وأنهم كانوا يعتبرون الجن خلقاً أعقل وأقوى من الإنسان، وأنهم يعلمون غيب السموات والأرض، لذلك كان بعض الناس آنذاك يلجأون إلى الجن يسألونهم عن الغيب، فكانت شياطينهم تكذب على الناس، بما لم ينزل الله به من سلطان.

أما حكاية شق وسطيح وأوصافهما وأخبارهما فمطعون بها ومعتبرة من جملة الأساطير.

وأما قضية عبد المطلب وولده عبد الله والد رسول الله ﷺ وأنه لجأ إلى امرأة قيل إنها عرافة تستعين بالجن، فهذا الأمر أيضاً تجنّى فيه بعض المؤرخين على الحقيقة، والواقع أن هذه المرأة اشتهرت بتقواها وبالحصافة والحكمة، وكان يقصدها الناس لشهرتها، فكانت تشير عليهم بالرأي

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

(٢) سورة الحج، الآية ٦٧.

السديد، والسلوك الرشيد. وعندما منع العرب عبد المطلب من ذبح إبنه عبد الله وفاء لنذره، قصدها مع رهط من قومه ليرى رأيها في هذا الأمر الخطير، وكان لله سبحانه شأن عظيم، حيث شاء أن يكون صفوة الله في خلقه محمد ﷺ إبناً للذبيحين: إسماعيل الذي فداه الله بكبش عظيم، وعبد الله الذي فداه عزّ وجلّ بمائة ناقة، وقد أوحى سبحانه إلى تلك المرأة، كما أوحى من قبل إلى أم موسىٰ عليه السلام. وذلك لأن الأمر يتعلق برجل في صلبه أعظم رجل في تاريخ البشرية محمد رسول الله وخاتم النبيين، وقد جعل الله هذه المقدمات، إعزازاً وتكريماً له ولبيته الكريم، بسبب دورهم الجهادي التاريخي العظيم.

فسألت المرأة القوم: كم فدية الرجل عندكم؟ فقالوا: عشر نياق، فقالت، ضعوا عبد الله في جانب، وضعوا في جانب آخر عشر نياق، ثم أرسلوا القداح، فإذا اختارت عبد الله فزيدوا عشراً، وهكذا حتى تتحول القداح عن عبد الله. وتمّت مشيئة الله، إذ ظلّت القداح تختار عبد الله عشر مرات، في كل مرة تزاد معها الإبل عشراً، وعندما أصبح عدد الإبل مائة، تحولت القداح إلى الإبل، وهو فداء ما عرفه تاريخ العرب، تحدّث به القوم طويلاً في أنديتهم، وتحدّثت به الركبان، وتحدّثت به الأجيال وما زالت. وما أروع عبد المطلب، وما أصدق إيمانه وما أعمقه، حيث إنه أصرّ على إرسال القداح، بعد ذلك ثلاث مرات تباعاً وفي جميعها تقع القداح على النياق، وعندها تنفّس الصعداء لا حرصاً على عاطفته ولا حرصاً على ولده، ولا حرصاً على مشاعر العرب، وإنما حرصاً على رضى الله عزّ شأنه، ربّه وربّ عبد الله، وربّ العرب والعجم، ربّ العالمين، وهكذا أصبح على يقين لا يعتوره أدنى شك أن الأمر كله، إنما هو بتدبير من الله سبحانه وبعنايته ورحمته، وأنه سبحانه ابتلاه فنجح في الإبتلاء فجزاه خير الجزاء.

أعلى يد امرأة؟! هي كلمته سبحانه يجريها على يد من يشاء من عباده، رجلاً كان أم امرأة، ولشدّ ما يجرح مفهوم التوحيد والفكر الإسلامي

فيما بعد، أن ينسب ذلك إلى الكهانة أو العرافة أو الجن. إنما هي الحنيفية، حنيفية إبراهيم، التي كان ما زال عبد المطلب محافظاً حريصاً عليها، وهو الذي يعرف بيقينية عظيمة، أن الله وحده تبارك وتعالىٰ هو الذي هيّأ له ولإبنه من أمرهما فرجاً ومخرجاً. وكلمته لأبرهة الأشرم الذي قاد جيشاً لهدم الكعبة، ما زالت تدوي في سمع البشرية: (أما الشياه فأنا ربّها وللبيت ربّ يحيمه).

وصدق عبد المطلب إذ حمى رب البيت بيته، واللائذين ببيته، ومزّق أبرهة وجيشه شرّ ممزق. فلو كان عبد المطلب يؤمن بالعرافة وبأن الجن تأتي بالغيب، لكان لجأ للعرافة وللجن ليدفعا عن البيت العتيق الذي يتولّى هو سدانته.

وأما الأواخر، وخاصة في قرننا هذا العشرين، فهم أيضاً، وفي سياق ما اتهموا به جميع الأنبياء، ومبدأ النبوة أصلاً، فقد اتهموا محمداً ﷺ بحالة من الجنون، ولكن بصياغات وعبارات مستحدثة، أبرزها أن ما تركه هو حالة من الهذيان، هي من نتاج العقل الباطن، مع تأكيدهم أن صاحب هكذا حالة، يكون حديثه فوضى لا يقرّه عقل ولا علم ولا منطق، وحيث إنهم لم يجدوا ثغرة لينفذوا منها سواء في شخصية محمد ﷺ أو في القرآن الكريم، فقد تمسكوا بهذه الأحرف المقطعة، واعتبروها مصداقاً لنظريتهم واتهامهم، إذ إنها لا تعني لأحد شيئاً، متوقفين عندها، متعامين عن البناء الشامخ للقرآن العظيم، كمن لا يرى من الكعبة إلَّا مزرابها الذي من ذهب، ثم يقف عند ظاهر بريقه، ناسياً حقيقة معدنه فضلاً عن سرّ الرحمة الذي فيه.

وأصحاب هذا الزعم، هم من الغربيين خاصة، الذين اشتغلوا بعلم النفس وبعض أتباعهم من المسلمين، الذين، وبدون أدنى مسؤولية في حمل أمانة العقل والخلق والبحث العلمي، اطرحوا القرآن، ولم يكلفوا أنفسهم في حالات كثيرة حتى مجرد قراءته، في وقت يجهدون فيه

أبصارهم وأعصابهم وكواهلهم، بقراءة أحمال من الكتب، فقط لأنها مكتوبة بلغة المتفوقين في حقل الحضارة الآلية، أو مترجمة عنها. ولو كان أكثر هذه الكتب محشوّاً بالضلالات والبدع المهلكات، ولو كان في جملة الحضارة آلة دمارها وهدمها على نفسها.

وصحيح أن الثقافة العالية والتوسّع فيها مطلب رئيسي، وهو عندنا واجب ديني، ينبغي الحثّ عليه واعتباره في جملة العبادات، إلاّ أن شرطه أن يكون بالعقل المستنير، وليس بالنفس التابعة والعينين الضيقتين. والمؤسف جداً أن هؤلاء الأتباع، أهملوا حتى العين الضيقة واستناموا إلى طريقة التلقين: أسيادهم، في فوضاهم الفكرية يقولون ويكتبون، وهم يردّدون وينسخون.

وهذا هدر لكرامة الإنسان ونعمة العقل، والعقل والكرامة، يعاقب الله سبحانه على التفريط بهما، فساداً وإفساداً، وضلالاً وإضلالاً، ويعذب على ذلك في الدنيا والآخرة.

بلى لِعِلْم ما في الذرة والمجرّة وما بينهما، وعِلْمِ ما كان أدق وأعظم، بَلَى لِفُتُوحات العلم في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق، بلى للفكر المقارن والثقافات المقارنة النافعة المؤدية إلى رضى الله ورضوانه، بل للتفاعل وتلقيح جميع معطيات الإنسان بالأفضل والأحسن حسب مقاييس الشريعة الإلهية، أخذاً وعطاء، وتمثلاً للنافع، وتجنباً للضار، وتحذيراً من الخطر. وبالنتيجة فإن الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أين يجدها، كما جاء في الحديث الشريف.

ولكن لا لمصنفي الكتب التي بلا موازين ولا معايير ولا تستند إلى علم ولا كتاب مبين، ومكدسي الأوراق تحت عنوان أنهم من أهل الفكر، ولا يفكرون، إنتاج على طريقة الآلة بدون إعْمال عقل ورويّة ولا مسؤولية أمام الله فأين يذهبون والله يقول:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[١].

لا لتجار الفكر، والمرابين بالكلمة الماكرة، وأثوابها المستعارة، الذين يخونون الله ورسوله ويخونون أماناتهم زحفاً وراء مال أو شهرة أو كليهما مجتمعين.

ويا ويلهم يوم يطالبهم الله بقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

وأخيراً وليس آخراً، لا للمقلدين على طريقة القرد والإسكافي الذي سنّ السكين ومرّرها على عنقه فقلّده القرد، فذبح نفسه، إلاَّ أن مقلدي أهل الباطل والفكر الباطل، إضافة إلى أنفسهم، أدموا الإنسانية وتهجموا على رسالة السماء التي هي الإسلام والذي هو سفينة نجاة البشرية وما زالوا يحاولونه طعناً وتجريحاً، ولولا أن الله بعزّته سبحانه وعد بنصرته وإظهاره على الدين كله إلى قيام الساعة لكان في ذبائحهم منذ زمن طويل. قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٣].

ومن هو الخاسر ومن الرابح، آنياً ومستقبلاً، على كوكبنا هذا، وغداً بعد الموت والإنبعاث عليه وعلى غيره من الكواكب، التي يقول العلم إن منها الرائع جمالاً ولطافة مناخ، وهناءة جاذبية يستطيع الإنسان معها الطيران، ومنها الموحش المفزع، حيث تصل درجة الجذب إلى ثقل مرهق، بالكاد يستطيع الإنسان معها قلع قدميه من الأرض، وتصل درجة

---

(١) سورة القلم، الآية ٤٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٧.
(٣) سورة التوبة، الآية ٣٣.

الحرارة إلى درجة غليان الماء كما في الزهرة، وذوبان الحديد كما في عطارد، وهذه الأمثلة ليست للحصر والتحديد، وإنما لالأخذ فكرة أولية، عن حكاية الخلود في نعيم أو الخلود في جحيم.

تقدم بلا غاية:

الحقيقة أن كثيراً من الناس، من الذين يدهشهم التقدم العلمي في الكون وفي ذات الإنسان، نراهم يتعاملون مع هذه المدهشات، بدون غاية، يرتبطون بها ويبذلون الجهود للحصول عليها أو الوصول إليها. ونجد أنهم مثلاً يعتقدون بإمكان أن يغزوا الكون، ويسكنوا الفلك، اعتماداً على التقنية العلمية.

صحيح أنه حلم جميل، وصحيح أن العلم ما زال يراود الفضاء، وأن بالإمكان الوصول إلى غير القمر. ولكن تبقى الحقيقة التي تنغص هذا الحلم، وتدعو الإنسان لأن يحترم نفسه ويكون أكثر واقعية، وأبعد عمقاً. إذ أن الملايين ماتوا قبل هذا الإمكان ـ الحلم، وسيموت ملايين مثلهم بعد هذا الإمكان، إذا أمكن هذا الإمكان، لأنه سيكون وقفاً ـ أقلّه حتى نهاية العام ألفين ـ على رواد الفضاء وحفنة من أثرياء العالم. فما هي الحصيلة الدنيوية والأخروية، للذين ماتوا قبل هذا الوصول، والذين سيموتون بعد هذا الوصول؟ أم هي مباهاة القرعاء بشعر بنت الخالة، أو افتخار الأعمى بزرقاء اليمامة؟

فهلا سألوا عن أدوارهم ومسؤولياتهم في الحياة الدنيا هذه، أيرضون بالتبعية للقوي يأكلون من فتات خبزه؟ أم يبحثون عن السبل التي تجعلهم أقوى منه، وصولاً إلى الغاية التي هو شذّ عنها وانحرف على متن صاروخ أو مركبة فضائية، على حساب شعوب مقهورة، وملايين البطون الغرثى والأفواه الفاغرة، جوعاً وعجباً ونصباً:

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا

كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[١].

فما شفعت لهم حضارة، قيل فيها، كحضارة (أطلس)، أنها كانت أعظم من حضارتنا اليوم، ولا شفعت لهم قوّة، ناهيك عن إغراقهم في المعاصي والذنوب. فبأية قوة يقون أنفسهم ويدفعون عنها عذاب الله، وقد قضى أن ينزل بهم عذابه وغضبه سبحانه وتعالى عمّا يشركون. واليوم كالأمس، والأمس كسابقه.

أُمَمٌ تتحول إلى قراصنة ودين التوحيد ممنوع:

نعم، ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ صدق الله العظيم.

طغى الإنسان في ميزان الحضارة والله عزّت قدرته يقول له:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي المِيْزَانِ. وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾[٢].

وهو يعمل كذلك على مسخ الأرض، ففي المدن الكبرى من أوروبا إلى أميركا إلى الصين إلى اليابان، تضيّق أنفاس الناس لتناقص الأكسجين في الهواء وتزايد ثاني أكسيد الكربون فمن هذه الزاوية فقط يسيرون باتجاه الكارثة، فكيف سيكون الحال مع بقية الزوايا الفتاكة والأسباب المدمرة؟

أما السبب الأساسي في الوجه القبيح للحضارة، هو نسيان أن الحضارة بإيجابياتها وجمالياتها، هي من نعم الله وعطاءاته ورحمته:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٣].

والله يبشّر الشاكرين، بالزيادة من فضله وينذر بالعذاب الشديد الذين يكفرون بنعمه، يعني لا يشكرون الله عليها لا قولاً ولا عملاً، قوله تعالىٰ:

(١) سورة غافر، الآية ٢١.

(٢) سورة الرحمن، الآية ٨ ـ ١٠.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[١].

والعذاب يضرب به أو يصيب به قرى ومدناً وأمماً، وأفراداً وجماعات بين خسف وقصف، وحروب وفتن، وبلاءات وأمراض، وخوف ومجاعات:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٢].

ونسيان كون النعم من لدن الله، كفر بالنعم، ونسيان ذلك مدعاة لعدم شكر الله عليها. والشكر إنما يكون قولاً وعملاً، سداداً ورشاداً، وعدلاً واستقامة.

نعم السبب الرئيسي في قبح الحضارة، هو التحوّل عن عبادة الله وحده دون شريك، إلى عبادة الذات والولاء لمراكز القوىٰ في الناس، وتعلّق القلوب بمصادر النفع فيما خلق الله سبحانه، وهذا الولاء وهذا التعلّق فيهما شرك خفي وهما عبادة لغير الله. فالانصراف عن التوجّه التعبّدي لله وحده، دعاء واستغاثة وجهاداً وثقة وتوكّلاً، إنما ينتج عنه تفريغ الإنسان من الصفاء والعافية، والحدس المرهف الذي لا يستمر إلّا مع الإيمان المرهف.

وحيث إن التوحيد، توحيد الله، جلّت عظمته، هو فطرة وعهد في أعماق الإنسان، كل إنسان، فنستطيع أن نقول ببساطة، إن أهم الأسباب في غرق الإنسان في وحول الحضارة وقباحاتها، وخنق جمالياتها وأصالتها التي فيها السعادة، هو عدم التوحيد، وبعبارة أخرى هو فكر التوحيد المزعزع، نتيجة للتوجّه البهيمي بعيداً عن كمال الحقيقة الإنسانية، الذي لا يكون إلّا بالله ولله وفي سبيل الله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.
(٢) سورة النحل، الآية ١١٢.

من هنا الإنذار بالدَّمار، ومن هنا قرع الناقوس بخوف، ورفع الأذان بوجل.

إن التوحيد في خطر:

وبما أن توحيد الله سبحانه يدعو إلى وحدة المجتمع الإنساني تحت رايات العدل والمساواة والحرية، يرفدها الحق ويرفدها الخير، ويرفدها الجمال، وتلك هي أركان الشريعة الإلٓهية. فما دام التوحيد، هذا الأصل ـ الذي هو أصل الدين ـ في خطر، فإن أهل الأرض إذن جميعاً في خطر ـ إلاّ من رحم ربّك.

التوحيد في خطر؟ نعم، وقد أُلغِيَ من القارات الخمس، لولا بعض البقاع القليلة جداً، والضيقة جداً، حيث حوصر فيها وضيّق عليه، تحت وطأة القمع الشرس والملاحقة الموتورة والتعذيب وسفك الدماء، بقيادة حلف إسلامي ـ نصراني ـ يهودي ـ تحت شعار الديمقراطية.

إذن باسم الديمقراطية تشنّ بلا هوادة، الحرب على الإسلام الحقيقي، لأنه رسالة السماء التي فيها خلاص البشرية، لأنه دين الله.

فالتوحيد ممنوع، بموجب قرار دولي صادر عن هذا الحلف الشيطاني المثلث، الذي يمثل أعداء الله في القرن العشرين على هذا الكوكب:

دين الله ممنوع، إذن أعداء الله في خطر، يقيناً هم على حافة الهاوية. وإذا كانوا منعوا العدالة في الأرض، فليمنعوا عدالة السماء.

اللاأخلاقية... شعار حضاري عالميٌّ معلن:

إذا احتاج الإنسان إلى أي لون من ألوان العون أو المساعدة، فمن البديهي أن يحكم العقل باللجوء إلى الأقوى يعني إلى المهيمن على مراكز القوىٰ، الذي هو الله سبحانه، تارة من الله إلى الأسباب، وتارة من الأسباب إلى الله، والأُولى أُولى وأرقى وأكثر عدلاً، وأعزّ وأزكى، وأشرف وأعلى، وأبلغ قرباً وأكثر حباً، أما مع الثانية فينبغي العمل ضبطاً وربطاً مع مراكز

القوىٰ ومتفرعاتها، على أساس أنها وسائل يُتَوَسَّلُ بها إليه سبحانه يَسَّرَهَا للعوام، الذين يرتاحون إلى الوسيلة والواسطة ما دامتا توصلان إلى الغاية، أما شرف الوصول إلى الغاية بدون وسيلة ولا واسطة، فليس للعوام، وإنما هو لمن يجتبيهم الله ويختصهم بعلمه وبفضله وبرحمته، على أن يتمَّ نشاط الفريقين، في ظلّ شريعته، وفي ظلّ كلمته، فإذا كانت كلمة الله هي العليا، استراح الناس وسعدوا بربّهم، وسعد الإنسان بأخيه الإنسان...

ولكن الشائع بين الأفراد، وبين الدول، في حضارة هذا العصر، هو التنافس الشديد، من أجل الوصول إلى أهل الحل والربط، من الساسة والعسكر، وأرباب المال، وطواغيت الثقافة التبنية، والتراث المكرور، المومياني، المحنط. ممّا يؤدّي إلى التنافر والتزاحم والحسد، من جانب، وإلى تكاثر النماذج المفرغة من المناقب والقيم والتجدّد النوراني، من جانب آخر.

وهكذا يبذل الوصوليون، على درج المادية، مالاً وعرقاً، وهدايا وتزلفاً، وجهوداً كبيرة ورياء، بين زحف وركوع وهدر كرامات.

والله يغضب من ذلك. وغضبه عقوبته.

فعلى صعيد الأفراد، من لو استطاع أن يكون مطية، أو حتى أسيراً عند حاكم، أو متسلط، أو نافذ من أكلة الجبنة، وحظي منه بحاجته، فذلك هو الذكي ذو العقل الكبير المفلح المنجح. ومن لم يستطع يتدرج على الهرم الحضاري، وكم تَدْمَى على هذا الهرم الأقدام والركب، للوصول إلى أهل (السرايات).

والله يسخط على ذلك. وسخطه عذابه.

وتبقى في صدور الطموحين على صعيد الدنيا، غصص لا تبرأ، إلاَّ عند جنرال، أو أيّ ضابط أو حتى شرطيّ. هذا في بلاد الأمان. أما في بلاد الفلتان، وانقلاب المقاييس وفوضى القيم، فعند زعيم الميليشيا

اللادينية واللاأخلاقية أو عنصرٍ من عناصره المسلحين، أو السفاحين. . . باسم الدين.

وباسم الدين قتلوا ونهبوا واعتدوا وروّعوا الشيخ والصبي والمرأة والطفل الرضيع، ولقد لفحتكم نارها يا قادة الغرب والشرق، أفلا تتّقون الله فيهم وفي شعوبهم المقهورة بديمقراطياتكم العجيبة. والعين الطماحة، أبداً على السدة، حيث منها «الشطار» يشمّون ويضمّون زهرة الحياة الدنيا. وهكذا ضحاياكم بين التآمر السياسي والخلق الحضاري الهجين.

والله يمقت كل ذلك.

لذلك القيامة الصغرى وأهوالها على الأبواب.

ولغة (الشطار) نجدها منطقاً مقبولاً جدّاً تحت راية العلمنة، أو الشعوب التي أعلنت استقلالها كليّاً أو جزئياً عن الله جلّت عظمته وعزّ شأنه، وعن رسالته التي تقرأ في الإذاعات كما يقرأ النشيد الوطني في لبنان أو في حيّ هارلم في الولايات المتحدة «والله أعلم حيث يضع رسالته».

ومعظم الناس مع هذا المنطق فريقان: الأول فريق اللادينيين، الذين تعاقدوا مع الدنيا ضد الآخرة، لمدة في العقد أقصاها مائة سنة، مع حسبان المفاجآت، من صدم وبتر وموت ومرض. . . يحتاطون لها بإحالتها على شركات التأمين.

والفريق الثاني هم الدهاة بين ملحد ومشرك ومنافق، ومنهم دينيو الثوب، حيث الجوهر يقرئكم السلام، تجار فجار، يتذرعون إلى صيدهم بالتواضع المصطنع والتمسكن والمداهنة:

﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1].

وقوله سبحانه كذلك فيهم:

---

(١) سورة النساء، آية ١٤٢.

﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[١].

أو هم من (الحواريين) الذين تلبسوا دور موسىٰ وهارون، ونسوا كفر فرعون وهامان. . . وشغفوا حبّاً بقارون. . .

وكل ذلك يتداخل على سبيل التفصيل، في اللاأخلاقية الدولية والعالمية التي نتحدث عنها.

وأمثلة على ما شوّه أهل الحضارة في الحضارة، تلك القيم التي هي ركائز الإنسانية، والتي هي كما أراد الله سبحانه، قواسم مشتركة، بين الشعوب على اختلاف الأجناس والملل، التي هي ثوابت في مفاهيم البشر، لا تؤثر في النظر إلى قيمتها الإيجابية، لا العصور، ولا مزاعم الجدلية التاريخية والصراع الطبقي.

وهذه الثوابت، مثل نصرة الضعفاء، ومكافحة الظلم، ونشدان الحرية، والعفة، والحكمة، والحشمة، والكرم والشجاعة في الحق، والحلم والتسامح، والدفاع المشروع. . . إلى آخر ما هنالك من أصول وفروع الأخلاق، التي بها يكون الإنسان إنساناً، والأمم أمماً.

أما إذا طغى فيها الإنسان سقط من إنسانيته، وإذا طغت فيها الأمم، تحوّلت إلى عصابات لصوصية وقرصنة، كما هو واقع الحال، والشواهد على ذلك ماثلة للعيان، مدوية في الآذان، تعبر عنها طرق التهديد والابتزاز الحقيرة السافلة، كما تنطق بها المدافع والقذائف واستعراضات الأساطيل في البحار والأجواء، والتي تزرع الحقد حتى في قلوب ملايين الأطفال، الذين يحلمون وهمّهم الأعظم أن يكبروا لينتقموا وهم سيشكلون في المستقبل القريب أكثر من ثلثي العالم، فكيف تفهمون الدين، وإن لم يكن

(١) سورة البقرة، الآية ٩.

لكم دين، فأنتم تزعمون الديمقراطية، فأيّة ديمقراطية تمارسونها، وإن لم يكن ديمقراطية، أفما بقية من أخلاق وحكمة وإنسانية؟، أية سياسة تنتهجونها يا قادة ويا سادة ويا أتباع.

وما رأيكم بإبادة هؤلاء الأطفال، يعني إبادة شعوبهم لتتخلصوا من هذه الورطة، وهذا مستحيل، لأن الله عزّ شأنه يحفظهم ويحميهم حيث قد جعل لهم شأناً لن يطول الزمان حتى يظهره:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أَنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[1].

وإن لم يكن خوف من الله المنتقم الجبار، أفما تخجلون من نسائكم؟ إن كنّ ما زلن يقدّرن أخلاق الفروسية ورجولة الرجال. وما رأيكن يا نساء العالم وفيكنّ رئيسات الوزارات ورئيسات الجمهوريات، وهل أطفالكم يا نساء العالم ويا قادة ويا سادة، أفضل من هؤلاء الأطفال الذين يرتجفون كفراخ العصافير إذا بلّلها المطر، يرتجفون من هداياكم إليهم، ومتى كان السم هدية، متى كانت الصواريخ والقذائف المحرقة المدمرة هدايا للأطفال تمزّقهم أو تروعهم يا نساء العالم، ويا رجال العالم، ويا قادة ويا سادة.

وانحراف الفرد وانحرافات الأمم عن دين الله، من مستدعيات غضبه جلّت عظمته، والعقوبات بين معجل ومؤجل، وكثيراً ما تكون العقوبات واقعة على إنسان ما، أو مجتمع ما، ولكن أكثر الناس بحكم تعاملهم بالمعادلات الزمنية والظاهرية، ولعدم حرصهم على الإيمان ومعرفة الله سبحانه وتقواه، تغيّب عنهم الحقائق التي في المعادلات الإلهية، والنتائج المترتبة عليها، والتي قد يكون فيها الخسف والقصف، أو الإغراق في الرفاه والنجاح الظاهري المؤقت، ولكنه الملغّم بأسباب الدمار والهلكة.

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

وهذا واقع الحال في حضارتنا حضارة القرن العشرين، في شتى بقاع الأرض، ولكل بقعة حساب، والله أسرع الحاسبين. /

(١٠)

بين القرآن والكتاب المقدّس

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا. . . فَأَمَّا الزَبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.

(١٧ : الرعد)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

(٧ ـ ١٠ : الشمس)

العقل... أم النفس الأمّارة؟

العقل يدرك الكمال. . . ويتكامل بخالقه.

في الواقع الموضوعي، إن تاريخ البشرية المعروف، بما فيه من إيمان وإلحاد، وفكر وفلسفات ونشاطات عقلية، ما ادّعى فيه إنسان كمال العقل بمعنى أنه ينتج الكمال. أما بمعنى أنه يدرك الكمال ويتلقاه، فمتفق عليه عند معظم الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة، سوى قلة من السفسطائيين لا يعتد بآرائهم. وصدق الله العظيم، قوله:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ قَلِيلاً﴾[1].

وقوله:

﴿وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً﴾[2].

وقوله:

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[3].

فإذن: هذا العقل يقبل الزيادة، وإذن فيه قابلية التكامل، ولكن كيف؟

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٢) سورة طه، الآية ١١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

والجواب: بالله... بما أوصل إليه من التنزيل مضموناً أن لا يحرف، وبعلم لدني بغير قلم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(١)].

وقوله تعالىٰ:

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[(٢)].

وبما يهدي إليه سبحانه من عرفانٍ مكتوبٍ:

﴿ن وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[(٣)].

وبما يظهره إليه من علمٍ مكنونٍ:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٤)].

وبما يكشف له ما يشاء من الأسرار:

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾[(٥)].

ثم إن هذا العقل يرى أن العلم ما استطاع أن يدحض ولو إشارة بسيطة واحدة من إشارات القرآن. وإن كل كشف علمي لا يتم إلاَّ بإذن الله تعالىٰ، سواء أتى هذا الكشف على يد مؤمن أو يد ملحد:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾[(٦)].

وإن القرآن أخبر عن حقائق وأسرار، كان يجهلها أهل الأرض وقت

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.
(٢) سورة الكهف، الآية ٦٥.
(٣) سورة القلم، الآية ١.
(٤) سورة العلق، الآية ٤ ـ ٥.
(٥) سورة الفرقان، الآية ٦.
(٦) سورة فصلت، الآية ٥٣.

نـزوله، ثم عـرفهم الله بعضها عمليـاً بعد أكثـر من عشرة قـرون من تنزيله. وإن القـرآن ما زال فيـه علم ما يجهله النـاس في هذا العصـر، رغم تقـدم العلوم، والمستقبل حقيق أن يكشف هذا الأمـر، كما عـودنا القـرآن المجيد في أيامنا هذه وفي العصور السالفة وحتى قيام الساعة.

والإنسـان المفكّر ينبغي أن يسـأل: من أين أتى القرآن بهـذه الأسـرار والمعلومات؟

والجواب أنه من الله الذي لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له.

هذا السؤال والإجابة عليه إذا عُقْلِنَ النـظر فيهما لعـرف الناس أن الله عـزّت قدرتـه هو وحـده وراء كـلِّ علمٍ حقيقيٍ وكشفٍ علميٍ في مشـارق الأرض ومغـاربها وفي الكـون كلّه، منذ خلق السمـوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما. هذا العرفان، يجب أن يغدو عامل خجل وإدانة قبل الدينونـة، لأصحاب الرأي الشائع بين معـظم المثقفين اليوم، حـول ما يسمّـونه سلبيـة الدين في التعامل مع الكشف العلمي، وهذا الرأي خلاصته أن التـديّن كان بشكل عام، عائقاً عن الاكتشافات العلميـة، وإنتاج العبـاقرة، ولـذلك بقيت المجتمعات المتدينة، تعاني من الفقر والتأخّـر والأمية العلميـة. فالحمـد لله على نعمـة التديّن، والحمـد لله الـذي اختصّنـا بمعـرفتـه ولم يشغلنـا بعلم سيكون عاراً وشناراً ودماراً على أصحابه في الدنيا والآخرة.

أمحراب العلوم. يتهم؟!

النفـوس الأميـة هي التي تتهم الإسـلام، أمـا المستنيـرون بـالله فهم مسلمـون. وتذاكـر الهويـة ليست مقيـاسـاً، بـل هي بـالنسبـة لأكثـر النـاس كالحامل حتفه بيده.

إن سـوء الاطّلاع، ليس فقط على مضمـون الإسلام، بـل حتى على تاريخه الظاهري، من جهة، ومن جهة ثانية، البطشات الرهيبة التي بـطشتها الكنيسة بعلماء أفـذاذ، هذان الأمـران متلازمـان، جعلا النفـوس الأميّة تتهم الدين عامة وضمنه الإسلام، بالقمعية ضدّ العلم والعلماء.

وفي صدد الردّ، نسأل القارىء الحصيف، هل علمت يوماً، منذ القرآن الكريم، أن أئمة الدين الإسلامي وعلماءهم (في مقابل البابوات) أقفلوا، باسم القرآن، أبواب البحث العلمي، كما فعلت الكنيسة، باسم التوراة والأناجيل؟ أو هل هم ردّوا حقيقة علمية بعد كشفها، في حين ـ وباسم التوراة والأناجيل ـ سمّت الكنيسة العلماء هراطقة، وكانت تحاكمهم بهذه التهمة، تهمة الهرطقة، في محاكم التفتيش التاريخية المخيفة.

الواقع أن أئمة المسلمين وعلماءهم، لم يفعلوا شيئاً من ذلك أبداً، لأن الإسلام في الحقيقة هو محراب العلوم، وأساسها المتين، وكيف يتنكر الأساس المتين للعمارة والأيدي التي تشارك في بنائها، مهما كانت أجناس هذه الأيدي أو خلفياتها.

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن حضارة أسّسها الإسلام على العلم، وظلّت منارة الدنيا لأكثر من سعبمائة سنة، كانت أوروبا أثناءها غارقة في الجهل والأميّة والتخلّف.

صحيح أن العالم، فجع بعلماء عظام ـ باسم الدّين ـ على يد الكنيسة، عبر فترة من الزمن، وأن الكنيسة كانت تنطلق في ردود فعلها من الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، يعني التوراة والأناجيل. والحقيقة أنها لا الكنيسة، ولا التوراة المجموعة مع الأناجيل، فيما يسمى (الكتاب المقدس) Bible، كانا يمثلان دين الله في هذه العصور تمثيلاً كاملاً وخالصاً لوجه الله تعالىٰ. بل كانت الكنيسة، وباعتراف المسيحيين المدوّن في كتب التاريخ، قد انحرفت انحرافاً خطيراً عن تعاليم المسيح عليه السلام، فضلاً عن أنها لم تكن عندها معطيات أن تناقش أية قضية علمية في ضوء النصوص الدينية، الموجودة لديها في القرون المتأخرة، لأن تلك النصوص لم تكن صالحة لتقويم أي موضوع علمي، بسبب ما مرَّ عليها من تحوّلات: بين فقد أصولها الأساسية من جهة، وبين نقل وترجمة وتحريف من جهة ثانية. وهذا يستحيل أن يقال شيء منه عن القرآن

الكريم، بشهادة جميع الباحثين العالميين، الذين تصدّوا لدراسة مقارنة بين الكتب الدينية الثلاث، ولا سيّما في مجال الحقائق العلمية التي توصّلت إليها الكشوف.

ولعل أبرز من تصدّى لهذا الموضوع في السبعينات والثمانينات، هو المفكر الفرنسي الدكتور موريس بوكاي.

ونحن إذ نهنىء هؤلاء الباحثين المنصفين ـ على قلتهم ـ بنتائج صدقهم وتجرّدهم ونبارك لهم الفتوحات العقلية التي فتحها الله لهم بسبب انتصارهم للحقّ وتصميمهم على انتهاج طرق العقل، بدلاً من التعصّب الأعمى والانفعال، ندعو المفكرين خاصةً، والمهتمين بقضايا الفكر عامةً، إلى قراءة ذلك الباحث موريس بوكاي، في كتابيه الصادرين تباعاً، الأول: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) الصادر سنة ١٩٧٦ م والثاني (الإنسان من أين جاء). حيث يعرض في هذين الكتابين، وبالبراهين العلمية والعقلية الحاسمة أن الكتاب الوحيد المنزّل من لدن الله تبارك وتعالىٰ، أو الذي يستحيل إلّا أن يكون من عند الله سبحانه، والذي لا يزال في الأرض على ثباته كما أنزل هو القرآن الكريم، وأن الكتاب المقدّس Bible بعهديه القديم والجديد، أي التوراة والأناجيل، حرّف وحوّر وبدّل وأنقص منه وزيد عليه، وأنه يتضمن مغالطات ضخمة من وجهة نظر العلوم.

ونحن هنا، وإبراءً للذمّة، نورد لموريس بوكاي بعض الفقرات، ممّا سيكون حجة على المفكرين والباحثين في جملة الحجج وما أكثرها: لماذا توصّل موريس بوكاي وأمثاله إلى الحق فارتاحوا وأراحوا، بينما بقي الآخرون مصرّين على العمى والضلالة، فتعبوا وأتعبوا معهم الذين لا يعقلون. . . إلى الأبد. . .

يقول موريس بوكاي:

«إننا عندما نقيم الدليل، وبالاستناد دائماً إلى النصوص، على أن القرآن يحتوي في طروحاته، حول نقاط معينة على أفكار تتطابق والعلوم

الحديثة، في حين أن الإنجيل يعالج نفس النقاط بطريقةٍ مغلوطةٍ علمياً».

«إن الفترة الأعظم من تاريخ الحضارة الإسلامية، والتي شهدت تقدّماً علمياً ضخماً، هي تالية وبقرون عديدة لعصر تنزيل القرآن».

ويقول في مكان آخر من بحثه؛

«كل هذه الملاحظات المثيرة لكلّ من يتناولها بتجرّد، والتي لم تثبت علمياً إلاَّ بعد قرون عديدة متأخرة، تضع حديثنا في إطار يمنح المسألة أبعاداً كبيرةً».

ولكن يبقى السؤال المطروح نفسه:

«ولكن ينبغي أن نعلم أن خاصيّة القرآن هذه، ليست نتيجةً لعمليات حذف خضع لها النص القرآني، في العصر الذي كانت تكتشف تلك الأخطاء... إذ أن المخطوطات الأكثر قدماً للقرآن، والنصوص المعاصرة، تتماثل بشكل قاطع، برغم مرور أكثر من ألف سنة، على تنزيل القرآن، وبالتالي لو كان محمد، هو مؤلف القرآن فعلاً ـ وهو الغرض الذي يأخذ به البعض ـ فكيف أمكنه أن يكتشف الأخطاء العلمية الواردة في الإنجيل حول مسائل كثيرة، وأن يتلافاها عندما وضع ـ حسب الغرض ـ نصاً يتناول نفس المسائل؟ علماً بأنه منذ كتابة الإنجيل، وحتى عصره، لم تتوضح أية حقيقة علمية جديدة، بحيث يمكنه على ضوئها، تلافي تلك الأخطاء».

«لقد رأينا سابقاً (أي في فصل سابق) أنه بالنسبة لمفسري الكتاب المقدس، ينبغي اعتبار كتب العهدين القديم والجديد (أي التوراة والإنجيل) على أنها كتبت بالإلهام».

وفي مكان أيضاً من كتابه:

«وهناك مخطوطات من القرن الأول للهجرة توثق النص المتداول الآن، ثمّة عنصر آخر للتوثيق، هو حفظ القرآن غيباً، وقد تواصل ذلك منذ عصر النبي».

«... وقد وجدت أجزاءً من القرآن، تعود للقرون الأولى للهجرة،

متشابهة تماماً للمخطوطات الأكثر قدماً. وكل الطبعات المعاصرة، ليست إلاّ استنساخاً للنماذج الأصلية. فالقرآن لم يخضع لعمليات كتابة متعددة يصبح معها نصّه عرضة للتحريف عبر الزمن. إذ لو كان مصدر القرآن مشابهاً للإنجيل، لكان من المتوقع، أن تستند الموضوعات التي يتطرق لها إلى مفاهيم، تعكس معتقدات عصر التنزيل، مع ما فبها من أساطير وخرافات مختلفة... وبالتالي فإن النص، سيكون ممتلئاً بالأقاويل الموروثة، ذات المنشأ الأسطوري غالباً. وهكذا فإن فرص إدخال أقوال مغلوطة في النص، ستصبح فرصاً مضاعفة، كما بخصوص الموضوعات المذكورة آنفاً... ولكن أي شيء من هذا لا نجد له أثراً في القرآن...»(*).

* * *

هذا، وإضافة إلى الدكتور بوكاي، فإن مجموعة من العلماء الغربيين، تصدّوا لموضوع عدم ثبات التوراة والأناجيل، وثبات القرآن وتطابقه المدهش، مع الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً. وقد كانت الغاية من دراساتهم تلك، هي البحث عن سبب انفجار الغرب في موجتين خطيرتين من الانفلات الهستيري، اجتاحتا أوروبا وأميركا في السبعينات، وهما موجتا الخنافس في بريطانيا، والهيبيين في الولايات المتّحدة الأميركية.

وتوفيراً لجهد القارىء وضعنا خلاصة لتلك الدراسات، مفادها أن الإنجيل والتوراة، كانا سبب خيبة أمل كبيرة للطلاب، وللشباب بشكل عام وجملة من المثقفين حيث إن الكتابين المقدسين، لم يصمدا للحقائق العلمية، ممّا شكّل سبباً مباشراً لعدم الثقة بهما، وبالتالي لمراودة الإلحاد، ومعه لتحولات نفسية خطيرة في المجتمعات الغربية نتيجة للصدمات التي من جرائها تزعزعت العقيدة الدينية في أعماقها، حيث أصبحوا ـ حسب

(*) (المنطلق) العدد ٢٠ ـ ١٤٠٢ هـ. تحت عنوان: القرآن لا يمكن إلاّ أن يكون وحياً. المؤلف: موريس بوكاي. ترجمة: حسين الحكيم.

تصريحاتهم ـ يشعرون أنهم بلا هدف، في خضمّ متلاطم من نشازات الحضارة المادية الحديثة.

وهكذا فلم يبق إلاَّ القرآن، هو الكتاب الوحيد في الأرض، المنزّل من لدن الله عزّ وجلّ، بواسطة جبرائيل عليه السلام، على محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيّين. وبقي القرآن ـ وهو باق إلى يوم القيامة ـ هو الحقيقة الراهنة، على أنه كلام الله تبارك وتعالىٰ وأنه الكتاب الوحيد في الأرض، الذي لم يطرأ عليه أي تغيير، أو تعديل، أو تبديل، منذ وجوده على هذا الكوكب. كذلك الحقائق العلمية التي فيه، هي باقية تتحدّى العلم والعلماء، وتساعدهم ضبطاً وتصحيحاً وإرشاداً.

* * *

النفس اللادينية سجينة:

جرى عندي حوار بين رجل دين وأستاذ للفلسفة، أُثبته إظهاراً لفضل الله على عبده الصالح الذي شعاره: نعم لكتاب الله ولا للفلسفة...

الشيخ: ـ نحن في سفينة الأرض، فلنقم بجولة في خضم هذه الحضارة، ونتحدث على المائدة، مائدة العقل، لأن مائدة الطعام، كلانا يأكل من طيباتها، فهي بنسبة عالية متاحة للجميع، مع فارق لا بدَّ منه، إن للدينيين ميزة، هي اجتنابهم المحرمات في سلوكهم عامة، لكي تبقى قلوبهم ونفوسهم صالحة للتلقي من أعلى.

الأستاذ؛ ـ وماذا تتلقى؟

الشيخ: ـ تتلقى الهداية والسعادة، والنعيم الخالد الموعود.

الأستاذ: ـ ولماذا لا تهبط هذه النعم على اللادينيين؟

الشيخ؛ ـ لأنهم يتناولون من أسفل.

نحن الدينيين، نأخذ ونعقل عن الله خالقنا وخالق هذا الكون ومسخّره لنا. ويجادلون في الله...

﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته... وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾(١).

ويحتجون بنظريات ما أنزل الله بها من سلطان. قال نيتشه... ويقول هيغل... ويقول ماركس... اسمحوا لنا، هؤلاء بشر مثلكم، ونفوسهم أمارة بالسوء. ثم إنه كان يصحّ الأخذ عنهم، لو أنهم تلقوا من أعلى، ولكن هؤلاء تناولوا من أسفل.

أنقلوا لنا عن مصدر كمال: عن الله جلّت عظمته... عن كتاب لا ريب فيه من كتبه... عن نبي ختمت به النبوات، وما كان إفرازاً للصراع الطبقي ولا الجدلية التاريخية... عن خلفائه الأئمة... وعمّن أوجب الله طاعتهم على الناس بعد أن نباهم أو اجتباهم، وعيّنهم في كتابه العزيز، بأسمائهم أو بأوصافهم... وأيضاً عن علماء الفلك والتشريح، والنفس وشتى حقول العلم الكاشف عن حقائق نهائية، ممّن أرادهم الله وجعلهم مصاديق لقوله عزّ وجلّ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾(٢).

يبقى الفارق بين العقل المقدس الذي هو نفخة من روح الله وبين النفس اللادينية من حيث النتائج، وبالتالي مصير الإنسان العقلاني والإنسان النفساني، ومصير التابعين لهذا أو لذاك. مستفيدين هذه المقارنة من قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى﴾(٣).

فحيث إن العقل مستنير بالله عزّ وجلّ، الذي هو نور السموات

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٣.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣. (٣) سورة الليل، الآية ٩.

والأرض، فقد غدت المصادر التي يتفاعل معها هذا العقل، جميعها إيجابية، وهذه المصادر: هي الطبيعة حوله مُدارَةً مُدَبَّرة بكل أبعادها ودقائقها بخالقها العظيم، ثم العقول... عقول الذين نبأهم الله أو اجتباهم وأوجبهم على خلقه، ثم العقل الذاتي الذي يعلم أنه نفحة من روح الله مسخّرٌ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه سبحانه، فواضح أن نتائج هذا التفاعل هي في سلم الإيجابية، على قاعدة (لكل ما قدمت يداه) مترتب عليها المصير الذاتي ومصير التابعين.

بينما تأخذ النفس اللادينية زادها، حصيلتها الفكرية، أدواتها، حاجياتها، وبالتالي غايتها من مصادر هي أوثانها شاءت أم أبت، حيث إن النية والاعتقاد والتصديق بالله العظيم وبدينه الحنيف، هما في رأس أولويات الاستنارة وبالتالي التوفيق للأسباب، وما تستتبع من صلاح بال وفلاح، أما اللادينية فهي تعاني من الانتكاس، والتخبّط، والتردّي على سلّم السلبية على نفس قاعدة لكل ما قدمت يداه، كذلك للذات والاتباع. فنتيجة لنيّتها وعدم تصديقها بالله أو بوعده أو بوعيده، تمسي الطبيعة عندها عمياء مجهولة المصير، ثم هي تأخذ بالاعتماد على نفوس الآخرين اللادينية بحكم التجانس، ممّا يزيد، بالضرورة، من نقصها الذاتي. وبموجب المنطق العام تكون النتجية: النقص والسلبية.

وممّا يدعو للأسف الشديد، هذه المفارقة: فبينما نحن ندّعي على النفس اللادينية في كثير من دعاوانا، بالعلم والكشوف العلمية، نجدها مصرّة على نفس الادعاء بالعلم والكشوف، والحضارة التي تركب هذه النفس سفينتها. فنجد أنفسنا، وبعاطفة الإنسان لأخيه الإنسان، مردّدين قول النبي إبراهيم عليه السلام، الذي أثبته له الله عزّ شأنه:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٦.

ونحن نسأل، ولكن هذه السفينة إلى أين في خضم هذه الحضارة؟ وما الساحل المقصود؟ وما الجزيرة المرجوّة؟ وهل العلم غاية أم وسيلة؟

الواقع أن العلم وسيلة لمعرفة الله عزّ شأنه وللوصول إلى الحقائق العليا والنهائية، وبالتالي سعادة الإنسان الكلية.

فهل حقّق العلم، بالمنظار اللاديني، شيئاً من هذا، أم أنه زاد الأمر تعقيداً؟ هذا في وقت زادت طمأنينة الدينيين مع الكشوف العلمية، إلى درجة اليقين بفرد وسهم الموعود، فضلاً عن سعادتهم النسبية على الأرض، والتي هي على أي حال، وبالتأكيد، وبالبينات القطعية أفضل بما لا يقاس من حالات اليأس، والتأزّم، والشقاء، التي يعانيها اللادينيون، ظاهراً وباطناً.

ويبقى السؤال: النفوس اللادينية إلى أين؟

رضيت أن تكون رهينة الأرض، ورهينة الحضارة، ورهينة السفين، وما استطاعت أن تستوحي شيئاً من علم الفلك، ولا علم التشريح، ولا علم العقل ولا علم النفس، ولا بقية العلوم. وليت المشكلة تنتهي هكذا، أن تلزم بما ترضى هي لنفسها. الحقيقة العلمية تقول: قطعاً، لا، لأنه ليس عبثاً وجود كواكب في الكون، هي أكبر من كوكبنا الأرض، فضلاً عن سماوات غير سمائنا، ولا عبثاً قول الله عزّ شأنه:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى. وَأَنَّ لَنَا لِلآخِرَةَ وَالأُولى، فَأَنْذَرْتُكُم نَاراً تَلَظَّى. لَا يَصْلاَهَا إِلَّا الأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى. وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[1].

---

(١) سورة الليل، الآية ١٢ ـ ٢١.

(١١)
القرآن بين العقل والكون

(١١)
القرآن بين العقل والكون

* عنيت العقل الإسلامي.

ولماذا العقل الإسلامي، وليس القرآني؟ ـ بل هو كذلك.

ولماذا العقل الإسلامي وليس الإنساني؟

لأن أخذ العلم هنا سيكون من القرآن الكريم، ولا يمكن أن يفهم القرآن فهماً صحيحاً، إلاَّ من آمن بكلية القرآن منزلاً من لدن الله عزّ وجلّ، وأنه ليس من تأليف بشر، أو خلق ممّا خلق الله، ومن آمن كذلك أن القرآن هو كتاب الله وكلام الله عزّ شأنه، أصبح مسلماً يشهد بطمأنينة الصديقين شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله.

وهنا لا نريد أن نقول لعلماء الغرب والعالم، أننا سبقناكم بأكثر من ألف سنة في مجال الفلك، وأسّسنا لكم به وبعلم الأرقام المساعد عليه. فهذا أصبح كلاماً تقليدياً مكروراً، عندنا وعندكم، لا سيّما وأنتم تملكون ـ ظاهرياً ـ المبادرة والقوة، وتقدمون الأعاجيب حقّاً عبر الأرقام والأجهزة والتنفيذ.

وإنما ما نريد أن نفعله هنا، هو أن نلقي عليكم الحجة لعلكم تهتدون وتسلمون لله بكتابه الكريم، فنوفّر على أنفسنا وعلى البشرية الكثير من الابتزاز الذي تمارسونه، ومدافعتكم عن أرضنا وأوطاننا وحقوقنا التي

تكلفنا هدر الأموال والطاقات، حيث تسببتم عبر ذلك بالمجاعات والفقر، والكوارث، وتسميم الأجواء بإفرازات المصانع الحربية والتكنولوجيا المدمرة، وكذلك الاعتداء على الشعوب الضعيفة واستنزافها، وكل ذلك نتيجة لعدائكم لرب العالمين، وللإسلام الذي أراده هو سبحانه ديناً لصلاح البشرية وإنقاذها، في عمرها هذا القصير، قبيل اليوم الآخر، اليوم الحق، يوم الفصل.

لذلك نقدم لكم في جملة ما نقدم، ثلاث ركائز، لتكون محطات للتأمّل والتفكير وتحمّل المسؤولية أمام الله ربنا وربكم، رب العالمين.

أولاها: أن يقرّ في أذهانكم أنه ليس لنا عندكم مصلحةٌ، ولا مطمحٌ، ولا مكسبٌ، إلاّ أن تلبّوا داعي الله سبحانه، فهمّ كل مسلم حقيقي، هو طاعة الله مولانا ومولاكم، وأداء ما حمّل من الأمانة. حيث إننا ندعوكم إلى الله، لا لأنفسنا، ولا لشيء أو لأحد ممّا خلق سبحانه من إنس أو جن أو ملائكة، أو غير ذلك.

فلبيك اللهم، طاعةً لك فيما أمرت، حيث تقول:
﴿أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ. . .﴾(١).

وحيث تقول سبحانك لا إله إلاّ أنت:

﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وادْعُ إلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدَى مُسْتَقِيمٍ﴾(٢).

﴿وادْعُ إلى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَادْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾(٤).

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.
(٢) سورة الحج، الآية ٦٧.
(٣) سورة القصص، الآية ٨٧.
(٤) سورة مريم، الآية ٤٨.

الثانية: نعرض عليكم من القرآن الكريم، نفحات من رحمته سبحانه، تكون منطلقات للكشف، أدرتم ظهوركم لأمثالها في الماضي، فبقيتم في جهالة القرون الوسطى، مئات السنين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً. . .﴾(١).

فافتحوا قلوبكم، وافتحوا آذانكم، وخلّصوا أنفسكم من أوزارها وأوزار البشرية التي في أعناقكم. وإلاّ فأنتم على أي حال أمام القيامتين المتعاقبتين، كما ذكرنا آنفاً، الصغرى، وهل ترضون أن تكونوا وقودها أو ممّن سيصب عليهم عذابها؟ ثم الكبرى ومن لكم بأهوالها وسوء الحساب؟:

﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ المُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ. وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ ٱللَّهِ غَفُوراً رَحِيماً﴾(٢).

الثالثة: فيما يتعلق بضمير الإنسان ووجدانه الداخلي، قوله تعالىٰ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَأَتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى﴾(٣).

وسواء كان هذا العطاء من ماله أو من جهده فكراً وعملاً، فالمهم أن يكون خالصاً لوجه الله.

وقبل أن نزوّدكم، ببعض هذا الرصيد النافع، ـ والنعمة نعمته سبحانه علينا فيما نكتب ونقول، وعليكم في أن تقرأوا وتعوا ـ من الإيمان والعلم، فمن المفيد تذكيركم بما أهملتموه من قبل، فلزمكم من ذلك العنت والجهد في تحصيله، وشقيتم به علماً ومعرفةً، ودنياً وآخرةً، في الوقت

---

(١) سورة الكهف، الآية ٥٧.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٧٣.
(٣) سورة الليل، الآية ٩.

الذي سَعِدَ به من لزمه، علماً ومعرفةً، ودنياً وآخرةً. ولا يفقه أبعاد هذا الأمر، إلاَّ أولوا الألباب، ومن رحم ربك، قال تعالىٰ:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم . وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[1].

فإلى وقفة خاشعة أمام ومضات من علم رب العالمين، ممّا نبّه إليه في كتابه المجيد. . .

القرآن تبيان لكل شيء

ووجهان لحديث: (قيّدوا العلم بالكتاب).

ما أرمي إليه، هنا، ابتداءً، هو التنبيه إلى المصدر الأعظم، المدوّن، في شتى مجالات العقل والحياة، عنيت القرآن الكريم، لقول الله تعالىٰ فيه، عزّ من قائل:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلمُسْلِمِينَ﴾[2].

تبياناً لكل شيء في تشريع الكون وتشريع الحياة: من الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع إلى الدولة إلى الكون طرداً وعكساً وهذا الكلام، لكل عاقل رصين، أو متعقل، وليس للذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون.

ولذلك سيتأزم، عند قراءة هذه السطور غير العارف بالقرآن وبعظمة رب القرآن فينفر ويستكبر. وإذا كان خلوقاً ليّن الطباع، فسيطالبنا بما قلناه

(١) سورة الحج، الآية ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) سورة النحل، الآية ٨٩.

نحن عن القرآن، من أنه ليس كتاب علم تفصيلي، وإنّما هو كتاب دين فيه ضوابط لمسارات العلم من جهة، ومن جهةٍ ثانيةٍ، حقائق علمية تستدعي الكشف عنها حسب تطوّر البشرية، فضلاً عن أسرار مستحيلة على البشر، يفاجأ بها الإنسان حين كشفها، منها على سبيل المثال، استخراج أسرار الذرة، والتحوّل العلمي الألكتروني الخطير الذي ترتّب على ذلك. ونحن عند قولنا، فينبغي أن يدقّق المعترض، ليتيقن أنه لولا العلامات الضابطة، والثوابت العلمية في القرآن والمتعلّقة بما ذكرنا من المواد والموضوعات العلمية، لكان انهار الإسلام كبرنامج حضاري منقذ للبشرية، وكرسالة وكدين، ولكان ترنّح وسقط في فوضى ومفارقات الحضارة الغاشمة، لا سيّما في مجالات الفكر والتنظير والفلسفات المتضاربة، فضلاً عن البحوث الظنيّة والنظريات والاحتمالات التي لا يمضي على بعضها ردح من الزمان، أو حتى لا يحول على بعضها الحول، حتى تسقط وتصبح باطلاً، بعد أن كانت مظنونة حقّاً اعتنقه ملايين البشر، وما زال الأمر كذلك، وما زال القرآن وسيبقى منارة الضبط والتوجيه والتصحيح، وتقويم المعوج، وتقديم المنطلقات، التي توفّر الجهد وتختصر الطرق، وتقود إلى الطريق المستقيم. يعني إلى صراط الله عزّ اسمه.

ولشدّة يقيننا بهذا الأمر، ولو تميع دونه الغافلون، الذين اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وخاضوا خوض الهِيْمِ، فيما دون القرآن من المدونات المأجورة والمهجورة، والموضوعة والمستعارة، والتي فيها التشدّق أكثر ممّا فيها وَرَعُ العلماء ويقين العلماء ورصانة العلماء، نعم تركوا القرآن والعلم والعقل، وتنكّروا للعلوم العصرية على خطورة ولزوم ما يجب لزومه من معظمها، هجروا كل ذلك، إلى نبش قبور الفكر والتعبّد بها، فوقعوا في حيرة وأوقعوا النّاس وما زالوا.

وتأكيداً على ما ذكرت من عظمة القرآن وشمولية القرآن، يقينيّ بأنه ليس عبثاً قول الله تبارك وتعالىٰ عن القرآن، أنه تبيان لكل شيء، الآية آنفاً، وكذلك قوله عزّ شأنه:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١].

فمن يدعي أن هذا القول، إنما قاله سبحانه وتعالىٰ، فقط للتدليل على بناء القرآن وأسرار بنائه وتركيبه وإعجازه، من ادّعى ذلك فهو قصير النظر، كليل الفؤاد واهي الجناح، وما قدّروا الله حق قدره.

والحقيقة، أن هذه الآية إنّما تعني ذلك ضمن وجوه من المعارف لا تكاد تحصى، ولكن يتبين المقصود من مداها وأبعادها، عند ربطها، بقوله سبحانه:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ. . .﴾[٢].

فتنجلي عندها البصائر والأبصار.

وقد قدمنا في بحوث سابقة، أمثلة، عن دلالات القرآن وإرشاداته، منها نظرية النشوء والإرتقاء، وكيف أنقذنا الله بالقرآن من السقوط في بهيميتها وإن الحقيقة هي عكسها فقلبها وجعلها وقوداً على أصحابها.

علم النفس الحديث شوّه الحقائق:

وكذلك في علم النفس ذكرنا أموراً هي خطيرة بمقدار ما يجهلها علماء النفس الحديثون من جهة، وخطيرة بما هو واقع الحال، من حيث هي من آثار عظمة الله في خلقه. فهم سدّوا على الناس طرق الوصول إلى حقائقها الرائعة، وذلك بادعاءاتٍ وفرضياتٍ هجينةٍ، كان من الطبيعي أن تتهافت وتنهار، ما دامت متنكرة للحقائق الروحية والغيبية التي كان بها الإنسان إنساناً.

فعلم النفس اللاديني الحديث، غرس في النفوس القلق، والأرق، وسدّ على الإنسان أبواب الرجاء، وأبواب السماء، وحال بينه وبين أن يعرف

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) سورة النحل، الآية ٥٩.

ربه الله الرحمن الرحيم، فحرمه من الثروة الروحية التي فيها كرامة الإنسان، وسعادة الإنسان وحقيقة الإنسان.

وبكلمة، فإن علم النفس الحديث، جعل الإنسان أسير الأرض، وضيّقها عليه، حتى هو في حالة اختناق.

بينما علم النفس القرآني، أو الإسلامي، علّم الإنسان الحقيقة، وهي أن ربه سبحانه وتعالىٰ، جعله سيدها وليس أسيرها، وأفهمه أنه مسافر منها إلى ما هو أوسع وأجمل وأروع بما لا يقاس، وعلّمه كيف يتسامى فيتعافى، وواقع الحال، أن حياة المسلم العادي، هكذا، بسيطة هادئة مطمئنة، لا خوف ولا تأزّم، ولا انفصام ولا عقد، ولا عقاقير ولا مخدرات. حتى في أشد حالات الحرب وحالات الرعب. كذلك لا (سيدا) ولا (إيدز) ولا أمراض مستعصية أو مستحيلة الشفاء.

لذلك عندما يخبر الله سبحانه، عن أهوال يوم القيامة يتوجّه بالخطاب إلى الناس، بينما العادة في طمأنته تبارك وتعالىٰ للمؤمنين والمسلمين، أن يخاطبهم بـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ ومن ذلك قوله عزَّ شأنه موجهاً لغير المؤمنين:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسَ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَونَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[1].

ومخبراً عن المؤمنين بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿**إِنَّ الله يُدْخِلَ الذِيْنَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصالحَاتِ جَنَّاتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فِيْها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَب وَلُؤْلُؤاً ولِبَاسُهْم فيها حَرِيْرٌ. وهُدُوْا إلى الطِّيبِ مِنَ القَوْلِ وهُدُوْا إلى صِراطِ الحَمِيْدِ**﴾[2].

---

(١) سورة الحج، الآية ١ ـ ٢.
(٢) سورة الحج، الآية ٢٣ ـ ٢٤.

وعن طمأنتهم بخصوص يوم القيامة، قوله تعالى:

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

لقد أرعب أميركا ومعظم دول الغرب التي كانت ما زالت تحتكم إلى نظريات فرويد في فهم النفس وتربيتها، استيقاظها مؤخراً على كتابين صدرا في نفس أميركا وهزّا ملايين الناس، حيث أثبتت مؤلفة أحدهما، أن (فرويد) إنما كان يصدر بأقواله عن (عقل هائج) حسب التعبير الحرفي للكاتبة، ومن حالة اضطراب ناتجة عن إدمان الكوكايين، وكذلك وثّق الكاتب الآخر هذه الأقوال، ولقد نشرت الصحف أخبار هذا الكشف الخطير عن حقيقة هذا الرجل المؤسّس لعلم النفس الحديث، في شتاء ١٩٨٩.

من وجوه العظمة في القرآن ضبط الحقائق العلمية:

ومن مقاصد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، ضَبْطُ القرآن الكريم، للحقائق العلمية، وليس الخوض في التفاصيل، وهذا من أعظم النعم في حياتنا الدنيا. ومثالاً على ذلك: أن القرآن يقرّر بشكل حاسم، وفي آيات عديدة، أن الإنسان إنما خلق في الأصل إنساناً سوياً وفي أحسن تقويم، ثم نفخ فيه العقل، وعلى هذه الضابطة القرآنية وهذا الأساس، لو ظهر، بعد القرآن، ألف (دارون) يقرّرون معه بطريقة الفرضيات، أن مراحل الحياة المائية، ثم البرمائية، ثم المرحلة القردية، هي من مراحل نشأة الإنسان، فإن الإنسان المؤمن بالله وبكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه سيرد هذا الزعم وهو مطمئن لعلمه ولضميره العلمي. وكذلك لو بقيت كتب منطق أرسطو التي ما زالت تدرس في الحوزات الدينية والتي تقرّر أن الإنسان،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٣.

هو حيوان، ولكنه ناطق أو ضاحك، أو ينام على ظهره ـ ترى كيف يصنّفون الببغاء ـ فسيبقى الإنسان القرآني المؤمن المسلم، أقل ردود فعله أن يشمئز من هذا القصور المنطقي، ومن هذا التقصير الفكري في تدبّر الثوابت التي في كتاب الله العزيز.

قيّدوا العلم بالكتاب:

فهذا الحديث الشريف، عن رسول الله ﷺ الذي يردّده الأساتذة في الحوزات، وما زالوا يفعلون، كلما أرادوا أن يلفتوا الطلبة، إلى أهمية أن يكتبوا المعلومات التي يتلقونها من صدور الرجال، على دفاترهم وقراطيسهم، صحيح أن هذا الوجه للحديث مقبول، ولكن الحقيقة المرادة منه أعمق وأهم، وهي ضبط العلم وربطه بكتاب الله عزّ وجلّ، فإن صدّقه الكتاب، كان علماً حقّاً، وإلاّ سقط، وكان ظنّاً وفرضيات، شأنه في ذلك، شأن كل حديث أو رواية، للصحيح الذي جاء عن رسول الله محمد ﷺ: ما أتاكم من حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن قبله فَبِهِ، وإن لم يقبله فاطرحوه (وعلى رواية) فاضربوا به عرض الحائط.

من هنا وجب علينا نصاً وعقلاً، أن نعرض على القرآن المجيد، ما يأتينا من علم، محققين في ضوئه، بصحة هذا العلم أو فساده، لا أن نخضع القرآن أو نعرضه على ما يأتينا من علوم نقيد بها آيات نيرات. في حين قد تكون فرضياتٍ ما أنزل الله بها من سلطان.

القرآن لا يخطىء وإنما قد يخطىء المفسرون:

صحيح أنه قد يبطل العلم اعتقاداً سائداً في قضية علمية قيل إن القرآن قبلها قبل ذلك. فإن حصل هذا الأمر، فلا يتهم القرآن، وإنما يتهم مفسرو القرآن.

الواجب أن ترفض النظرية، ما دامت نظرية، حتى تثبت بالبينة. ومن جملة البينات، صريح القرآنِ وإشاراته، إلاّ أن ما يحصل غالباً، هو عكس

ذلك، فهناك من الباحثين المسلمين، من تبهرهم النظرية العلمية بمجرد أن تعلن، فيعتبرونها من المسلمات، ويحاولون فهم القرآن على أساسها، لا فهمها في ضوء القرآن، وهذا يجري حتى في مجال العقيدة. فعلى سبيل المثال: قضية البعث أو القيامة أو اليوم الآخر، فقد أصبح هناك اتجاه ـ حتى عند بعض من يكتبون إسلامياً ـ لاعتبار يوم القيامة، أنه سيقع كما قررت القواعد العلمية، مثل قاعدة فقدان الطاقة التدريجي. أو على أساس أن الأجرام السماوية ستتصادم ويكون الدمار الكوني، ويقدّرون لهذا الأمر ملايين أو بلايين السنين.

ونحن لا نرد النظرية العلمية المحققة، نظرية (فقدان الطاقة التدريجي) فهذا ناموس في جملة النواميس الإلّهية، من مفرداته جميع الأجرام الكونية، ومنها شمسنا، وعلى أساس هذا الناموس، يرشحها العلماء للخمود والإنطفاء. ونحن نؤيّد هذا الناموس وفاعليته حكماً، إلاَّ أننا ننكر ادعاء تعطيل الشمس عن فاعليتها كما ننكر ادعاء أن القيامة مرهونة بنفاد الطاقة، طاقة الشمس أو غيرها، لأن صريح القرآن ينفي ذلك بوضوح، ويقول في الساعة أو القيامة أنها ﴿تأتيكم بغتةً﴾ وأنها من أسرار الله سبحانه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾[1].

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[2].

ثم من الدلالات القرآنية الجلية على أن الساعة تقوم والحياة على الأرض عادية، إذ لو كانت مرهونة بنفاد الطاقة ما بقيت على الأرض الحياة لا الإنسان ولا غير الإنسان من الأحياء:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٨٥.

(٣) سورة الزمر، الآية ٩٨.

أو ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾(١).

أو ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

فلذلك كله يجب على البشرية أن تتوقع قيام الساعة ـ عبر تحقق أشراطها القرآنية ـ قياماً مباغتاً. وحيث إن الإشراط يواكب بعضها بعضاً من حيث التحقق ـ فنحن إذن في آخر الزمان، والساعة على الأبواب.

الإسلام سلط الضوء على الأفلاك، وما يرى إلاَّ الصدّيقون:

كان الأقدمون، يضعون الأرض في منتصف العالم، ويعتقدون أن الشمس والكواكب تدور حولها. وفي القرن الثاني بعد الميلاد، زاد هذا الاعتقاد تأكيداً وتحديداً بفضل الطريقة التي عرفت بنظرية بطليموس.

وبطليموس، هو فلكي يوناني، ولد في الإسكندرية، ووضع نظريته مشروحة في كتاب شهير اسمه (المجسطي). وقد ظلّت نظرية بطليموس هذه معترفاً بها طيلة قرون عديدة. كما ظلّت أساساً لعلم الفلك، حتى القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري، يعني بعد نزول القرآن بألف سنة تقريباً، والقرآن الكريم طيلة هذه القرون، يعلن الحقائق الباهرة، ولا من يسمع.

كذلك ظلّ الناس يجهلون كروية الأرض وسبحانها في الفضاء ـ عدا بعض علماء الفرس واليونان والعرب في صدر الإسلام ـ حتى قام برحلته الشهيرة ماركو بولو في القرن الثالث عشر الميلادي ـ السابع الهجري. ثم تلاه كريستوف كولومبوس، في الخامس عشر الميلادي، إلاَّ أنّ الجميع، الفرس واليونان والعرب، وماركو بولو وكريستوف كولومبس، وإن كانوا

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٨.
(٢) سورة يّس، الآية ٤٨ ـ ٥٠.

اكتشفوا كروية الأرض، إلاّ أنهم ظلّوا يجهلون انطلاقتها في الفضاء، وَدَوَرَانِها حول الشمس، والقرآن الكريم أثناء ذلك، أي خلال تسعماية أو ألف سنة يقرّر بصوت يصل إلى عنان السماء قوله عزّ وجلّ:

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(١).

وقوله تعالىٰ:

﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(٢).

﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(٣).

وواضح جداً، أن هذا التكوير ما دام على الأرض، فيجب أن تكون كرة، وهي مدحوّة في هذا الفضاء، تسبح سبحاً، حيث إن دحا وطحا لفظان عربيان رائعان للتعبير عن جعل الشيء كروياً ودفعه في آن، وهما بمعنى واحد أو متقارب، والدحو هو الدفع والدحرجة (راجع القاموس ومفردات الراغب). ثم من آية (التكوير) هذه، وإضافة إلى معرفة أنها كرة هائلة، نستنتج دورانها حول نفسها لتشكيل الليل والنهار، كما نستنتج تبعيتها المستمرة للشمس، ثم من آية ثانية قوله تعالىٰ:

﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(٤).

نستنتج أن لهذه الأرض سيراً في الفضاء سريعاً، وربطاً بآية (يكوّر الليل) نوقن أن هذا السير هو في مدار حول الشمس لا تفارقه.

وهنا يتبادر إلى الذهن، السؤال عن حال أولياء الله، أئمة العلم والدين في تلك الفترة المتطاولة، قبل تطوير أجهزة الرصد الفلكية، وبدايات الكشف عن أسرار الفلك بواسطتها. والحقيقة أن علماء الهيئة

---

(١) سورة الزمر، الآية ٥.

(٢) سورة الشمس، الآية ٦.

(٣) سورة النازعات، الآية ٣٠.

(٤) سورة النمل، الآية ٨٨.

(علم الفلك) يحصون لأئمة أهل بيت النبوة عليهم السلام، نصوصاً كثيرة في هذا المضمار إلَّا أنها رمزية، بموجب القاعدة النبوية الشهيرة (أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم) وفي لفظ آخر (على قدر وصولهم) حيث كانت الأحاديث تستعمل عبارات مختلفة، تناسباً مع علوم كل عصر، حتى إذا تزندقت الأمة، وكثر الفسوق بن الناس والحكام، وانتشر الترف والخمر والمجون، وزاد الظلم والجور والفساد، والتكالب على الدنيا، «فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب»، وأذهب عنهم هيبة السلطان وقوّته، وَمَزَّق دولتهم شرّ ممزق، وأرسل عليهم وعلى حضارتهم، وعلى مدنهم وأمصارهم، وعلى عاصمتهم بغداد، موجاتٍ عاتيةٍ مدمرةٍ، من البربر والتتار، فتبرتهم تتبيراً.

ثم أذن سبحانه لأقوام آخرين، بالكشف في مجال الفلك، وشتى المجالات ليكونوا مصاديق لقوله عزّ وجلّ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾[1].

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(١٢)

كتابان في كتاب الله: القرآن والفلك

ثم أقفل الله على المسلمين وفتح على الآخرين أبواب كل شيء

﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

(٦٥: الأنعام)

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

(٤٤: الأنعام)

نموذج عن الفلك في العقل الإسلامي:

وللدلالة على تصدّي الأئمة لهذا العلم الخطير، نذكر هنا نصاً واحداً، نموذجاً ـ من مئات النصوص المثبوتة في مجاميع الروايات ـ ورد في بحار الأنوار للمجلسي، وفي كتاب التوحيد للشيخ الصدوق محمد بن بابويه المتوفي سنة ٣٨١ هجرية. بسنده عن جابر الأنصاري الصحابي، أن الإمام الباقر محمد بن علي عليهما السلام، قال له: ولعلك ترى أن الله تعالىٰ إنّما خلق هذا العالم الواحد، أو ترى أن الله تعالىٰ لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله، لقد خلق تبارك وتعالىٰ ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنتم في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين.

ونستنتج من هذا الخبر المقدّس ثلاثة أمور:

أولاً :حكاية الرقم (ألف ألف) التي تتناسب مع وصول الناس آنذاك في علم الحساب، ولذلك نلاحظ اختلاف الأرقام في مختلف الروايات.

ثانياً :سبق العقل الإسلامي في معرفة تعدّد العوالم، فهذا الخبر المأثور ورد عنه عليه السلام في وقت كان الناس فيه ما زالوا يدرسون أوضاع مجموعتنا الكوكبية، اعتماداً على النظريات الخاطئة، وعلى

أن ليس بعدها عوالم.

ثالثاً :تأكيد ما يظنّه العلم في هذا القرن الخامس عشر الهجري، العشرين الميلادي من وجود بشرٍ أو مخلوقات، في بقية العوالم الموجودة تحت سبع سماوات. فهذا الخبر تقرير علمي، يستطيع العلماء الاستنارة به، والخروج من الظنّ إلى اليقين، فيستعملون وسائلهم على هذا الأساس. ومع اليقين يكون الحافز أقوى بما لا يقاس، ويكون الإصرار على الوصول إلى الهدف.

أول الغيث مع كوبرنيكوس:

منذ أربعة قرون ونصف، من كتابنا هذا، وبالتحديد في ١٥٤٣ م، ظهر العالم الكبير، نيقولاي كوبرنيكوس، ونادى بخطأ نظرية سلفه بطليموس وأكّد عكسها. فقد بيّن أن مركز العالم، إنّما تشغله الشمس على أنها ـ حسب نظريته ـ ثابتة لا تتحرك، وأن الأرض والقمر وخمسة (فقط) من الكواكب الأخرى تدور حولها في مدارات دائرية، وفوق كل هذه المدارات، يوجد فلك النجوم الثابتة، وهو فلك ثابت يشتمل على العالم بأكمله، ويؤثر على كافة الكواكب التي تدور أسفله. هذا موجز نظرية كوبرنيكوس.

وهنا كذلك، كان القرآن العظيم، يخبر عن كوبرنيكوس فيما أصاب فيه:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾. صدق الله العظيم.

وكذلك عمّا أخطأ فيه:

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[1].

وفي القرآن صواب ما أخطأ فيه كوبرنيكوس، **أولاً** ـ من حيث عدد الكواكب قول الله تعالىٰ:

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٣٤.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾[1].

وكذلك من حيث عدد طبقات الكون، فهو ظنّ حدود الكون، هذه السماء المرئية وفي القرآن الكريم قوله تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[2].

فكوبرنيكوس ظلّت نظريته محدودة، قاصرة في مدى ما توصّل إلى رصده تحت السماء الدنيا. فمن أين له أن يتعرض هو والأعظم منه في مستويات البشر، لعوالم ما فوق هذه السماء، إذا لم يكن العلم قرآنياً.

ثانياً: زعم كوبرنيكوس، أن فوق مدارات مجموعتنا، فلك ثابت يشتمل على العالم بأكمله. وفي القرآن قبله بعشرة قرون قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[3].

إن لفظة إدبار، هي عكس إقبال ومعناهما الذهاب والمجيء، ولا يمكن إقبال ولا إدبار بدون حركة. قوله تعالىٰ:

﴿فَالْجَارِيَاتُ يُسْراً﴾[4].

فهي في وجه من وجوه الظاهر فضلاً عن وجوه الباطن تعني نجوماً وكواكبَ، حيث لا قرينة للتخصيص، ولا قرينة في السّياق تبعدها عمّا نقول. وما أغنى القرآن العظيم في تعدّد وجوه الآيات ومراميها، وليس هنا مكان بحثه. وكذلك قوله تعالىٰ:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف، الآية ٤.
(٢) سورة الطلاق، الآية ١٢.
(٣) سورة الطور، الآية ٤٩.
(٤) سورة الذاريات، الآية ٣.
(٥) سورة التكوير، الآية ١٦.

نقـول فيها كذلك، ما قلنـاه في سابقتهـا. وبتعبيـر آخـر لنفس المعنى ولنفس الموضوع قوله تعالىٰ:

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١].

وقوله تعالىٰ:

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾[٢].

وأخيراً وليس آخراً، قوله عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَـرْشِ وَسَخَّـرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَـلٍ مُسَمًّى، يُدَبِّـرُ الأَمْـرَ يُفَصِّـلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٣].

وهذه الآية هي من أوضح الدلالات على عـدم ثبات الشمس وغيـرها من الكواكب، كما أن هـذه الآية من أعـظم الآيات في مجـال الفلك حيث تحسم القـول، في قضية الجـاذبية الكـونية، وكـذلـك في جـري الشمـوس والكـواكب والأقمار، لأن العبـارة «كل يجـري إلى أجل مسمّى» عـائدة إلى الشمس والقمـر والسموات، وهي لغـة كـل سـامٍ مـرتفـعٍ، ولفظ «الشمس والقمر» دلالة على النوع وليس على الجنس، والمقصود في الآيـة على هذا الأساس ما في الكون من شموس وأقمار، وكذلـك القول في لفـظة أرض، فهي تعني النوع والماهية في أكثر الآيـات. ولذلـك لا نجد في القـرآن لغة جمـع لـلأرض ولا للشمس ولا للقمـر (يعني أرضـون وشمـــوس وأقمـار). وقـاريء القرآن اللبيب يفهم القصـد، حيث يكون المقصـود هـو الجمـع أو النوع أو الجنس، من السياق والقرائن.

القرآن يخبر عن حركة الشمس قبل أن يعرف ذلك بشر:

بعد كوبـرنيكوس، أذن الله عـزّ وجلّ، بخـطوات جبارة، قـطعها علم

---

(١) سورة يٓس، الآية ٤٠.

(٢) سورة النازعات، الآية ٣.

(٣) سورة الرعد، الآية ٢.

الفلك كذلك. سدّد فيها ثلاثة من العلماء كيبلر Kepler ثم بعده غاليلو Galileo ثم بعده نيوتن الذي توفي حوالي ١٧٢٧ م. وكان غاليلو أول من استعمل التلسكوب واكتشف أن الشمس تدور حول نفسها كما تدور الأرض، وكما تدور بقية الكواكب. هذا والقرآن المجيد يعلن هذه الحقيقة، طيلة حوالي إثني عشرَ قرناً، قبل هذا الكشف.

فإذن أقفل الله تعالىٰ على المسلمين أبواب العلم، وفتح على الآخرين أبواب كل شيء. ويبدو أن الجميع اليوم، أصبحوا يستدعون غضب الله المنتقم الجبّار. فباسم الدين، شيعةً تسفك دماء الشيعة، وسنّةً تسفك دماء السنّة، والسنّة والشيعة لبعضهما بالمرصاد الدموي، أفلأجل هذا كان الإسلام وكان إرسال الله سبحانه لمحمد ﷺ؟ ومثل ذلك فعل اليهود بأنفسهم وبالمسيحيين من قبل، ومثل ذلك فعل المسيحيين بأنفسهم في الحروب الدينية، وما زالوا يفعلون بأنفسهم وبالآخرين.

لذلك يعتبر معظم أهل الأرض، في هذه الأيام، وخاصة أصحاب الحضارة الزنديقة، من مصاديق قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ للَّهِ ربِّ العَالَمِينَ﴾[1].

معظمهم اليوم مصاديق للقسم الأول، لِمِهْلَةٍ ما قبل الأخذ بغتةً. وترقب الباقي أمر طبيعي، فإن وعد الله حق. ثم بعض التأمّل في قوله سبحانه يجب أن يفزع الأعراب وأهل النفاق من أدعياء الإسلام. والإسلام في الحقيقة غدا غريباً بالنسبة إليهم، وغدوا هم عنه غرباء:

﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يُلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، أنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٤ ـ ٤٥.

الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[١].

فهل أكثر من هذا الواقع انطباقاً على الناس، قصف من فوقهم واهتزاز الأرض بالدواهي من تحت أرجلهم، والآتي أعظم، وإنهم تمزّقوا شيعاً يذيق بعضهم بأس بعض، ويسفك بعضهم دماء بعض، ويروّع بعضهم بعضاً أعراباً ومنافقين، ومسلمين زائفين. وأسوأ من ذلك كله، اليهود والنصارى، وبقية أهل الأرض ما بين القطبين.

ألا وإن فرصة الجميع، جميع أهل الأرض، الفرار إلى الله، بالإسلام والقرآن. وأمامهم قيامتان: أرضية وكونية، وليرتقب أعداء موسىٰ والمسيح ومحمد عليهم السلام، إنَّا مرتقبون. أو فليطيعوا الله في أمره تعالىٰ حيث قال:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ. وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٣].

* * *

ثم نعود إلى حركة الشمس والقمر والأرض وتتابع الليل والنهار، وعدم طغيان الأكبر على الأصغر في ناموس التجاذب والمدارات، متأملين قول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

(٣) سورة الزمر، الآية ٥٤ ـ ٥٥.

الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١].

وهكذا نجد أن الله عزّ شأنه، رفع (غاليلو) درجات عـالية غـالية، في سلّم الفلك، الذي يبدو أنه غير متناهٍ في السموات السّبـع وما بعـدهنّ، ثم علّم وهيّأ سبحانه من يتابـع عنه. وحيث أن (غـاليلو) ترك للعلمـاء القانـون الذي يقول: (إن حركة الجسم تستمر إلى ما لا نهـاية مـا لم يطرأ عليهـا ما يعـدّلها أو يـوقفها) هـذا القانـون استوقف نيـوتن، وجعله يتساءل، لمـاذا لا تستمر حركـة الكواكب في اتجـاه مستقيم، بدلاً من أن تـدور حول الشمس وكأنها مشدودة بحبل غير منظور؟ وبفضل من الله على البشرية وأيضاً لتعزيز قـرآنه المجيـد، وزيادة في إلقـاء الحجـة على المـاديين والـطبيعيين، ألقى التفاحة أمـام نيوتن وألهمـه أنها الجـاذبية، وأن مـا يرفـع السموات، ويـربط الكواكب بالشمس إنّما هي عمد لا ترونها، أي أنها قوىٰ جـذب توجـد بين هـذه الأجرام، وتشـدّ بعضها إلى بعض دون أن يـطغى فيها الأعـظم حجماً على مـا دونـه. وهي التي أسمـوهـا بلغتهم Attraction أي التجـاذب وهي صريحة في كتاب الله المجيد:

﴿ٱللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَـرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجلٍ مُسَمًّى، يُدَبِّـرُ الأمرَ يُفَصِّـلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٢].

وهكذا أتى تفسير هـذه الآيات وبعض تـأويلها بعـد أكثر من (١٢٠٠) سنة من إعلان القرآن لهذه الحقائق الكونية العجيبة. أفما يستحي الذين لم يسلمـوا بعد، إلى الله إسـلاماً كلياً، ولم يذعنـوا لقرآنـه العظيم، لا سيمـا عندما يقرؤون فيما يقرؤون، هذه الآية، التي تدمغ الذين اتهموا محمداً ﷺ بأنه افترى القرآن وأتى به من عنده ومن عند أقوام آخرين، بعدمـا تبيّن لهم من النواميس والدقائق العلمية المذهلة التي أشرق بهـا القرآن على البشـرية

---

(١) سورة يٰس، الآية ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) سورة الرعد، الآية ٢.

في وقت كانت فيه ظلاماً دامساً من الجهالة والأميّة العلمية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[1].

العلم المعاصر ما زال في رقعة تحت سماء من سبع سموات، وهذه السموات السبع في كرسي العرش كحلقة في فلاة، والكرسي على شاسع اتساعه وشموله هو في العرش كحلقة في فلاة: هذه مواد كونية، للأدمغة والأرقام والمراصد ويبقى كلام عن الملكوت واللاهوت والجبروت، وهذا لغير النظر المادي، ويبقى اللاكلام.

أما ما دمنا في الكلام، فنعود إلى الفلك، وبالتحديد إلى الشمس بين القرآن وبين الكشوف العلمية.

الشمس ليست مركزاً للكون:

من كل ما تقدم من الآيات الكريمة، نفهم بجلاء، أن الشمس ليست مركزاً للكون، وإنّما هي مجرد نجم من ملايين النجوم، التي لها في الفضاء الرحب إقبال وإدبار. بينما كان أهل الأرض، منذ القدم، يعتقدون أن الشمس هي مركز الكون كلّه، وبقي هذا الاعتقاد سائداً، حتى بعد القرن الخامس عشر الميلادي، التاس الهجري، وبعد كوبرنيكوس وكيبلر، وغاليلو، وكذلك نيوتن، بينما القرآن الكريم يقرّر عبر كل هذه الحقب من الزمان وبأوضح عبارات، أنّ الشموس كلها هي سراج في السماء الدنيا من السموات السبع. وهو ما يراه الإنسان العادي من الضوء في ليل سمائنا الدنيا هذه. قوله عزّ وجلّ:

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٨ ـ ٣٩.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ فِيهِنَّ القَمَرَ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾(١)

كما قرّر أنها غير ثابتة في مكانها:
﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لَمُسْتَقَرّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزُ العَلِيم﴾(٢).

كما قرّر أن ما زاد عن السموات السبع والأرضين السبع هو الكرسي:
﴿وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾(٣).

وما زاد عن الكرسي هو (العرش العظيم) و(العرش المجيد) و(العرش الكريم).

ولفهم تقريبي لنسبة السموات والأرض إلى الكرسي ونسبة الكرسي إلى العرش، نذكر هذا الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ فعن الصادق عليه السلام، قال، قال أبو ذر: «يا رسول الله ما أفضل ما أنزل عليك؟ قال: آية الكرسي، ما السموات السبع في الكرسي إلاَّ كحلقة ملقاة، بأرض فلاة. ثم قال: وإنّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة».

المهم أن الناس ـ مسلمين وغير مسلمين ـ ظلّوا هكذا، منصرفين عن كتاب الله الكريم، زاعمين أنّ الشمس ثابتة في موقع واحد من السماء لا تبرحه، حتى كان القرن الثامن عشر الميلادي، فظهر العالم الفلكي هاللي Halley ١٧٥٨ م وهو صديق لنيوتن، وصاحب نظرية المذنب المُسمّى باسمه، وقرّر أن الشمس تغيّر مكانها. وهنا بطل الاعتقاد بأن الشمس هي مركز الكون كلّه ولم تعد سوى مجرد نجم عادي في مجرة درب التبّانة، حيث يوجد شموس أصغر وأكبر منها بالملايين. وقد كانت هذه الحقيقة

---

(١) سورة نوح، الآية ١٦.
(٢) سورة يّس، الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

التي اكتشفها هاللي مقرّرة ـ كما رأينا ـ في القرآن الكريم قبله بحوالي إثني عشر قرناً.

علم الفلك في القرآن يفتح العقل على مصراعيه:

إنّ علم الفلك في القرآن ـ فضلاً عن بقية العلوم فيه ـ يشهد أولاً أنَّ لا إله إلَّا الله، ويشهد ثانياً أن محمداً رسول الله ﷺ ويشهد ثالثاً أن القرآن الكريم هو من لدن الله جلّت عظمته. وعلم الفلك، وحده، في القرآن، يكفي لأن يجعل العقل الإسلامي عقل عالم، فكيف ببقية وجوه الشهادة، ووجوه الإثبات، ووجوه الإعجاز، التي إذا اجتمعت لإنسان أسلم لربّ العالمين إسلاماً حقيقياً كاملاً، جعلته أعلم العلماء على مستوى البشر، وفي شتى المجالات، شرطه أن يأتمر بما أمر الله به محمداً ﷺ وكل مسلمٍ لله تبارك وتعالىٰ إسلاماً صادقاً:

﴿قُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً﴾[١].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ﴾[٢].

ففي عصر محمد ﷺ لو كنت أنت وسألت أعلم أهل الأرض في أرقى الحضارات آنذاك من اليونان إلى الفرس إلى الرومان: ماذا في السماء؟ فسيكون الجواب: نجوم ثابتة، أو بتعبير آخر (علمي) عندهم آنذاك: مسامير ضوئية.

وإذا سألت كم سماء فوق هذه؟ فسيكون هذا السؤال من العجب. أيوجد أكثر من سماء؟ هكذا كان حال أعلم العلماء في بقاع الأرض قاطبة أيام رسول الله محمد ﷺ. فما بالك إذا سألت الأعراب والبدو الذين كانوا حول محمد ﷺ وليس عندهم أي لون من ألوان الحضارة. وهم لولا

---

(١) سورة طٰه، الآية ١١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

الإسلام العظيم لكانوا ظلّوا إلى يومنا هذا عيّنةً من عيّنات القرون الوسطى، إلاَّ أنّهم بالإسلام فيما بعد، سادوا حضارات الماضي، ووضعوا الأسس الإيجابية لحضارات اليوم. وهم إذا رجعوا إلى الله متمسكين بكتابه الكريم وبسنّة محمد وآل بيت محمد ﷺ، فسيبنون حضارة المستقبل، بدون سلبيات. فيسعدون سعادة الدارين ويسعدون معهم البشرية.

ثم من أين لرسول الله ﷺ، أن يعلم آنذاك، مفاد الآيات التي في القرآن، والتي تكشّف منها جانب بعد تطوير التلسكوب الذي استعمل أول مرة في القرن السابع عشر، أي بعد (١٢٠٠) سنة حوالي إثني عشر قرناً من نزول القرآن العظيم.

من أين لرسول الله محمد ﷺ أن يعلم، لولا القرآن أولاً، ولولا المعراج ثانياً، إلى السماء السابعة:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[1].

والقاب، هو المعروف في الهندسة Rayon بشعاع الدائرة. فإذن انطلق محمد ﷺ من مركز دائرة السماء الدنيا، خارجاً من أحد أقواسها (وذاك هو القاب الأول) ثم ارتفع مسافة القاب الثاني، مقارباً قوس الدائرة الثانية «وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلّى» فكان أدنى قليلاً من قاب قوسين، غير مرتكز على شيء مادي، حتى ولا على نظام الجاذبية. كذلك ممّا يجب أن يستفيده علم الفلك الحديث، أن جميع الفتوحات العلمية الباهرة في عالم الكواكب والنجوم والمجرّات والأبعاد الهائلة التي تقاس بملايين السنيْن الضوئية، كل ذلك، إنّما يقع تحت السماء الدنيا، التي فوقها ستّ سموات، فوقهنّ العرش العظيم.

ثم إنّ رسول الله محمداً ﷺ كان همّه الأول والأكبر، أن يقنع بدعوته العرب أولاً وبشكل خاص، لأنهم على عنفوانهم، ونزعتهم المتميزة إلى

(١) سورة النجم، الآية ٨ ـ ٩.

الحرية والفردية، سيكونون كما أراد لهم وعلّمهم الله سبحانه، قاعدة الدعوة، وأساسها، وركيزتها.

إذ أن القرآن هو لبّ الدعوة وعقلها، وهو عربي، ولا يمكن أن يستسيغه، ولا حتى أن يقبله، بالبداهة، والتفاعل السريع، غير العرب.

ومعلوم تاريخياً، أنّ العرب آنذاك، زمن محمد ﷺ لم يكونوا أهل حضارة وعلوم، بل كان أبرز شأنهم، التجارة في العواصم، والرعي والبداوة، على امتداد شبه الجزيرة العربية، إضافةً إلى اللغة الصافية التي كانت الطابع المميّز، لهؤلاء وهؤلاء، من أهل حضر وأهل وبرّ.

فلو كان الفكر هو فكر محمد ﷺ، والتخطيط لنجاح الدعوة هو تخطيطه، فأول ما كان يجب أن يتعامل مع هؤلاء القوم، بما يفهمونه، ويستجيبون له. فلماذا جاءهم ومن أين، بهذه الآيات العلمية، التي كانت ربما، متعبة لهؤلاء القوم، وهو لا يريد أن يتعب أفكارهم. هو يريد أن يقنعهم. وواضح أن هذه الآيات العلمية، لم تساهم أيّة مساهمة في إقناعهم. فلماذا الآيات العلمية الكثيرة والمعقدة؟

إذن لا شك البتة، في أن محمداً ﷺ لم يكن المخطط، وأن محمداً ﷺ لم يكن المفكّر بما ينفع، وبما لا ينفع من الآيات، وإنما كان محمد ﷺ السامع، المتلقي، ثم المبلّغ حرفياً لما يتنزل عليه من ربّه ربّ العالمين.

ولولا أن القرآن الكريم هو وحي من الله سبحانه ما كان محمد ﷺ يستطيع أن يتحف مستقبل البشرية بهذه الآيات الباهرة، في مجال الفلك والنفس والإنسان والطبيعة والكون كلّه، ثم لم يكن منها فائدة ما دام لا يفهمها أحد من الناس إلاّ من رحم ربّك. فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الأسرار؟ وهي لم تفده ولم ترفده في دعوته آنذاك لا من قريب ولا من بعيد. وإنما ظلّت مئات السنين أسراراً ورموزاً، حتى قيّض الله سبحانه كشف مصاديقها للعلماء. فمن أين لرسول الله محمد ﷺ كل ذلك، إذا لم

يكن نبياً مرسلاً من لدن الله تبارك وتعالىٰ، والقرآن وحياً يوحى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى﴾(١).

وهل كان لأي إنسان آنذاك، مهما علا شأنه، أن يلمّ بهذه العلوم العالية، بدون مقدمات علمية، وأدوات فكرية ومادية، تساعده على معرفة هذه الأسرار. هذا مستحيل. فإذن وحده خالق هذا الكون، هو الذي أخبر عنها في القرآن الكريم، وهو الذي علّم رسوله محمداً ﷺ وعلّم بعده أولياءه، ثمّ البشرية. لأنه وحده تبارك وتعالىٰ يحيط بأسرار السموات والأرض وما بينهما، وهو بكل خلق عليم.

من هنا يتّضح بشكل قطعي، أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾(٢).

﴿... وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾(٣).

بقي علينا أن ندرك، أنه ما دامت آيات كثيرة، فيها مثل هذه الكنوز العلمية، ولم يكن عند الماضين، تمكين لسبر أغوارها وفكّ رموزها، بل كانوا يمرّون بها مكتفين بما يحمله ظاهرها المريح لإفهامهم على قدر أفهامهم، فكذلك ما زال الكثير أيضاً من الآيات في عصرنا هذا، هو بالنسبة للمفسرين من المُغْلَقَات المغلّفات بالجمال والإقناع على قدر الحاجة. ولكنها

---

(١) سورة النجم، الآية ٣ ـ ٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٤ ـ ٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٨.

يقيناً ستحمل فتوحات ما بعد الكشف عن مضامينها، أو عن مصاديقها في كتاب الكون.

كتابان لله يفسّر بعضهما بعضاً:

وختاماً لهذا البحث يجب أن نذكر دائماً أننا إنما نعرض هذه الحقائق، ليقرّ في الأذهان، والعقول والقلوب، أن القرآن معجز وأنه ـ رغم كل ما قد يقال، ظنّاً، أو جدلاً ـ من أعظم الروافد الظاهرة، للعقل الإسلامي المتفوق.

وأنه ما كان لبشر، أن يعلم هذه الأسرار، وهذه الحقائق الفلكية قبل القرآن المجيد، ولا حتى في زمن القرآن، ولا حتى بعد مئات السنين من القرآن، حتى يأذن الله عزّ وجلّ بالكشف تدريجياً عمّا في القرآن وفي الكون:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[1].

نعم، حتى أذن الله تبارك وتعالىٰ، ببعض تأويله، ببعض الكشف التدريجي عمّا في القرآن الكريم ربطاً بملكوته وملكه العظيم. وبنسبٍ، هي وإن كانت جليلة بالنسبة للإنسان، إلاَّ أنها ما زالت قليلة جداً في مجال العلم، وفي المجالات اللانهائية لكلمات الله، التي بها يكشف عن النواميس أو القوانين العلمية، وبها يعلّم وبها يخلق، قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وكذلك، علينا أن نتذكر دائماً، أن ما يكشف في شتى ميادين العلم من أعاجيب ومدهشات، إنّما هو تحقيق لوعد الله عزّ وجلّ حيث قال:

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

(٢) سورة لقمان، الآية ٢٧.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾(١).

ومن هنا نرى أن الرافد الثاني العظيم للعقل بعد القرآن هو كتاب الكون، متضمناً منائره القادة الملهمين، الذين اجتباهم الله عزّ وجلّ، لكشف الأسرار وتعليم البشرية، حسب حاجة كل جيل ومستواه التحصيلي في مجال العلوم أو مستواه الفكري.

والله عزّ وجلّ، يعلّم خلقه الأرضي، من جن وإنس، بهذين الكتابين غير منفصلين، رابطاً الثاني بالأول الذي هو القرآن المجيد، هادياً ومعلماً ومرشداً ومسدّداً.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

مهمة العلم:

كما أنه ينبغي ألا ننسى كذلك، أن مهمة العلم هي التفكّر والخلق والإبداع... استنتاجاً واستقراءً إلى أقصى الحدود التي يصل إليها الفكر أو الخيال أو الظن. ومادته (أي مادة العلم) هي جميع ما خلق الله في السماوات والأرض وما بينهما. إلاَّ أن العلماء ينشعبون على هذا الأساس إلى شعبتين: شعبة للنعيم، هم أهل طاعة الله، وشعبة للجحيم هم أهل معاصيه.

ثم يشير القرآن المجيد إلى الكون اللامتناهي متحدّياً أهل السموات والأرض بقول الله، والله أكبر:

﴿هَذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٣).

---

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٩.

(٣) سورة لقمان، الآية ١١.

(١٣)
نحن وحضارة العام ألفين... الى أين؟!

نحن وحضارة العام ألفين... الى أين؟!

وجهان للحضارة: جميل وقبيح:

ممّا لا شكّ فيه أن الحضارة، بما تعنيه من تقدم وتطوّر مذهل، في شتّى مجالات النّفس والكون، قد جعلت الإنسان أغنى بالمعاني، وأقدر على التحكّم بمعطيات الوجود، وبالتالي أرفع مستوى ثقافياً، ممّا كان عليه الأسلاف من عوام البشر.

نستثني من ذلك الملهمين، كما نستثني احتمال حضارة أو أكثر، يقال إنها فاقت حضارتنا هذه. ولعلها هي التي أشار إليها الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[1].

ودمّرها لما أن انحرفت عن طاعته وتعاليمه.

أما من الوجهة الإيجابية للحضارة، فجميل جداًأن تضغط زراً لتضيء المنزل أو الشارع أو المدينة بنور مريح، بدلاً من الشمعة أو قنديل الزيت. مع الفارق الكبير، العملي والنوعي والاقتصادي.

والأجمل منه أن تطير إلى مكة، أو تكرج على الدولاب، حاجاً،

(١) سورة الشعراء، الآية ١٢٨.

فتصل إليها في بضع ساعات، أو بضعة أيام. وكذلك إلى أي مكان على هذا الكوكب. وأن تسعد بصحبة عيالك أو أخوانك إن صحبتهم، أو تعود إليهم على جناح الشوق، دون طول غربة وطول فراق.

ويتكامل الجمال في عينيك، ويصبح رافداً للسعادة في قلبك، عندما تشكر الله... وتقول عندما تقلع بك الطائرة، أو تندفع بك السيارة:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾(١).

كل ذلك بدلاً من الوسائل البدائية، وما كان فيها من كلفة البدن، وكلفة الزمن، وهدر ما بينهما من الطاقات.

وجميل أن يكون لبيتك سقف، تنزلق عليه مياه المطر، بدلاً من أن تتسرّب عبر السقف الترابي إلى الداخل، فتختلط بدخان الموقد العتيق، وتمتزج بالدموع... التي توشك أن تكون بكاء، فتنغص بركة الشتاء، وبركة الحياة. ولو كان لا يجرح في ذلك قول ميسون الكلبية زوجة معاوية:

لَبَيْتٌ تَعْصِفُ الأَرْيَاحُ فِيهِ أحبُّ إلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مَنِيفِ
وَلَبْسُ عَبَاءةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي أحبُّ إليّ من لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَعِلْجٌ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٍ أحبُّ إلَيَّ من عِلْجٍ مُخِيفِ

إذ أنها لا تلام في ذلك، وهذا الموقف شبيه، ولو من طرف الزوج، بموقف زوجة فرعون، التي أخبر الله سبحانه أنها قالت، وقد شاهدت فساد القصر وكفر من في القصر:

﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَونَ وَعَمَلِهِ﴾(٢).

وجميل في الحضارة أن تدير مفتاح الكهرباء، أو الغاز، لتطبخ، أو

---

(١) سورة الزخرف، الآية ١٣.

(٢) سورة التحريم، الآية ١١.

تهيء بالسرعة ما تشاء من طعام وشراب، بدلاً من النفخ على الحطب، الذي يذكرنا بإزعاجه، جانباً من معنى قول حاتم الطائي لعبده:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلُ قَرُّ والرِيحُ يَا وَاقِدَ رِيحُ صَرُّ
إنْ جَلَبْتَ ضَيْفاً فَأَنْتَ حُرُّ

وجميل في الحضارة أن تنقّل أصابعك على لوحة صغيرة، لتحسب في عمليات رقمية معقدة، فتحصل على نتائج، نادراً ما تحتاج إلى مراجعة، وذلك في ثوان، كانت تقتضي في الماضي ساعات طوالاً.

وكم تشعر بالحيوية والنشاط والسعادة، وأنت تشكر الله. . . متمتماً أمام كل جهاز، أو نتيجة كل عملية يسّرها سبحانه:

﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. . .﴾[1].

أو: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ﴾[2].

ثم تبتسم ابتسامة المشفق الحزين، على الذين حرموا أنفسهم نعمة الإيمان: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْراً﴾، فحرموا السعادة الحقيقية، ولذلك ادّعوا أنها من المستحيلات.

وجميلةٌ في الحضارة الثلاجة، والغسالة الأوتوماتيكية، وأنواع المنظفات. . . والحمامات التي تذهب بما يستقبح إلى باطن الأرض، ولا عين رأت ولا أنف شم. . . جميلةٌ النظافة، نحصل عليها بالطريقة الآلية بدون عناء ومريحة في الحضارة الدولة العادلة، ومؤسساتها النظامية، وإداراتها الفنية المعزّزة بالألكترونيات، وكذلك الأنظمة المانعة للفوضى في الناس، والفوضى في الأشياء. . . وما أكثر وجوه الجمال في الحضارة. ولو شئنا أن نعدد، لاقتضى الأمر منّا مجلدات: في مجال ذات الإنسان، وفي كوكبه السوّاح حول الشمس، وفي الفضاء، وفي الفلك.

---

(١) سورة العلق، الآية ٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٤٣.

والأجمل من ذلك كله ارتقاء القمر، والتنقّل عليه، بخفة توازي (١/٨) ثمن وزن الإنسان على الأرض، بما يشبه الطيران، فوق تلاله وآكامه. ثم التطلّع منه ـ عبر العلم الذي أوصل إليه ـ نحو جيران أرضنا: المرّيخ الأحمر، بأقماره، وزحل، بهالاته الشاعرية، والمشتري عملاق الكواكب، هذه وبقية مجموعتنا التي تقودها شمسنا كراع يقود قطيعه، ولا أحدُ غيرُ الله، يعرف إلى أين، والراسخون في العلم. والأجمل أيضاً، الحلم بارتقائها، بعضاً أو جميعاً، وأخذ فكرة عن من حولها، أو منها، أو عبرها، عن الجنة والنار... أفي مجموعتنا الكوكبية هما، أو في مجرتنا درب التبانة، أم في مجرة أخرى معروفة، أم في مجرة من اللواتي تراهنّ المراصد مرة واحدة، ثم لا تعود تراهنّ أبداً؟! النعيم والجحيم، هل هما في كوننا المرئي، أم في كوننا غير المرئي من دنيانا هذه؟!

جميلةٌ التلسكوبات، وأجهزة الرادار، والمراصد، والجالسون أمام عدساتها، ولوحاتها الإلكترونية: يراقبون... يدرسون... يسجلون... ينبهرون، وينبهر معهم العالم، بما في هذا الكون من أسرار وجمال، وحسن وروعة، ومفتحات ومغلقات... تارةً تشعرنا بالسعادة والشوق، إلى ما وعد الله به الأبرار، وتارةً تشعرنا بالرهبة والفزع، وتغرقنا في التأمّل، عن النفخ بالصور، والقيامة، وأهوال القيامة، والإنبعاث، من ذلك الذي هو في مفكرة العلماء اليوم: طواحين الشموس والكواكب، وهي ما أسماه العلم بالثقوب السوداء، ووصفها بأن بعضها، تهوي فيه مجموعات كوكبية بشموسها، فتطحنها طحناً، وهو أمر استنتاجي عندهم، ولنا نحن أن نستنتج معهم، أنها أمثلة يضربها الله لنا عن القيامة الكبيرة الكلية الشاملة، التي عناها بقوله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوهُ دَاخِرِينَ﴾[١].

---

(١) سورة النمل، الآية ٨٧.

والعلماء يصوّرون هذه الثقوب على شكل أبواق، الواحد منها يجذب المجموعة الكوكبية، جذباً عنيفاً، يبتلعها ابتلاعاً، يسحقها سحقاً، ثم تنبعث من جديد، من طرفه الآخر، من الثقب الأبيض، تنبعث وقد أعاد خلقها الذي يميت كل شيء، ليبعثه حياً كما خلقه أول مرة، قوله عزّ وَجَلّ:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[١].

وإذا لم نفهم الثقوب السود، فهما قرآنياً، كان في خروجنا من الثقوب البيض استحالات وإشكالات. ومن الإنذارات، قوله جلّ شأنه:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، إِنَّ الَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾[٢].

جميلةٌ الحضارة، ومخيفة، وجميلٌ العلم، ومخيف. . .

يبقى أن الأجمل من هذا كله، كما السعادة في كمالها واستمراريتها، أو الأكثر قبحاً، وأشدّ إرهاباً، هو عقل الإنسان، في التواصل معه أو في هجره، فمن أين هذا العقل، وبالتالي هذا الإنسان. وإلى أين؟!

بليغ هذا السؤال، والأبلغ منه الإجابة عليه، الإجابة التي تقول؛ لا إله إلّا الله الإجابة التي تضع على الحقيقة العين والقلب وكل ذرةٍ في الكيان. وقد وضعها ناس، فسعدوا سعادة الأبد. وما زال ناس آخرون، يمدّون إصبعهم، تارةً في عتمة، وتارةً بين النور والعتمة، وتارةً في سراب، وتارةً تحت قنديل ديوجين، الذي كان يسير به في ضوء النهار، باحثاً عن

(١) سورة يونس، الآية ٤.
(٢) سورة محمد، الآية ٢٤ ـ ٢٦.

الحقيقة. والحقيقة ما هي في عتمة، ولا هي في الشّك، ولا هي في سراب، ولا هي من ديوجين في مزحة أو خبال.

هذه الحضارة الجميلة، أرادها لنا الله سبحانه وتعالىٰ سعيدةً مسعدة. ولكن اشترط على الإنسان أن يعرف خالقه من آثار صنعه، وكرمه وعظمته. وأن يحترم النعمة العظمى، التي هي عقله، فيغذِّيه بعلم وهداية وكتاب منير، أسمع قوله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

وقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿طَه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآنَ لِتَشْقَى﴾[2].

وقوله عزّ شأنه:

﴿إقْرأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3].

وقوله عزّ شأنه:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

وقوله وما أكرمه:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[5].

ثم تنهال التحذيرات من تشويه وجه الحضارة:

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.
(٢) سورة طه، الآية ١.
(٣) سورة العلق، الآية ٣ ـ ٥.
(٤) سورة الجاثية، الآية ١٣.
(٥) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

﴿فَكُلُوا واشْرَبُوا وَلاَ تَطْغَوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾[1].

ثم: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾[2].

ثم: قوله جلّت عظمته:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة طَه، الآية ٨١.
(٢) سورة الرحمن، الآية ٧ ـ ٨.
(٣) سورة النحل، الآية ٢٦.

القيامة الاولى أو الصغرى

القيامة الأولى أو الصغرى:

وأعني بها الحرب العالمية الثالثة، التي نحن والعالم بصددها. وقد سميتها «القيامة الأولى» مجازاً، تشبيهاً بالقيامة الحقيقية، التي هي آتية بعدها، حاملة معها وعد الله ووعيده النهائيين.

فالحرب الآتية قيامة صغرى، لأنها سيكون فيها من الأهوال على الكافرين، والندم والإبلاس من رحمة الله خطوب عظيمة. ولأنها ستدكّ جوانب من الكوكب الأرضي هذا الذي نحن عليه، ستدكّ دولاً بما فيها من مدن وقرى وجبال راسيات. وتقتل ملايين الأحياء، وفي مقدمتهم من البشر، عبّاد الحضارة وعبيدها، أسياداً وتابعين.

والله عزّ وجلّ، كما جعل للقيامة الكبرى أشراطاً ونذر، كذلك جعل أشراطاً ونذر للقيامة الصغرى التي على الأبواب، وذلك تنبيهاً للعالمين لكي يستعدوا ويكونوا دائماً على حذر، ويفرّوا إلى الله سبحانه، حيث لا ملجأ ولا مأوى يؤويهم دونه. ومن أين الملاجيء إذا أصبح حصيداً عمران دول حضارة الفحشاء وعماراتها. وهذه علامة: قوله تعالىٰ:

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ

عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وفي ما يلي سنذكر من أشراط القيامتين التي يبدو أنهـا متداخلة والتي يبدو أنها في عزّ هجمتها في عصرنا هذا وأيامنا هذه، ولو كان لا يـدرك هذا الأمر ولا يتنبه إليه إلاّ بعض من لهم خصوصية من الله سبحانه.

ولكي نوفر على أنفسنا الوقت، لن نلتفت كثيراً إلى الوراء التاريخي، وإنما سنكتفي بإشارات معاصرة وعلامات، تفرض في كل عاقل أن يعتمدها استقراءً أو استنتاجاً. ليصل من خلالها إلى وجوب أن تقوم حـرب عالميـة، شبه شاملة لأرقام المعادلة أو أطرافها أو أقطابها حتى أنه يكاد يكفي الاعتماد في الاستنتـاج على ظواهـر الأمور، كمـا يفعـل الصحـافيـون أو المـراقبـون سياسيون وعسكريون.

وقد قلت (يكاد يكفي) ولم أقـل يكفي، لأنه ليس بكـاف في الحقيقة إلاّ علم من لدن الله تبارك وتعـالىٰ: اعتماداً على آيـاته ونـواميسه، وإخبـاره لمن يشاء من خلقه:

﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. . .﴾[٢].

﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٣].

والله سبحانه أذن بالإستنتاج والاعتماد نسبياً على الظواهر:

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾[٤].

---

(١) سورة يونس، الآية ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية ٤.
(٣) سورة الرو، الآية ٦ ـ ٧.
(٤) سورة الروم، الآية ٩.

ففضلاً عن الحربين الكبريين السابقتين وما قبلهما وما بينهما، من الفساد الذي ملأ البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. فأثمر الفساد والتنكّر لله ولدين الله، ولتعاليم الله، هاتين الحربين. فصبّ الله على الفاسدين والمفسدين غضبه وانتقامه وعذابه.

كذلك جاء عصرنا هذا مليئاً بالمفارقات والمغالطات، والظلم والجرائم على أعلى مستويات الدول، بين إلحادٍ في جانب، وفجورٍ في جوانب، وأتباع لهذا المحور وأتباع لذاك في شتى الأقطار، ممّا أنتج حالات سياسية شوهاء في بقاع الأرض، أقضت وما زالت تقض مضجع مليارات البشر في القارات الخمس.

من هم أنصار الله: اليهود المفسدون، أم العرب (الأميّون) والأمة المسلمة:

وأبرز هذه الحالات الطاغية الباغية، والأكثر نشازاً وفساداً وإفساداً في بقية حالات العالم، هي دولة إسرائيل، إذ أن إفسادها شمل شعوب العالم، وهو إفساد تاريخي ومبرمج مدروس، إفساد هادف، والهدف منه هو تدمير كل قيمة دينية أو أخلاقية، أو إنسانية، أو حتى اجتماعية واقتصادية في جميع شعوب الأرض، وفي كل من هو غير يهودي. إذ أن غير اليهود وهم المليارات البشرية التي تقطن هذا الكوكب، هم بنظر اليهود «أميّون» وهي ترجمة لكلمة «غوييم» العبرية وهم يعنون بها: المستوى البهيمي. ويزعمون أن المسلمين يقرّون بذلك إذ أن لفظة (أميين) واردة في قرآنهم على أنها تسمية للعرب الذين ارتضوها مقرّين بأمّيتهم التي معناها الجهل والفقر إلى المعرفة.

والواقع هو كذلك، فإن العرب وغيرهم من المسلمين لم يقفوا عندها طويلاً كعادتهم في انصياعهم لطاعة رب العالمين. ما داموا قد أكرمهم الله بكرامة الإسلام وكرامة القرآن وكرامة أعزّ المرسلين النبي الأميّ محمد ﷺ.

ولكن الأمر أبلغ وأعظم، حيث آتانا الله سبحانه حقيقة ما تعنيه.

المعنى القرآني للفظتي: أمّيّ وأمّيّين:

قال تعالىٰ:

﴿هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم﴾[(١)].

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَٰئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٢)].

في الحقيقة، إن لفظة (أُمّيّ وَأُمّيّين) أخذ يتداولها العرب قبل غيرهم، بعد نزول القرآن الكريم. إذ كانت الألفاظ التي تتعلق بها في اللغة شبه منسية. فبعثها القرآن بمعان فهمت فهماً مقارناً مغلوطاً بنسبة أو بأخرى. لذلك نجد لها احتمالات عديدة في تفسيرها، ممّا يدل على عدم الثبات عندهم على معنى واحد. ومن هذه الاحتمالات:

١ ـ إن النبي ﷺ وصفه الله سبحانه بالأمّيّ لأنه لا يقرأ ولا يكتب.

٢ ـ أنه سبحانه وصفه بالأمّيّ، نسبة إلى مكة التي تكنى بـ (أم القرى).

٣ ـ أنه [قيل لمحمد ﷺ (الأمّيّ) لأن أمّة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب][(٣)].

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة أمة.

فبخصوص هذه الاحتمالات المسلَّمة والمتداولة، ننفي كونه ﷺ أمّيّاً بمعنى أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب، وندّعي أنه كان أفضل من قرأ وكتب في تاريخ البشرية. ودليلنا بخصوص القراءة، أمر الله تبارك وتعالىٰ له بواسطة جبرائيل عليه السلام حين قال: إقرأ... (فعلى الرواية) قال ما أنا بقارىء... قال: إقرأ باسم ربك الذي خلق... فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ...﴾[1]. وهكذا قرأ رسول الله ﷺ أحسن قراءة عرفت، وظلّ يقرأ حتى أكمل الله عليه وعلى البشرية الدين الحنيف والقرآن المجيد وظلّ يقرأ هكذا حتى قبضه الله إلى رحمته وجواره وحبّه.

وكذلك رسول الله ﷺ كتب كثيراً، وإنما بنفس الطريقة التي بها قرأ. أعني بدون قلم ولا قرطاس. والحقيقة العليا للقراءة والكتابة، أنهما في العقلاني الذي هو قبل التجسيم الحسّيّ أو المحسوس، هما كذلك بدون أدوات ممّا نعرف ونتداول. حتى القلم واللوح، إضافة للقراءة والكتابة، لهما معان، فوق ما نتصور في عالم المحسوسات.

ولكن، صحيح أن محمداً ﷺ كان في العرف العادي لا يقرأ ولا يكتب بيده. إلّا أن الله سبحانه لو كان وصفه بالأمّيّ قاصداً جهله بالكتابة والقراءة، لما كان أولاً قال له اقرأ... فقرأ. ولكان ثانياً اكتفى بهذه الصفة صفة (الأمّيّ)، إذا كانت كما فهمها ـ خطأً ـ العرب ثم الآخرون. إلّا أنه حيث لم يرد سبحانه هذا المعنى، وإنما أراد لرسوله محمد ﷺ، أن يكون عُرْفاً، لا قارئاً ولا كاتباً، لذلك خاطبه عزّ شأنه بقوله:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2].

---

(١) سورة العلق، الآية ١ ـ ٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

فمحمد ﷺ لم يكن أمّيّاً بمعنى جهله القراءة والكتابة. فكونه كان يجهلهما معروف بالنص والسيرة. ولكن أمّيّاً ـ كما وصفه الله سبحانه ـ لمعان أخر، وكذلك قومه العرب. فما هي هذه المعاني؟...

إن هاتين اللفظتين (أمّيّ وأمّيّين) إنما هما في أوجه معانيهما، تشريف للنبي ﷺ وتشريف لقومه العرب. ففي تحليلهما اللّغوي، هما نسبة لأمّ التي معناها الأمّة، ففي لغة العرب: [(الأمّ كالأمّة) أنظر لسان العرب لابن منظور ج١٢ ص٢٧ ـ دار صادر]. و(الأمّة) إذا كانت تعني شخصاً، ففي جملة معانيها: (الأمّة: الرجل الجامع للخير، الأمّة: الإمام، الأمّة: العالم، الأمّة: الرجل الذي لا نظير له، إلخ...)[(١)].

ولفظة أمّة، في آية من آيات القرآن، تعني النبي إبراهيم عليه السلام، وهي قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[(٢)].

ونسبة الرسول الأعظم ﷺ ونسبة قومه العرب لأبيهم إبراهيم عبر ولده إسماعيل عليهما السلام معروفة ومشهورة حتى عند اليهود أنفسهم، ناهيك عن شهرتها التاريخية. إلاّ أن اليهود معروف عنهم تحريف الكلم عن مواضعه. وقد حرَمهم الله سبحانه من شرف انتسابهم هم والنصارى إلى إبراهيم، وقرّر هذا الشرف لمحمد ﷺ ولقوم محمد من العرب وكافة المسلمين. فليتأمل المتأمّل في تأنيبه لهم وللنصارى:

﴿ يٰأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُونَ فِي إِبْراهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾[(٣)].

ثم قوله تعالىٰ:

---

(١) نفس المصدر ـ لسان العرب.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٦٥.

﴿أَنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَٱللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وخليل الله إبراهيم هو رمز التوحيد في تاريخ البشرية، والتوحيد هو أصل الدين القيم، وروحه ونوره ومنطلق حقائقه وأسراره، وقوله تعالىٰ لمحمد ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

يعني التوحيد في أعلى منازله.

ثم قوله تعالىٰ للعرب قومِ محمد ﷺ وكذلك لجميع من التحق وسيلتحق بهم من المسلمين:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الفَاسِقُونَ﴾[٣].

وواقع أن في ذلك خصوصيةً واجتباءً (أي اصطفاءً) وتفضيلاً على بقية الملل وبقية الشرائع السماوية، بدلالة قوله سبحانه: **﴿ولو آمن أهل الكتاب...﴾** وتتضح هذه الخصوصية وهذا التفضيل أكثر فأكثر في قوله سبحانه:

﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا... وَجَـٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلواة وَآتُوا الزَّكوٰة واعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَنِعْمَ النَصِيرِ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٦١.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١١٠.
(٤) سورة الحج، الآية ٧٨.

هؤلاء هم الأمّيّون الذين شرّفهم الله سبحانه وأكرمهم بأن سمّاهم كذلك، ذلك لأنهم وحدَهم كانوا، وسيبقون في الأرض، ما بين قطبيها ومشرقيها ومغربيها، هم وحدهم أمَة التوحيد، أمة لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، والكون أحد، فالكون كله ليس كفواً لوحدانية الله وجبروته وعزّته.

وأهل التوحيد هم أنصار الله، وأنصار الله هم أهل التوحيد. وغيرهم ليسوا أنصار الله لأنهم غير موحدين.

فاليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقالوا عُزَيْرٌ ابن الله، وغيرهم بقية أهل الأرض، يراوحون بين وثنية وصنمية وإلحاد، في عقائدهم وضلالاتهم ومعبوداتهم من تعبّد لأصنام منحوتة أو مصوّرة في الكنائس ومعابد الشرق الأقصى إلى تماثيل ماركس ولينين وستالين وغيرهم في الإتحاد السوفياتي وبقية دول الإلحاد سواء على الطريقة الشيوعية أو على الطريقة الرأسمالية. أصبحت مع اتساع الأعلام الحديث ظاهرة مكشوفة، ليست بحاجة منّا إلى أن نورد صوراً ووثائق وأدلة.

المسلمون يشهدون كل يوم شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وكل أهل الأرض غيرهم، يعبدون ما ينحتون، بين نحت فكر ونحت إزميل، حتى أن ملايين تثور لأجل صنم أسقطه على الأرض ثوار آخرون: هؤلاء لأنهم حكموا باسمه فأكلوا حقوق الآخرين قمعاً وظلماً، وهؤلاء لأن صاحبه كان وعدهم الشبع، فما وجدوا لديهم إلاَّ الجوع، الذي أشدّه جوع الأنفس، ثم الضياع الذي أسوأه البعد عن الله تبارك وتعالىٰ.

والله سبحانه لا ينصر إلاَّ أنصاره:

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١].

* * *

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٠.

التوحيد. . . وأنبياء وأولياء. . . والمهدي المنتظر. . . والله أكبر:

قال الله تعالىٰ:

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ للحَوَّارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ الحَوَّارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1].

والتأييد هو التوفيق والتمكين المتوّج بالنصر، وقد أنعم الله عليهم بكل ذلك لأنهم ما سقطوا في الشرك. وفي السؤال ابتلاء يبتلي الله بمثله من يشاء من عباده.

وهؤلاء الذين هم صدّقوا بالمسيح نبيّاً مرسلاً من لدن الله تبارك وتعالىٰ، كانت عقيدتهم التوحيد، إذ أنهم كانوا حقاً أنصار الله، ولم يكونوا أنصار المسيح، إذ هو معهم أيضاً نصير الله، وأبلغ دليل على ذلك، بلاغة جوابهم، ودقّته وحرصهم على كل حرف فيه، وهم لو أنهم قالوا للمسيح عليه السلام، نحن أنصارك إلى الله، حسب توجيه سؤاله، لما كان في ذلك في الظاهر خطأ ولا شبهة. وإنما هو سرّ التوحيد، وسلامة التوحيد، والصدق في التوحيد، والولاء الحقيقي والكلّي لله سبحانه، الولاء الذي لا يشوبه أدنى شائبة من الولاء لغير الله، إلَّا ما أمر الله به، وبالنتيجة يكون الولاء لله وحده وحده وحده لا شريك له، ومثل ذلك قوله تعالىٰ:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ. . .﴾[2].

ولم يقل سبحانه: محمد وأنصاره، أو أتباعه، أو أي تعبير آخر، علماً أن عشرات الآيات، يقرّر فيها سبحانه بديهية الإتباع لمحمد ﷺ ولجميع أولياء الله:

---

(١) سورة الصف، الآية ١٤.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[١].

هذا فضلاً عن أن لمحمد وآل بيته خصوصية وامتيازات، ليست لأحد من خلق الله ممّن سكن بعدهم هذه الأرض. منها أنهم من مقاليد السموات والأرض، ولو كان على الله وحده يتوكّل المتوكلون، إلاَّ أن بهم كذلك يتوسّل المتوسلون. ولكن بالرغم من هذه الخصوصية والإمتيازات، لمحمد وآل بيته عليهم السلام، تبقى حقيقة حقائق الإتّباع، هي في غايتها القصوى لله تبارك وتعالىٰ، وذلك هو المراد في قوله عزّ شأنه وجلّت عظمته:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إلى الحقِّ قُلْ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهْدِي إلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢].

ومحمد ﷺ لا يهدي إلاَّ أن يُهْدَى، وكذلك آل بيت محمد ﷺ وكذلك نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، وجميع الأنبياء والرسل والأئمة وجميع خلق الله. وهكذا فإن محمداً ﷺ والذين معه، هو وهم جميعاً أنصار الله جلّت قدرته.

طبعاً مع الفارق الذي يكاد لا يقاس بين محمد وآل بيته من جهة، وبين أهل الأرض كلهم من جهة ثانية، ومع هذا الفارق العظيم، يبقى من وجوه شرف محمد أن يكون عبداً لله، يقول له ربّه سبحانه:

﴿قُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً﴾[٣].

فيرفع يديه إلى ذي الجلال والإكرام، خاشعاً خاضعاً، فقيراً إلى عنايته وهدايته ورحمته، ويقول: «ربِّي زدني علماً».

---

(١) سورة لقمان، الآية ١٥.
(٢) سورة يونس، الآية ٣٥.
(٣) سورة طه، الآية ١١٤.

لا تدعوا مع الله أحداً. . .

وفي أن أي وليّ من أولياء الله، لا يضر ولا ينفع إلاَّ بعناية من الله وتوفيق من الله، وإذنٍ من الله، وتسديد منه سبحانه، وأنه لا يجوز أن ندعو مخلوقاً من دون الله ولا أن نناديه ولا أن نناجيه، قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً. قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً﴾[١].

وواضح معنى الآية الأخيرة، قل يا محمد، أنك لا تملك لهم ضَرّاً ولا نفعاً، فالله سبحانه هو المالك لك ولهم، بيده ناصيتك ونواصيهم.

وكذلك في وجوب أن لا يُدْعَىٰ مخلوق من دون الله، قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢].

والتوجّه بالدعاء لعباد الله، أو طلب النجدة، أو المساعدة منهم، أو قضاء الحاجات، نجده أكثر ما يكون عند اليهود والنصارى، ناهيك عن أصحاب الديانات الوثنية في أقطار الأرض. وللأسف أيضاً، نجده عند كثرة من عوام المسلمين، حيث يقدّمون على ذلك ـ على إمكانية أن يستجيب المخلوق الوليّ، لمن يدعوه ـ أدلةً، فيها من ابتلاء الله لهم ولسمّاعهم العجب العجاب. فكلما دعا داع عبداً من عباد الله، نبيّاً كان أو إماماً أو وليّاً، وأجيبت حاجته كان الله سبحانه وتبارك وتعالىٰ، هو المجيب وليس عبده الصالح. ويفسّر هذه الأمور بجلاء، هذه الواقعة التي يقبل معانيها

---

(١) سورة الجن، الآية ١٨ ـ ٢١.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٣ ـ ١٤.

القرآن الكريم. إذ نحن ملزمون، بعرض كل حديث على القرآن الكريم للتأكّد من سلامته:

عندما صنع السامريّ عجلاً لبني إسرائيل، سجد له الفريق الذي طلب إلهاً مجسّماً يعبده، وتردّد آخرون، فأخذ العجل يخور، فحسم المتردّدون أمرهم وسجدوا مع الساجدين. وكان أن رجع موسىٰ من ميعاده مع ربّه تبارك وتعالىٰ، ونسف العجل في البحر، وأبلغ أمر الله سبحانه بأن يقتلوا أنفسهم تكفيراً عمّا وقعوا فيه. وبعد أن هدأ غضبه، أخذ يفكر في الأمر من بدايته، حتى وصل إلى أن العجل كان يخور، فمن أين الخوار؟! وسأل ربّه تبارك وتعالىٰ قائلاً: يا ربِّي أما العجل، فصنعة السامريّ وساعده بنو إسرائيل، وأما الخوار فممن وهو الأمر الذي فتنهم أيما فتنة؟ قال له تعالىٰ: منّي يا موسىٰ لأزيد في فتنتهم وإضلالهم، بعد الذي أبديت لهم من نعمي ورحمتي وآياتي، فأبوا إلاّ أن يعبدوا إلهاً مزعوماً غيري.

فإذا كان بنو إسرائيل، في ذاك الزمن، قادهم خيالهم الفاسد، إلى صناعة عجل معدني، نصبوه وعبدوه، فإن هذا الخيال بعينه، ما زال موجوداً في هذا الزمان، وإنما بشكل متطور، تطورت معه كذلك نسبة الكفر، والإقبال على ما هو مادي ومجسّم. لكأن أكثر الناس في التاريخ، يرتاحون إلى الكساح، ويفضلونه على التحليق وبذل الجهد فيه، لمعرفة الحق الأزليّ الأبدي. لذلك نجد أكثر الناس من أصحاب الملل، استبدلوا تماثيل بشرية، بتلك الحيوانية. والذين ترقوا في كفرهم أكثر فأكثر، استعاضوا عن التماثيل الحيوانية والبشرية، بأولياء لله يعبدونهم أحياء أو أمواتاً. ومن هنا قوله فيهم عزّ شأنه:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ أَنَّا اعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾[1].

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٠٢.

وغاية الأمر أن يكون الله من وراء القصد في أتباعهم أولياء الله، بأن لا ينسى المتولي لعبد من عباد الله، نبياً كان أو وليّاً أو إماماً، أو عبداً صالحاً، أو أحد والديه أو كليهما، أنه إنما يتولّى عبد الله هذا، لأنه منيب إلى الله، داع إليه سبحانه. فإذا كان نبياً فلأنه يدعو إلى الله الذي لا إله إلاّ هو الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وإن كان إماماً وصيّاً أو وليّاً فالأمر كذلك. يضاف إلى ذلك وجوب الحذر الشديد من الشرك الخفيّ. ويكون ذلك بأن يتذكر الإنسان دائماً أن الله سبحانه هو الحيّ القيوم، السميع البصير، وهو وَحْدَهُ على كل شيء قدير: قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[1].

وقوله عزّ شأنه:

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرُ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾[2].

وبعد، أفلا يستحي المخلوق أن يدعو غير الله، والله أقرب إليه من حبل وريده، أقرب إليه من دمه الجاري في أعراقه، أفلا يخجل الإنسان أن يكون الله ربّه العظيم أقرب ما يكون إليه، ثم يصيح ويستنجد بعبد من عباد الله، حيّاً كان أو ميتاً، سامعاً أو غير سامع كأن يقول يا فلان أدركنا، ويا تمثال أرزقنا، أو يا وليّ أو يا نبيّ أو يا شفيع آنصرنا وآكفنا.

الله صاحب العصر والزمان:

والأعجب من هذا كله، إني عاشرت أناساً هم في موقع المسؤولية الدينية، يحصرون المصير والمستقبل، وحتى تفاصيل الأمور الدولية تحت عمامة مخلوق من عباد الله، وينتظرون بفارغ الصبر مُنقذاً من الخلق وناصراً

---

(١) سورة قٓ، الآية ١٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية ٧.

من الخلق وهادياً من الخلق، بينما المنقذ والناصر والهادي أقرب إليهم من دمائهم، وهو معهم أينما كانوا وهو الله الذي لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم، ينسونه سبحانه ويتوكّلون على عباده، وإن نوقشوا في الأمر، لفّوا وداروا ثم ادعوا الزُلْفَى ورجاء الشفاعة، اللتين بريء الله منهما إذا كانتا في واقع شرك أو جحود:

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[1].

ليس هذا الكلام تنكّراً أو إنكاراً للمهدي المنتظر عجّل الله فرجه الشريف، فإن معظم كلامنا الذي دار حول وعود الله عزّ وجلّ بنصر الإسلام في هذا الزمان، وبميراث الأرض، وبالفتح المبين الذي تزول معه دولة بني إسرائيل، كان إشعاراً وإشارة إلى قرب موعد بعثه عليه السلام.

ولكن الطامة الكبرى، التي طمّ بها أكثر الذين ينتظرون بعثته الميمونة، هي أنهم نسوا الله، وتعبدوا لعبده المهدي المنتظر، الذي ناصيته بيد الله، والذي لا حول له ولا طول ولا قوّة إلاّ بالله، فأخذوا ينادونه ويدعونه، ويسألونه حاجاتهم، ويشكُون له الزمان والأيام والأقوام الظلمة، وهو إذا كان بعيداً لا يسمع، وإذا كان قريباً لا يستجيب، والدليل على ذلك كثرة دعائه وندائه من قِبلهم، وعدم الإجابة من قبله، ذلك عبر مئات السنين، بمصائبها وملماتها وكوارثها، وظلم الظالمين وغدر الغادرين، وكثرة الوقعات التي شاب ويشيب لها الأطفال. ثم إذا هم قوّموا الحصاد والمحاصيل، رجعوا بخفي حنين. ومع ذلك ما يزدادون إلاّ دعاء ونداء وكتابة لا فتات: يا مهدي أدركنا، ويا صاحب الزمان أدركنا ولا مجيب...

فيا الله، يا ربنا وربهم، يا رب العالمين، أدركنا وأدركهم ولا تجازهم بأقوالهم وأعمالهم فإنهم لا يعلمون. ربنا واشرح صدر عبدك المهدي عليه السلام، ويسّر أمره، وانصره على أعدائك وأعدائه نصراً عزيزاً، وفرّج به

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٦

كربات هذه الأمة المسلمة لك، وآتها ما وعدتها على رسلك، فإن وعدك الحق، وأنت العزيز الحكيم، الحليم الكريم، وأنت أرحم الراحمين، وأنت صاحب الزمان، والأزمنة والأمكنة:

﴿مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾(١).

إذا دعي الله وحده كفروا:

فتعبداً بآيات الله تبارك وتعالىٰ، لا بما يصدر عن هوى الأنفس والمزاج والتقليد الأعمى لكثير من الأدعياء الأغبياء الذين يفترون على الله الكذب، ويشهدون لما لم يروا ولم يتبينوا. لم يتدبروا كتاب الله ولا سنّة رسوله، ولا سنن أهل بيته عليهم السلام. وتعبّدوا بمزاعم وأقاويل هي أقرب إلى الجهل والعصبية منها إلى الإيمان واليقين. نسأل الله لهم المزيد من الهداية والسداد والرشاد، ونذكرهم بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وقوله سبحانه:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾(٣).

وقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٤).

ثم في جولة عقلية في الكون، انطلاقاً من الأرض وأهلها وسكانها من جميع من خلق وما خلق الله، ومنذ بداية البشريّة وما قبل البشريّة،

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٩.

(٣) سورة غافر، الآية ١٢.

(٤) سورة النساء، الآية ٤٨ و ١١٦.

جولة نستعرض بها أكابر خلق الله ممّن نبأ وممّن أرسل وممّن قُرِّبَ نجياً، فهل نجدُ فيهم جميعاً وإلى أبد الآبدين، أحداً خلق أو رزق أو فتق سماءً بغيثٍ، أو رتَقَ أرضاً بعد فوران بركان، أو سميعاً بصيراً، أو مجيباً قديراً، أو حياً قيوماً، أو فعالاً لما يريد، أو ذا بطش شديدٍ، أو لا يعذب عذابه أحدٌ، ولا يوثِقُ وَثاقَهُ أحدٌ، أو أحداً له الأسماء الحسنى، وله المثل الأعلىٰ في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، غير الله؟!. . . فما للإنسان يصُدّ عن هذا الإلّه العظيم، ذي العرش المجيد الكريم، ويستجير بغيره، ويستغيث بسواه؟ كدعائهم يا محمد يا علي أنصراني إنكما ناصران واكفياني أنكما كافيان، أو يا مهدي أدركنا، أو يا مسيح نجنا وارزقنا، أو يا موسىٰ ملكنا رقاب العالمين، والله سبحانه يدمغ هؤلاء جميعاً ببيناته وحججه وآياته، يزرعها في عيونهم ويجعلها أغلالاً في أعناقهم يقول:

﴿قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿اَللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمَّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2].

يدبر الأمر كله، وحده لا شريك له، بدون مساعد، ولا معاضد، ولا يتعبه أدنى تعب حفظ الكون وتدبيره بما فيه من الأفلاك والسموات الهائلة الاتساع، والأرضين وما فيهن وما بينهن، وما يرى من إنسان وحيوان ونبات في البر، وحيتان ومخلوقات في البحار والأنهار، وما لا يرى من الملائكة

(١) سورة المؤمنون، الآية ٨٩.

(٢) سورة الرعد، الآية ٢.

وأصناف الملائكة، والشياطين وأصناف الشياطين، والجن وأصناف الجن.

كل ذلك فضلاً عمّا في كرسي العرش، ثم ما في العرش العظيم، ممّا لا يستطيع تخيّل صورة عنه فكر مخلوق. وكيف يستطيع والإنسان مع ما سخّر له تبارك وتعالىٰ من الكون، وسخّر له ما في السموات والأرض جيمعاً منه سبحانه، ومع ذلك ما استطاع ولن يستطيع إدراك أبعاد هذه السماء الدنيا وحدها. وأعلم علمائه يقرّون بأنهم ما أدركوا بعد حدّاً لها، ولا حتى لأكثر مجراتها السابحة تحت هذا السقف الجميل.

﴿قُتِلَ الإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾(١).

قتل الإنسان وهو يجحد عظمة ربه، ويقف عند غيره مادحاً، منشغلاً بسواه، متعبداً لعبيده، منتظراً منهم لا من ربهم النجاح أو الفلاح أو الفتح المبين.

قتل الإنسان وهو ينسى عظمة ربّه السميع المجيب، ثم يذكر دائباً عبيداً من عباد الله لا هم السميعون ولا هم المجيبون.

وقد يدمي وهو يستجير بهم رأسه ووجهه دون قتال.

أآلهة من دون الله، أم شركاء لله؟...

وبإخراج فني وإيقاع جماعي، قد يلدم صدره وظهره، ويقول: بدعة مستحبة.

فمن أجهل وأغبى من إنسان يرهن نفسه بمخلوق، أو بمخلوقات من ملائكة أو جن أو إنس، وهم لا يشعرون به. ولو شعروا وكانوا من أهل الإيمان العالي لمقتوه في الدنيا، وكفروا بشركه في الآخرة.

قتل الإنسان وهو يملأ قلبه حتى الجمام بحب غير الله، وهذا القلب لا يكون كريماً ولا معافىً، ولا مصفىً، ولا يصطفى إلاّ إذا مليء حتى الجمام بحب الحبيب الأعظم رب العالمين الرحمٰن الرحيم. فإذا فاض

(١) سورة عبس، الآية ١٧.

شيء من هذا الحبّ على جوانب هذا القلب، فلا بأس أن يكون لمن أذن الله بمودتهم من أنبياء وأوصياء، وأهل وأئمة. لأن ما يفيض على جوانب القلب من حب الله، يكون أيضاً حبّاً مقدساً. وفي هذه الحال فقط، يجوز أن يختص به أولياء الله وأحباءه، والأخلاء المتقين، إذ يقول سبحانه:

﴿الإِخِلاَّءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إلاَّ المُتَّقِينَ﴾(١).

قتل الإنسان الكفور الجحود، يغرقه الله بنعمه ويكفر ولا يشكر، ويتحبب سبحانه إليه بالثناء على بعض ما عمل من الصالحات، ويكون هو سبحانه مكّنه من ذلك، فيدير له ظهره معتدّاً بقدرته البشرية، وهي لا تقوم إلاّ بالله الذي تقوم به السموات والأرض، وما ومن فيهن، وما ومن بينهن.

من هنا حاجة الإنسان التي لا تعلو عليها حاجة، إلى النجاح في الابتلاء، النجاح المؤدي إلى التوحيد الصافي، الأصفى من الفجر في الجنة، والأعذب من الماء البارد النمير على غلة العطشان، والأقرّ للعين وللقلب من كل ما في الوجود.

وهذا الابتلاء درجات، كما أن فهم التوحيد درجات عند الموحدين، ومن هنا يفهم الاتّباع وتفهم الولاية.

ولا ينسيّن أحد أننا نكتب لأهل القرن العشرين، مسلمين وغير مسلمين، غير متعرضين ـ بدون طائل معاصر ـ لقضية السقفية وما بعدها... ولا لولاية الإمام المنتظر عليه السلام، ولا حتى لولاية الفقيه. لأننا إنما ندعو ليس المسلين وحدهم، وإنما جميع أهل الأرض، إلى التوحيد باسم الله وبتعاليم الله، على أن أساس هذا التوحّد والتعاليم، هو توحيد الله جلّت عظمته، وولاء جميع الناس له على شتى درجاتهم الدينية والاجتماعية، قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٦٧.

وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ. أَمْ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ فَٱللَّهُ هُوَ الوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[1].

فالاتّباع في توجيهات الله تبارك وتعالىٰ أمر متدرج من أتباع المؤمنين إلى أتباع الأنبياء والرسل والمنيبين إلى الله عامة، لأن ذلك كله طرداً وعكساً يؤدي إلى إتباع الله، يعني الكتب المنزّلة الصافية، يعني أتباع القرآن وما صحّ عن الرسل وأوصياء الرسل، يعني أتباع الحق، وبكلمة أخيرة حاسمة، يعني أتباع الله تبارك وتعالىٰ وعزّ شأنه وجلّت قدرته.

كذلك مفهوم الولاية، وهو مفهوم خطر وشديد الحساسية، فالذين فهموا الولاية وقوفاً عند نبي أو إمام أو وليّ من أولياء الله دون العبور بأسرع من الضوء إلى التوحيد بالأسماء الحسنى، فقد وقعوا في الشرك. حتى ولو ادّعوا بعدها أنهم إنما كانوا يرجون بذلك الزلفى أو الشفاعة. إذ أن ذلك يقودهم إلى التعبّد للوليّ قاصدين أو غير قاصدين، عن وعي أو غير وعي. فينصرفون إلى التعبّد بأقوال الشفيع حتى ولو كانت مزعومة، أكثر ممّا يتعبّدون بآيات الله تبارك وتعالىٰ، وفي ذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى، الآية ٨ ـ ٩.

(٢) سورة يونس، الآية ١٨.

(١٤)

الاسرائيليون
افسادهم الثاني وعلوّهم الكبير

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيراً. وَأَخْذِهِمُ الرِبَوَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسَ بِالبَاطِلِ وَآعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

(١٦٠ ـ ١٦١: النساء)

إن إفساد بني إسرائيل في الأرض، أمر معروف عند القرآنيين المستنيرين بالله، وهو أمر مراقب عند الراسخين القرآنيين. ومن وجوه علم الله سبحانه فيما يختص بخلقه:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[1].

فهو سبحانه، جلّت قدرته وعزّ شأنه، قد أخبر في كتابه الخبر اليقين، الخبر العجيب، الذي نراه في عصرنا هذا، ويوماً بعد يوم، هو ينطبق آيةً آيةً، وكلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، قوله تعالىٰ:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾[2].

فليس عبثاً هذا الإفساد الفظيع الرهيب، الذي أفسده بنو إسرائيل في

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٦.

عصرنا هـذا في شعوب الأرض. فما من موبقةٍ على صعيد الأخلاق، وما من فتنة على صعيد الشعوب والدول. وما من فاحشة على صعيد الربا، (مؤسسات وأفراد)، والتعبّد للمال، للذهب والفضة، ولما يسمّى (الاقتصاد)، وما من سكّين مزّق في جسم الإسلام وجسم المسيحية، أو سم ديف في كتبهم وتاريخهم ومعتقداتهم وأحاديثهم وأفكارهم إلاّ وكان الشريكَ الأكبَرَ في ذلك كلّه أقلامٌ أو مؤسساتٌ أو جميعاتٌ أو عصاباتٌ يهودية.

ولا بدع منهم في ذلك. فهم شهدوا على أنفسهم بما ذكرت وبأكثر ممّا ذكرت، وتاريخهم يشهد، وكتبهم التي أصبحت بين أيدي الناس تشهد، وكذبهم وافتراءاتهم وادعاؤهم أن الله سبحانه وعدهم... ووعدهم... كل ذلك يشهد أنهم المفسدون في الأرض، ولذلك باؤوا بغضبٍ من الله تبارك وتعالىٰ، قوله عزّ شأنه فيهم:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[1].

ولو أني أردت أن أعطي أمثلة، أو أقدم أدلة موثقة على ذلك، لاقتضى الأمر مني مجلدات. على أن البدع الغريبة العجيبة في عقيدتهم لم تعد خافية على أحد من العقلاء والمفكرين. كذلك وضع الوضاعين والكتب التي كتبوها بأيديهم والتي غدت معتمدة أكثر من التوراة. حتى التحريف الفظيع لأخبار التوراة زيادةً على النص وتشويهاً في التفسير، لدرجة أنّ هذا الكتاب الذي كان مقدساً ككتاب سماوي، لم يعد كذلك، إذ أنه اختلط فيه ما أنزل الله سبحانه على موسىٰ عليه السلام بما كتبه الأحبار، وبما افترضه عزرا كبير أحبارهم في العراق ـ أثناء السبي ـ تعويضاً

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٢.

عن النقص الكبير الذي لحق بالتوراة، بعد مصادرة كتبها وحرقها من قبل الفاتح البابلي نبوخذ نصر. فحيث أن عزرا لم يجد نسخة كاملة للتوراة، شرع يأخذها من أفواه الحفاظ، ومن وريقات مشتتة، ثم رقَّع النقص الباقي بما أدخله إليه شياطينه. وفي ذلك ما يغني عن تقويم هذا الكتاب الذي كان مقدساً، بعد هذه العمليات التي ليست مقدسة.

على أن ما جعلهم مستقبحين مكروهين من جميع الناس، كون أكثرهم يستحلّون مال غير اليهودي، وحتى دمه، هذا أولاً، وثانياً نظرتهم لأنفسهم من جهة وللعالم من جهة ثانية، وهي نظرة إبليسية، على أنهم من معدن فوق البشر، والبشر من تراب، وإلى قسوة في القلوب، يشهد عليها إضافةً إلى حاضرهم الوحشي، تاريخهم الربوي حيث أجاز بعض اليهود فيه الاقتطاع من لحم من لا يستطيع أن يسدّد إليهم الفائدة مالاً نقدياً. وقد كتب في هذا كثرة من كتاب أوروبا قديماً وحديثاً. هذا وغيره من سلبياتهم الأخلاقية الكثيرة، جعل شعوب أوروبا المسيحية، في كثير من الأحيان، يثورون ويهاجمونهم في أحيائهم الخاصة، بردّات فعل غاضبة، يمارس فيها ضدّهم القتل وإحراق المنازل. وهذه الأمور من المشهورات قبل ثلاثينات هذا القرن العشرين، على مستوى الدول الأوروبية كلّها تقريباً، من بروسيا إلى بولندة إلى ألمانيا وإيطاليا وإنكلترا وفرنسا وغيرها من دول أوروبا.

أما الأعاجيب التي لم يسبقهم إليها شعب بدائي ولا أمّة همجية فهي التي مارسوها ضد العرب المسلمين والمسيحيين في فلسطين، فإن تاريخ البشرية لم يشهد فظاعات ممهورة بالحقد الملوّن بألوان الحرباء، الحقد الذي لم يشفه حتى الآن ذبح الأطفال وبقر بطون الحوامل في فلسطين، طبعاً إضافة إلى قتل الشباب والشيوخ في مذابح جماعية، تنفذها عصابات إرهابية منظمة تنظيماً دقيقاً ومباركةً بلغة الحاخامات الشيطانية وموجهة بأفظع حركتين مفسدتين في تاريخ البشرية: الماسونية التي تتزيا بكلّ أزياء العالم ومغرياته التي خدعت كثيراً من رجال العالم حتى الأذكياء منهم، وهي الحركة الأم، ثم وليدتها الحركة الصهيونية.

وهاتان المؤسستان ـ مع ما يرتبط بهما من حركات مشبوهة، كثيراً ما تتخذ صفات عالمية وشعارات إنسانية ـ ما زالتا تفتكان بالبشرية وأمنها وسلامها وأخلاقها وقيمها فتكاً ذريعاً.

وهاتان الحركتان، هما اللّتان أقامتا دولة بني إسرائيل، على أشلاء وجراح المسلمين والمسيحيين، لا لشيء، إلاَّ لأنَّهم مسلمون ومسيحيون.

ثم أخذت هذه الدولة تطول أذرعها كما الأخطبوط، حتى ليمكن القول، إنه ما من كارثة سياسية أو اقتصادية أو حتى اجتماعية أو أخلاقية، تحلّ في بلد ما، أو دولة ما، إلاَّ ويكون لذراع من أذرع الأخطبوط الإسرائيلي شأن خبيث فيها لدرجة أن هذه الأذرع اشتهرت بالاغتيالات والغدر، وكانت وراء معظم الحروب الأهلية في أكثر دول العالم، كما كانت وراء تأسيس حركات الإلحاد العالمية وعلى رأسها الفكر الإلحادي الشيوعي، الذي أقام له دولة عظيمة أصبح اسمها الاتحاد السوفياتي، كادت تبتلع بعقيدتها الشّاذة الهدّامة أكثر من ثلثي العالم، لولا أنّ الله سبحانه شأنُ في تحجيمها وإرهاقها من الداخل حتى تكون سهلة المنال أمام هجمة أمريكية ـ أطلسية ـ تمزقها على جميع الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية بعدما تكون قد هيّأت لها ـ في الظاهر ـ نفس دولة بني إسرائيل وحركة الصهيونية العالمية، ليس حبّاً بأمريكا ودول الحلف الأطلسي وإنما محاولة جاهدة، لزجّ الدولتين العظميين في أتون حرب تعتقد إسرائيل أنها ستكون القاضية على كلتيهما وكذلك على أكثر الدول وأقواها والتي لا بدّ أن تكون بشكل أو بآخر وقوداً لهذه الحرب، فتبقى إسرائيل هي الدولة الأقوى في العالم، فتخضع الأرض، وأهل الأرض لمشيئتها وأحلامها، ولكن مشيئة الله هي التي تتحقق وليس مشيئة إسرائيل ولا غير إسرائيل. فإن توقيت الحرب زماناً ومكاناً وضيقاً واتساعاً إمّا بأمره سبحانه وإمّا بإذنه، فإنه يستحيل الخروج من سلطان الله. ولقد سبق قوله تعالىٰ في بني إسرائيل ومحاولاتهم دائماً إشعال الحروب:

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾(١).

فيبتليهم ويخزيهم أو يأذن لهم أو لغيرهم ساعة يريد وكيف يريد، مع حسابات متناهية في الدقة، تتصل بجميع الفرقاء، لا يقدر عليها غير ربّ العالمين.

فهذا إذن، هو التصوّر اليهودي الذي لا يدركه في العالم إلاّ من امتحن الله قلوبهم للإيمان واختصّهم برحمته الواسعة. ولأن أهل الغرب عامة أغلقوا قلوبهم دون رحمة الله، وبرأوا اليهود من كفرهم بالمسيح عليه السلام ومن عدوانهم على المسيح والمسيحية في التاريخ قديماً وحديثاً، ولأنهم ارتضوا بذاءة اليهود في حقّ مريم عليها السلام، ولأنّهم سكتوا أذلّةً أمام تشنيع اليهود عليهم وعلى اعتقادهم بقداسة المسيح وأمّه، وأكثر من ذلك، لأنهم أداروا ظهورهم كلياً لله ولدينه وتعاليمه، واتّبعوا الهوى وفرحوا بما عندهم من العلم، لذلك كلّه ختم الله على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فتركهم ينخدعون بمزاعم اليهود من حيث صداقتهم للغرب عامة وللأمريكيين خاصة. والأكثر انخداعاً بذلك، هم الكهنة الإنجيليون في الولايات المتحدة الأمريكية، والذين يروّجون تبعاً لإيحاءات اليهود الكتابية والشفوية أن الحرب ستنتصر فيها أميركا وحلفاؤها، وأنها حرب تعبّدية يتقرّبون بها إلى الله عزّ شأنه. وأن حرباً أخرى آتيةً اسمها هرمجيدون (سهل مجدو في فلسطين) سيفنى فيها ملايين العرب... هذا إلى آخر الادعاءات والمزاعم الإسرائيلية المتداخلة بغباء الشعوب المادية التي كانت مسيحية، والأمريكان وفي مقدمتهم الكهنة الإنجيليون ومن وراءهم ملايين شعبهم ولا سيما الحزب الجمهوري وعلى رأسه عدة رؤساء للجمهورية وعلى رأسهم جميعاً المخدوع الرئيس بوش، كلّ أولئك كانوا مقتنعين بوجوب شنّ حرب على الاتحاد السوفياتي، وكانوا

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.

يعملون على ذلك ويمهدون لساعة الصفر، وواقع الحال أن ساعة الصفر ستقع، ولكن ليس في الزمان والمكان اللّذين يريدهما الإسرائيليون والأمريكان.

والذي نعلمه بفضل من الله ولا يعلمه الأمريكان والحلفاء الذين انتصروا على الاتحاد السوفياتي وحلفائه، هو أنهم سيشتبكون مع الصين في حرب ضارية، ويستمران يتغالبان... فكيف ستكون النهاية، فهل حقّاً سيقطف اليهود الثمرة العالمية بحكم الأرض؟ هكذا يعتقدون سرّاً، ومن أجل هذا يعملون ليلَ نهار، ولكن:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[١].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾[٢].

نحن ـ بفضل من ربنا ـ نعلم ما لا يعلمون:

﴿إِنَّ هَـٰذَا القُرآنَ يَهْـدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّـذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[٣].

﴿إِنَّ هَـٰذَا القُرآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْـرَائِيـلَ أَكْثَـرَ الَّـذِي هُمْ فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤].

وفي جملة ما يختلفون فيه أن أكثرهم يعتقدون أن واقع فسادهم وإفسادهم إنما هو صلاح وإصلاح، بينما بعضهم وهم الذين رفضوا الانضمام إلى هذه الدولة الإرهابية إسرائيل، ورفضوا المجيء إلى فلسطين، يعتقدون ـ وهو الحق ـ إن هذه الدولة في غضب الله، وإنها خلاصة الإرهاب العالمي المنظّم، وإنها بالنتيجة تسير نحو الهاوية، لتسقط فيها من

---

(١) سورة الفجر، الآية ١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٩.

(٤) سورة النمل، الآية ٧٦.

شاهق بعد بلوغها العلوّ الكبير الموعود، يتضح ذلك كله في القرآن المجيد، حيث يقول سبحانه عن القلة القليلة الصالحة فيهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُم يَحْزَنُونَ﴾[١].

فيجعلهم في جملة المسلمين والنصارى الناجين إلى نعيمه ورحمته والمحفوظين من غضبه وانتقامه في الدنيا والآخرة. وحيث يخاطب الباقين من بني إسرائيل بقوله:

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً﴾[٢].
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيْلا﴾.

فلقد تحقق إفسادهم في المرة الأولى، وصبّ عليهم ربك سوط عذاب في تلك المرحلة بسبب خيانتهم وإفسادهم وغدرهم عهد رسول الله محمد ﷺ، عهد النبوة الميمونة، إذ رغم الأدلة القاطعة عندهم في التوراة، عن هذا النبي المرسل، واسمه وصفاته، وتصديق ما بين يديه، ممّا أنزل الله سبحانه على نبيهم وعلى رسول الله عيسىٰ عليهما السلام، فقد أنكروه ومكروا مكراً كباراً، وكادوا يفعلون به كما فعلوا بالمسيح عليه السلام، من محاولة صلبه، وقتل أصحابه ذبحاً وصلباً وتشريداً. وهم إلى الآن يعتقدون أنهم إنما صلبوا المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام، كما يعتقد ذلك وللأسف، المسيحيون عامة. إلاّ أن الله سبحانه، رفع المسيح إلى السماء ثم ليرسله مرة أخرى بين يدي الساعة، وهذا عصر إرساله إن شاء الله - وسلّط عليهم محمداً ﷺ وأصحابه، فجاسوا خلال ديارهم، وأخرجوهم من شبه الجزيرة كلها حيث حرمها الله سبحانه عليهم إلى الأبد، وهو قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٤.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ﴾[1].

كما تعني هذه الآية، إخراجهم كذلك من فلسطين وإلى الأبد، يوم يتحقق وعده سبحانه في الآيات التي ذكرنا من سورة الإسراء: وقد تحقق ولله الحمد، إفسادهم الأول، وَبَعْثُ مؤمنين أولي بأس شديد عليهم وإخراجهم من الجزيرة، ثم إفسادهم الثاني وعلوّهم الكبير. ولم يبق إلَّا أن يدخل عليهم المؤمنون دخولهم المظفر الموعود:

﴿لِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾[2].

أما كلمة (أخرج) وكونها هنا بصيغة الماضي، فكيف هي تعني الماضي والمستقبل؟ ففي القرآن الكثير من هذه الصيغ، تفهم بالقرائن. على أساس أن ما يعد الله بتحقّقه في المستقبل، فهو متحقق لا محالة. والقرينة هنا وعده سبحانه في سورة الإسراء.

فبعد أن توفّى الله رسوله محمداً ﷺ، يَسَّر للمسلمين فتح بلاد الشام، ومنها فلسطين. ونصر أصحاب محمد ﷺ والتابعين لهم بإحسان، نصراً مبيناً، فجاسوا خلال الديار الشامية والفلسطينية، ودخلوا المسجد الذي هو هيكل سليمان والقدس عامة، وذلك قبل بناء مسجد الصخرة، الذي أمر ببنائه الخليفة عمر بن الخطاب، بعد أن دخل مدينة القدس، ذلك الدخول التاريخي المظفر، وهو قوله سبحانه:

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾[3].

جامعاً بهذه الآية الكريمة بين الواقعتين، واقعة إخراج اليهود: بني

---

(١) سورة الحشر، الآية ٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٤ ـ ٥.

القينقاع وبني النضير وبني قريظة، ويهود خيبر، وبقية يهود شبه الجزيرة، من ديارهم لأول الحشر، وواقعة دخول المسلمين إلى فلسطين، وجوسهم خلال ديارها، وخاصة القدس الشريف ودخولهم المسجد الذي كان فيها.

فالمقصود بقوله سبحانه: ﴿عِبَاداً لنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم محمد ﷺ وأصحابه المجاهدون الأبطال، الذين قاتلوا اليهود وأخرجوهم من المدينة وغيرها عهد رسول الله ﷺ، ثم المسلمون الذين فتحوا بلاد الشام عامة. فتلك مرحلة واحدة ممتدة من حياته الشريفة ﷺ إلى ما بعد وفاته، معزّزة بدخول القدس الشريف، وما تعلق بذلك من الفتح المبين.

(١٥)
الحرب الثالثة... والفتح المبين

حقائق قرآنية تقرر مصير الاسرائيليين ومصير العرب

المبلغـون العاملون بـدين الله، اثنان: قـرآني وروائي، ونحن لكي لا نكون في حرج شديد أمام الله يوم القيامة، اخترنا القـرآن الكريم، لأن فيـه رسالات الله، ولقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿الـذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ رِسَـالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَـهُ وَلاَ يَخْشَـونَ أحَـداً إلاَّ الله وكَفَى بالله حَسِيْباً﴾[1].

ثم يكون كلاهما، والناس ممن يقرأ أو يسمع معهما في مواجهـة هذه الآية المفزعة: قوله تبارك وتعالى:

﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2].

من هنا وجدنا أنفسنا ملزمين بإبلاغ ما آتانـا الله ويؤتينا من فضله، من تفسير آية كانت مغلقة لحكمـة إلٓهية، أو آيـات لم تفسر في المـاضي، لأن تفسيرها مرهون بمواقيت، أو ظروف أو أحداث مستقبلية، مثل آيات أشراط الساعة وغيرها، أو الإلمـام ببواطن آيـات أو تأويـل آيات أُخَرُ، وكل ذلـك بتوفيق وتسديد منه تبارك وتعالىٰ.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٩. (٢) سورة الزمر، الآية ٦٠.

والحقيقة أن الأمر صعب من جهة، وميسّر من جهة ثانية، فصعوبته من حيث أن الناس بصورة عامة، كأنهم في قوالب، غالباً ما تكون جامدة، وعلى شتى مراتبهم، تعلّقاً بتراث متراكم موروث عبر مئات السنين، عن الآباء والأجداد، وفيه الكثير ممّا لم ينزل الله به من سلطان، ولذلك نبّه سبحانه الأولين والآخرين من العباد بقوله في بضع آيات في القرآن الكريم:

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[2].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[3].

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[4].

وكذلك يذكرهم تبارك وتعالىٰ بوجوب لزوم القرآن تحت طائلة أنواع رهيبة من العذاب في حال الإعراض عن القرآن، والتوقّف عند غيره، قوله تعالىٰ:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ. وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾[5].

ولفهم ما نرمي إليه، نضرب مثلاً من ألوف الأمثلة، على إدخال

(١) سورة المائدة، الآية ١٠٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٨.

(٣) سورة يونس، الآية ٧٨.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٧٤.

(٥) سورة الجاثية، الآية ١٦.

الروايات التي ما أنزل الله بها من سلطان في تفسير بعض الآيات الكريمة، هذا المثل، يتعلق بقصة ياجوج وماجوج الواردة مرتين في القرآن الكريم[١]. وسنلاحظ كيف تختلف الروايات، أحياناً وفي الواقعة الواحدة أو الموضوع الواحد، اختلافاً منكراً. فقد جاء في الميزان في تفسير القرآن للعلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي (رضي)، بين المتن والحاشية، ما يلي[٢]:

«. . . ومن ذلك اختلافها[٣] في وصف ياجوج وماجوج فروى (عن الدر المنثور عن ابن المنذر عن علي عليه السلام وعن ابن أبي حاتم عن قتادة، وفي نور الثقلين عن علل الشرائع عن العسكري(أنهم من الترك ومن ولد يافث بن نوح كانوا يفسدون في الأرض فضرب السدّ دونهم. وروى في (نور الثقلين عن روضة الكافي عن ابن عباس) أنهم من غير ولد آدم. وفي (الطبري عن عبد الله بن عمير وعن عبد الله بن سلام وفي الدر المنثور عن النسائي وابن مردويه عن أوس عن النبي ﷺ وفيه عن ابن حاتم عن السدي عن علي عليه السلام، عدة من الروايات أنهم قوم ولود لا يموت الواحد منهم من ذكر أو أنثى حتى يولد له ألف من الأولاد وأنهم أكثر عدداً من سائر البشر، حتى عدّوا (في الدر المنثور عن عبد الرزاق وغيره عن عبد الله بن عمر) في بعض الروايات تسعة أضعاف البشر، وروى في (الدر المنثور عن ابن إسحاق وغيره عن وهب) أنهم من الشدة والبأس بحيث لا يمرون ببهيمة أو سبع أو إنسان إلاّ افترسوه وأكلوه ولا على زرع أو شجر إلاّ رعوه ولا على ماء نهرٍ إلاّ شربوه ونشفوه، وروى [في الدر المنثور عن ابن أبي المنذر وأبي الشيخ عن حسان بن عطية وعن أبي حاتم وغيره عن حذيفة عن النبي ﷺ وقد بلغ من مبالغة الروايات في عددهم أنه روى عن النبي ﷺ أن يأجوج وماجوج يعدل ألف ضعف للمسلمين (البداية

(١) الكهف، الآية ٩٤. وسورة الأنبياء، الآية ٩٦.
(٢) ج١٣. ص٣٧٢ ـ ٣٧٣ ـ الطبعة الثانية ـ مؤسسة الأعلمي.
(٣) يعني الروايات.

والنهاية عن الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ) وهو ذا يقال: إن المسلمين خمس أهل الأرض ولازمه أن يكون يأجوج وماجوج مائتا ضعف أهل الأرض] إنهم أمتان كل منهما أربعمائة ألف أمة كل أمة لا يحصى عددهم إلاَّ الله سبحانه. وروى (في الدر المنثور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب الأحبار) أنهم طوائف ثلاث فطائفة كالأرز وهو شجر طوال، وطائفة يستوي طولهم وعرضهم: أربعة أذرع في أربعة أذرع، وطائفة هم أشدّهم للواحد منهم أذنان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى يشتو في إحداهما لا بساله وهي وبرة ظهرها وبطنها ويصيف في الأخرى وهي زغبة ظهرها وبطنها، وهم صلب على أجسادهم من الشعر ما يواريها، وروى أن الواحد (في الدر المنثور عن ابن المنذر والحاكم وغيرهما عن ابن عباس) منهم شِبْر أَوْ شبران أو ثلاثة، وروى (في الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ) أن الذين كانوا يقاتلونهم كأن وجوههم وجوه كلاب).

ثم توفيراً على أعصاب القارىء ووقتنا ووقته، نكتفي بمثل آخر فقط، على الروايات المتعلقة بتركيب الكون، ونختار تلك الرواية المشهورة التي نقلتها مصادر الفريقين المسلمين، والتي أكثر ما يهمنا فيها، أنها تنسب زوراً وكذباً إلى رسول الله ﷺ وإلى أئمة آل البيت الأبرار الأطهار، بينما هي في الواقع من جملة الإسرائيليات التي كانوا يعتقدونها في علم الهيئة والكون. عنيت بها التي تقول إن الأرض على قرن ثور، والثور على حوت. . . إلى آخر الرواية، ومن عجيب ما فيها أن الأرض عندما يضربها زلزال، فإنما يكون ذلك بسبب أن الثور تعب قرنه، فنقلها إلى القرن الآخر.

أما أنه لا بدّ من خارج القرآن من مصادر للتشريع، يدخل فيها الإجماع والعقل والحديث والسنّة، وبعض القياس، فهذا ممّا لا شكّ فيه ولا يماري فيه إلاَّ جاهل معاند، ونحن إذ نعمل على ذلك، نسأل الله أن يري المسلمين حقيقة القرآن القلعة الشامخة والحصن الحصين الذي

يتضمن كل هذه المصادر، أما تفصيلاً وأما تنويهاً وأما تأويلاً.

وهنا نكتفي بالكلام عن صعوبة التبليغ، مضيفين ما لا بدّ من التنـويه به، وهو أن المُبَلِّغَ، برغم أن شعاره العملي، هو قوله سبحانه:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلعَالَمِينَ﴾(١).

وقوله تعالىٰ:

﴿أَمْ تَسْـأَلُهُمْ أَجْـراً فَهُمْ مِنْ مَغْـرَمٍ مُثْقَلُونَ، أَمْ عِنْـدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيـدُونَ كَيْداً فَـالَّذِينَ كَفَـرُوا هُمُ المَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَـهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُـونَ﴾(٢).

برغم ذلك، فـإنه يتعـرض إلى أذى كثير، أقلّه التعجّـل بالحكم عليـه إنطلاقاً من القوالب ومن الموروثات الدخيلة على الدين وعلى العقيدة وعلى كتـاب الله المجيـد. حتى أن العـوام غـالبـاً مـا يـديـرون دَفَّـةَ التـدخّـل، ويعتبرون الرواية أية رواية، وحتى الملفقة، بمنزلة الآية وربما أكثر قدسية.

مـن هنـا كانت جسيمـة مسؤوليـة العلمـاء، العلمـاء الحقيقيين، لكن أجرهم في حال نجاحهم وصدقهم عنـد الله عظيم، وأول درجـة في مدارج النجاح أن يكونوا مقبولين عنـد رب العالمين، ولكي يكـونوا كـذلك، ينبغي أن يكونوا صديقين، يعني أن لا يرتـابوا بكتـاب الله وأن يوقنـوا به ويبلّغـوه، تلك وظيفتهم مـا داموا تصـدّوا للعمـل بـاسم الله ودين الله كـل ذلـك على أساس التّوحيد وعدم السقوط في ألوان الشرك الظّاهـر أو الخفي التي يسقط فيها العوام، والتي تأخذ صاحبها بعيداً عن صراط الله المستقيم، وتوقعه في خبط عشواء، فيصبح شأنه شأن الغوغاء، والهمج الرعاع، الذين ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريـح. ففي الذين آتـاهم الله نعمة القـرآن وهيّأ لهم فهمه وتدبّره والعمل به، ثم هم اعتمدوا غيره من دونه، أو ارتابوا به أو ببعضه، وجه من وجوه قوله سبحانه:

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٠.

(٢) سورة القلم، الآية ٤٦.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وقوله تعالىٰ في الغوغاء:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٢).

وبرغم الأذى، والتحكّم على طريقة محاكم التفتيش في تاريخ الكنيسة الأسود، تلك المحاكم التي كانت تدين العلماء الأفذاذ وغالباً ما تحكم عليهم بالإعدام، ودائماً بالهرطقة، لا لشيء إلاَّ لأنهم اكتشفوا حقائق أبداها لهم الله سبحانه فأبدوها للناس. فغضب لذلك رجال الدين المسيحيون لأنها لا توافق أوهام الكنيسة وموروثات رجال الدين من التخيّلات التي كان أودعها لهم في الكتب الصفراء كهنة سابقون، فاحتلّت في أذهانهم موقعاً متحجراً و. . . مقدساً. برغم ذلك ينبغي على العالم الصبر الجميل والتسامح، وعدم الحقد والضغينة والحسد، وعدم الوقوع في التزاحم على الجاه أو المال أو أي شأن من شؤون الدّنيا والآخرة، وأن يطلب كل ما يبغيه ويرتجيه من الله وحده وحده، فإذا هو أحسن الثقة بالله وأحسن التوكّل على الله كفاه ما يهمه في دنياه وآخرته، قوله تعالىٰ:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتقامٍ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهَ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٤٤.

الْمُتَوَكِّلُونَ. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾(١).

إلاَّ أن مشكلتنا مع الناس أقل استعصاء، لأن بين أيدينا كتاب الله كما أنزل وكما قال فيه عزّ شأنه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢).

ونحن على استعداد دائماً أن نقارع بمضامين آياته أهل الدنيا قاطبة، ونجاهد أعداء الله، ما مدنا الله بالقوة وأذن لنابالتبليغ قولاً وكتابةً، ونتترس به ونحتجب عن الذين لا يؤمنون بالآخرة، وذلك تلبية لأمره تبارك وتعالىٰ وعزّ وجلّ:

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(٣).

وقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾(٤).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٥).

وهكذا فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَنصُر أنصارَه، ويُمِدُّهُم من لدنه بقوة، وينير قلوبهم ودروبهم ويؤيّدهم بانشراح الصدر وإنزال السّكينة، والتدبير العجيب، والتيسير المدهش من قبله جلّ جلاله وبهر جماله وعليه التوكّل

(١) سورة الزمر، الآية ٣٦ ـ ٤٠.
(٢) سورة الحجر، الآية ٩.
(٣) سورة الفرقان، الآية ٥٢.
(٤) سورة الزمر، الآية ٤٥ ـ ٤٦.
(٥) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

وإليه الإنابة وبه التوفيق، وفي سبيل رضاه وحبّه تهون المشقات وتسهل المستصعبات، وكيف لا، وهو وليّ الأمر وصاحب الأمر من قبل ومن بعد وفي كل حال:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾(١).

والآن، وبعد أن كانت هذه الصفحات، مقدمة ضرورية لموضوع «الحرب الثالثة أو القيامة الأولى»، وذلك لحساسية الموضوع، وخطره ـ كتبليغ ـ على من يبلغه، استعداداً لمواجهة المتغيرات الآتية، في الأفراد وفي الشعوب، وفي البلدان والدول، وفي الكون، ننتقل، إلى مجريات ـ بالعناوين والخطوط العريضة ـ ما سيحصل، بإذن الله، أو بتدبير الله، ودائماً في سلطان الله وفي ملكه في السماء والأرض، وصولاً إلى تحقيقه لقوله سبحانه:

﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾(٢).

ونصل إلى تحقّق الآيات المنوطة بهذا الزمان، العقد الخامس عشر الهجري والعشرين الميلادي، الذي تجري فيه الأحداث الكبرى، بخطوطها الرئيسة، مواكبة لأشراط الساعة، التي هي بدورها ناشطة في الملائكة والجن والإنس والأرض والسماء:

﴿ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٣).

ونبدأ بسم الله بالخبر الذي في سورة الإسراء: قوله تعالىٰ:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٢) سورة غافر، الآية ١٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٢.

وَلَتَعْلُنَّ عُلُوَّاً كَبِيراً، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ أَمْراً مَفْعُولاً﴾(١).

وقد شرحنا هاتين الآيتين الكريمتين ـ عدا قوله تعالىٰ: ولتعلن علواً كبيراً ـ في سياق بحثنا تحت عنوان: القيامة الأولى أو الصّغرى وبقي أن نربط بهما بقية الخبر الإلهي المقدس، فيما يليهما من الآيات، قوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾(٢).

وقد تحققت هذه الآية كذلك. فمعروف تماماً، أن اليهود قبل الثلاثينات من هذا القرن، لم تكن لهم دولة، حتى ولا كيان يذكر، ثم أخذ نجمهم يتألق، وهم لو اتبعوا العدل في سلوكهم وأحسنوا التّصرف كما يقتضيه الدين الإلهي، لبقي نجمهم كذلك يتألق، لوعده تعالىٰ لهم بالعلو الكبير، ولكن علمه كذلك بإفسادهم المرة الثانية كان أمراً مقضياً، فاتبعوا أسوأ السبل وأفظع الجرائم. وهكذا كانت الكرة التي ردّها الله لهم على المسلمين، بعد أن كان سلّط المسلمين عليهم، فأخرجوهم من المدينة المنورة وجميع الجزيرة العربية.

وبحبل منه تعالىٰ، أمدّهم بأموال طائلة وأعداد متزايدة من الأبناء (وأمددناكم بأموال وبنين ـ الآية) وبحبل من الناس جعلهم أكثر نفيراً (الآية) والنفير كما هو معلوم لغة: كثرة الأنصار. وهذا الأمر تحقيق أيضاً لقول الله تبارك وتعالىٰ فيهم:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٤ ـ ٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٦.

يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1].

والحبل من الله والحبل من الناس، كلاهما، الحاكم فيهما الله سبحانه، لأن الأول بأمره، وهو تيسير الأموال وزيادة العدد (بأموال وبنين ـ الآية السابقة) والثاني بإذنه، وهو كثرة النفير، لأنه في سلطانه، إذ يستحيل الخروج من سلطانه، وهو تبارك وتعالىٰ لو لم يأذن بالمعاضدة البريطانية المجرمة لهم في البداية، ثم معها أميركا التي كانت وما زالت لهم الحاضنة وولية الأمر، ثم بقية (النفير) الذي يعني جميع دول الغرب المتعادية والمتحالفة، التي أجمعت على نصرتهم وإمدادهم بالمال والسلاح، والمواقف المعادية للمسلمين، وحتى مساعدتهم على الانتقال من جميع بلاد الدنيا براً وبحراً وجوّاً وفي كل سبيل.

وهكذا، فبعد شتاتهم في الأرض، أخذوا يتجمعون في فلسطين، فطردوا معظم شعبها بالغدر والخديعة تارةً، وبالمذابح الجماعية تارةً أخرى. أما معجزة قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

فهي في كونهم أصبحوا، على قلة من العدد في البداية، لا تتجاوز المليون نسمة، في محيط من المسلمين ودولهم وأعدادهم البالغة آنذاك مائة مليون تقريباً، وهم يحيطون بهذه الشراذم إحاطة السوار بالمعصم، ومع ذلك بقي نجم بني إسرائيل يتألق ويتصاعد، مصداقاً لوعده تعالىٰ، على زيادة في القوة والعدد والعدة، في حين كان خصومهم المسلمون عامة في المقابل، يتقهقرون في جميع مجالات الحياة، بعد حضارة سادت العالم بالدّين الحنيف، ردحاً طويلاً من الزمن، وما كانت هزائمهم المتلاحقة، والمخازي التي أوقعهم الله فيها، إلاّ لأنهم تخلّوا عن الإسلام العملي،

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٢.

وركبوا مراكب شتى ليست من صنع أيديهم، وإنما هي دائماً من صنع أبالسة الإلحاد أو العلمنة، وما بينهما من تيارات عصفت بأهل الأرض جميعاً، وما زالت تعصف وتدمر، وستبقى تعصف وتدمر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وفي جملة معاني (حبل من الله) في الآية الكريمة، أنه سبحانه هيّأ لهم في فلسطين دولةً قوية، من وجوه الحكمة فيها، أنه تعالىٰ سلّطها على العرب، بين تأديب لهم وعقوبة، حتى ينهضوا ويستيقظوا:

﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[2].

ونبقى مع آيات سورة الإسراء التي فيها قضاء الله تعالىٰ، فبعد أن رأينا الآيات الرابعة والخامسة والسادسة واستعرضنا الخطوط العريضة فيها، بقي أمامنا، بخصوص قضاء الله تعالىٰ فينا وفيهم، السابعة والأخيرة من الآيات الكريمة المتعلقة بموضوع الفتح ونهاية دولة بني إسرائيل. ففي الآية السابعة هذه، قال تعالىٰ، كذلك مخاطباً بني إسرائيل:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُئُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾[3].

وواضح تماماً بصدد قوله تعالىٰ: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها**﴾ أنهم أساؤوا وما أحسنوا، فسابق علم الله عزّ وجلّ بإفسادهم في المرة الثانية وخصوصاً انطلاقاً من دولتهم التي أقاموها على أشلاء الفلسطينيين وأشلاء القيم والمناقب الأخلاقية المتعارفة في الشرائع حتى

---

(١) سورة النحل، الآية ١١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٧.

الأرضية منها. أقول إن سابق علم الله تعالىٰ بإفسادهم في هذا الزمان هو الحسم وهو القضاء المحتوم، لأنه سبحانه صدّر كلامه في الموضوع، بقوله تعالىٰ:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ...﴾.

والذي ذكرناه عن إفسادهم تاريخياً، إنما هو في ضوء الآيات الكريمة، من الواقع الحيّ الذي لا ينكره إلَّا أصم أعمى ومكابر.

وإذ نكتفي بهذا القليل الذي ذكرناه من طغيانهم وإفسادهم للبشرية، لمعشر بني آدم الذين كرّمهم الله سبحانه في الأصل، ويستحيل أن يرضى بعبوديتهم لغيره من خلقه، فكيف بعبوديتهم لقوم غَضِبَ آلله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير، وهم مع ذلك كله مصرّون على ادّعاء كونهم شعبَ الله المختار وأن بقية الشعوب من دونهم أميّون من حقّهم أن يبيدوهم ويبقوا منهم بقية يستعبدونها ويستخدمونها ويتخذون منها رقيقاً لقضاء حاجاتهم، هكذا في كتبهم، وهكذا يتعلمون في مدارسهم، وهكذا عقيدتهم الهجينة التي ابتدعوها وما أنزل الله بها من سلطان.

ثم نتابع قوله تبارك وتعالىٰ في الآية التي نحن بصددها:

﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُئُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوا تَتْبِيراً﴾(١).

السقوط الكبير بعد العلو الكبير:

وقبل أن نتحدث عن السقوط الكبير وهو حتم على بني إسرائيل، في آخر دولة لهم هذه التي في فلسطين، ينبغي أن نلفت إلى أمر هو غاية في الأهمية في هذه الآية، وهو قوله سبحانه:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧.

فهو سبحانه لم يقل «وعد الثانية ولم يقل كذلك وعد الأخرى»، ونحن كان يمكن أن لا نلتفت إلى هذا الفارق، إلاّ أنه في الواقع له أهمية كبيرة، تتضح أكثر إذا ربطناها بالآية التي تتعلق بنفس موضوع نهاية الدولة العبرية هذه. وسنعتبرها، أي الآية رديفاً لآيات سورة الإسراء، والآية هي قوله تبارك وتعالىٰ في سورة الحشر:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ آللَّهِ فَأَتَاهُمُ آللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[(١)].

فما يعنينا الآن، قبل ربط التفاصيل، قوله تعالىٰ: **﴿لأول الحشر﴾** والحشر هو أول الآخرة، ولا بأس هنا أن ننوّه أن المفسرين عامة لم يلتفتوا إلى هذه المعاني في آيات الإسراء، ولا إلى كونها تترادف مع آية الحشر هذه، ولا إلى أن آية الحشر هذه هي متعلقة أيضاً بملحمة سقوط الدولة العبرية في آخر الزمان، ونحن في مواجهة هذا الآخر، مقتربين من الحشر المنوّه عنه في الآية، مقتربين من الآخرة، بدلالاتٍ كثيرةٍ، يواكب بعضها بعضاً، من أهمها أشراط الساعة، التي قلنا إن كثيراً منها متحقق عملياً في زماننا هذا، والتي سنبحثها إن شاء الله فور نهايتنا من موضوع قضاء الله عزّ شأنه بيننا وبين الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود، الذين أفسدوا في الأرض فحاربوا محمداً ﷺ ومن أسلم معه لله الواحد القهار، وكفروا بما أنزل عليه وهو الحق من ربّه سبحانه، كتاباً عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه.

فمن بشائر الفتح ومقوماته لمصلحة المسلمين، هو ما نجده في مضامين الآيات التالية: قوله تبارك وتعالىٰ:

(١) سورة الحشر، الآية ٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

ولماذا تكون هذه الآية من البشائر للذين آمنوا والمقصود بها في القرآن الكريم ـ وحيث وقعت ـ المسلمون الحقيقيون، مع أن مضمونها هو التحالف بين اليهود والنصارى، والتحذير منهم جميعاً يؤكّد عداوتهم الشديدة لأهل الإيمان. فكيف تكون من البشائر؟

في الواقع هذه الآية، هي من الآيات التي اختلف فيها المفسّرون في الماضي اختلافاً شديداً، ولم يتوصلوا إلى حقيقة ما ترمي إليه، وهم معذورون في عدم تدبّرها، لأنها تذكر خبراً أو حقيقة هي خلاف ما كانوا يرونه في القرون الأربعة عشر الماضية من تاريخ الهجرة الميمونة. فما كان يتم في الحقبة الماضية من التاريخ، هو ما ذكرنا بعضه في سياق هذا الكتاب، من خلاف مسعور بين اليهود والنصارى، حيثما اجتمع الفريقان، وهذا أمر بديهي، حيث أنَّ اليهود ما توقفوا لحظة عن التشنيع على النصارى وحتى على أقدس مقدساتهم المسيح وأمّه عليهما السلام. وكذلك كان هذا الخلاف الذي دام منذ البعثة الشريفة للمسيح عليه السلام وحتى ثلاثينات القرن العشرين الميلادي، كان خلافاً حاقداً في المناظرات قولاً وكتابةً، شرساً دامياً في المواجهات، كما كان مصداقاً كذلك لمعجزات القرآن الكريم الذي نصّ في أكثر من آية عن حتمية وقوعه في تاريخ الفريقين وصولاً إلى هذا الزمان، زمان مصداقية الآية التي تذكر تحالفهم من جديد، خلافاً للعداوة المريرة التي كانوا عاشوها كما ذكرنا حوالي أكثر من تسعة عشر قرناً من الزمان، وإذا بهم يتحوّلون فجأة إلى جبهةٍ واحدةٍ عالمية في معاداةٍ رعناءَ للإسلام الحقيقي، وما زال السؤال، وكيف تكون الآية بشارة؟

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥١.

الحقيقة أن البشارة فيها مرتبطة بآيات بعدها، واحدة تمحّص المسلمين، وتذكر أن الذين يوالون اليهود والنصارى هم من أهل الردّة، وأنهم سيحشرون معهم على خزي في الدنيا وعذاب الجحيم في الآخرة.

فالآية التي تفصل بين المسلمين الحقيقيين وبين الذين في قلوبهم مرض الموالين لليهود والنصارى، هي بعد الآية التي ذكرت مباشرة: قوله تعالىٰ:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1].

فواضح أن البشرى هي في وعده تعالىٰ بالفتح لمصلحة المسلمين، وحيث أن ظواهر الأمور، من حيث تركيبة الدول، وفارق القوة بين المسلمين وبين من يعادونهم، لا لشيء إلاَّ لأنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد، هذا الواقع المتفاوت وغير المتكافىء، بيننا وبينهم، حيث أن الفوارق المادية ـ وليس الروحية ـ هي لصالحهم في جميع مناحي الحياة، سياسةً وعسكراً، واقتصاداً وتقنية مدهشة، حتى لكأن الصورة التي يرسمونها للمقارنة بيننا وبينهم، قد اعتبرها أكثر مفكري أمتنا وكتّابها، أنها صحيحة، وأنها نهائية، وهي أننا في منزلة الإنسان البدائي في مقابل «السوبرمان» أي الإنسان المتفوق الذي في أعلى درجات الحضارة والرقي، والذي هو أنموذج ينبغي أن يحتذى به، حسب فريق من المبهورين، الذين نسوا أن للعباد ربّ يعبد كما يريد هو، لا كما يريد عباده.

وعلى كل حال، هذه المقارنة التي يخيّل أنها واقعية في ظاهرها هي التي حَدَتْ أيضاً بفريق آخر أقل انبهاراً، من العلماء والمفكرين المسلمين وكتّابهم، إلى عصر أدمغتهم للبحث عن مخرج للأمة العربية، من هذا

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٢.

المأزق، وهم للأسف ـ رغم إخلاصهم ـ كلما كتبوا، زادوا الأمور تعقيداً، ووقعوا وأوقعوا الناس أكثر فأكثر في حيرة، وهم في كتاباتهم، التي يبحثون فيها بحثاً موضوعياً كما يزعمون، إنما يحاولون المستحيل، لأننا كلما تقدمنا شبراً تقدم الغرب باعاً، ويزيد الفارق بحكم النسبية ما دمنا وإياهم في الزمان الواحد.

فعلى هذا، آن لمفكري المسلمين وكتّابهم، أن يحوّلوا وجوههم إلى الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، والذي هو إله في الأرض وإله في السماء، والذي هو معكم أينما كنتم، يدبّر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وأن يتدبروا كتابه الكريم، وأن يدعوا الناس إلى الله عاملين جادين متوكلين عليه لا متواكلين، وأن يصدقوا بوعد الله ووعيده الّذين بين دفتي القرآن الكريم، فالذين يظنّون بالحضارة هذه الزنديقة ظَنَّ الخير ويظنون بالله ظنّ السوء.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(١).

وكل آت قريب.

ثم عوداً إلى الآية الكريمة الواعدة بالفتح وإلى البشرى التي تتضح فيها ثم تتجلى أكثر فأكثر، بآية بعدها، قوله تعالىٰ، مُنَوِّهاً بعاقبة المرتدين عن دينهم الذين يوالون أو يوآدُّوْنَ أو يطمئنون للتحالف اليهودي ـ النصراني، كما ينوّه سبحانه بأنصاره الآتين وبصفاتهم قوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة الفتح، الآية ٦.
(٢) سورة المائدة، الآية ٥٤.

فإذا ربطنا هذه الآية الكريمة بقوله تعالىٰ في سورة الإسْرَاء:

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

ثم قوله تعالىٰ في نفس السياق مخبراً بني إسرائيل عن هؤلاء العباد، بقوله عزّ من قائل:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوا تَتْبِيراً﴾.

أدركنا أن هؤلاء المسلمين المؤمنين ليسوا من النمط العادي، الذي يعرّض للأذى وربما لسفك الدماء مسلمين مؤمنين آخرين، فصفات أنصار الله المرصود على أيديهم الفتح كما رأينا في آية المائدة (٥٤)، أنهم «أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين»، وكيف يكون المؤمن ذليلاً على المؤمن وهو يكيد له ويتربص به الدوائر حتى إذا تمكن منه سفك دمه، أو قصف منزله، أو أغمض عينيه وأطلق قذائفه وصواريخه على قرى وأحياء مليئة بالمسلمين وبالمؤمنين العزّل، فيقع القتل في النساء والأطفال والشيوخ والشباب، ولا يطرف للقتلة باسم الإسلام جفن، ويدّعون أنهم هم أهل الفتح، وأنهم هم أنصار الله... كل ذلك بدعوى أنهم يريدون فتح الطريق لقتال الأعداء الحقيقيين، والأعداء الحقيقيون فوق الفريقين المتناحرين. يوجهونهم ويشكرونهم على إبادة بعضهم ويباركون النّار التي فيها يحترقون.

بلى سيخرج من الفريقين هذين وأمثالهما في العالم الإسلامي رجال ـ كما سنرى ـ يجتمعون على حب الله وطاعته والجهاد في سبيله، ويكونون مصاديق لما ذكر عنهم سبحانه من صفات الصديقين المجاهدين الذين لا يخافون في الله لومة لائم.

ومتى يبلغ مداه، هذا الاجتماع على حب الله، وطاعته والجهاد في سبيله؟ بفضل من الله تعالىٰ وبنعمة منه، سيكون ذلك عبر الحرب العالمية القادمة، التي ستطيح بجبابرة الأرض. ويبقى الباب مفتوحاً للجوء إلى الله، انضواءً تحت راية لا إله إلاَّ الله، من جميع الملل، وسيتم هذا الأمر برحمة

منه سبحانه لمن يعلم في قلوبهم خيراً، ولمن قال فيهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وسيكون قسمٌ كبيرٌ من النصارى أوفرَ حظاً عند الله عزّ وجلّ لاتباعهم للمسيح في بعثته الثانية. وهذا الفريق منهم سيجنبهم الحرب وأهوالها، كما سيجنب جميع الصالحين من عباده، وهو على كل شيء قدير.

لقد قلنا متى يبلغ أمر اجتماع المؤمنين مداه، وقد أجبنا، أنه بإذنه تعالىٰ سيكون عبر الحرب العالمية، بعد أن يجنبنا الله تعالىٰ فظائعها وقيامتها وخاصة في لبنان وبلاد الشام عامة وكذلك إيران ومكة المكرمة، وكذلك كل بلد إسلامي يكثر فيه الولاء لله وحده دون شريك.

يبقى أن نقول كيف يكون هذا الاجتماع، وكيف يتعاضد المسلمون والجواب كذلك، في وعد جاهز بنعمةٍ من الله في آخر آية من سورة الفتح، قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿... كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِم الكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[2].

ثم شباب المسلمين وشيوخهم، وبكلمة هم الأمة الإسلامية التي سيسلمها الله عزّ وجلّ، وقد رصدها للفتح المبين، بعد أن محّص وعاقب وابتلى ودمّر على أقوام منها، وما زال ملائكته بأمر منه سبحانه يهلكون قرى ومدناً وجماعات وأفراداً ويصطفون بإذنه آخرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ

(١) سورة البقرة، الآية ٦٢.
(٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(١).

ومن نماذج العقوبات والإبتلاء والتدمير والتشريد والقتل الجماعي وإهلاك أفراد وليس هلاكهم، ما حصل لشعب فلسطين في الداخل والخارج، وما زال، ثم في لبنان، ثم في الكويت، ثم في العراق، والله أعلم أين ستكون محطات الغضب التالية قبل الحرب العالمية وفي حُمَيَّاها أو وقوداً لها.

ومع ذلك كله، سينجي الله عزّ شأنه، الأمة الإسلامية التي قال فيها:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٢).

سينجيها، ويجمع شملها على الخير، وعلى النصر المبين، بعد أن يصطلي بنيران يأجوج ومأجوج أكثر أهل الأرض.

وقد آن لنا أن نحسم القول ـ ودائماً بفضل الله وعنايته ورحمته ـ في معنى يأجوج ومأجوج والاختلاف الشديد حولهما وحول معناهما وماهيتهما سواء عند اليهود أو النصارى أو المسلمين والجميع يعتبرونهما أقواماً من البشر أو ما يشبه البشر، وواقع الحال أنهما كناية عن بشر لأنهما لا يتحركان إلاَّ بمحرك، وما هما إلاَّ القذائف والصواريخ من كل حجم وهي ما كنَّىْ عنها سبحانه بيأجوج لأنها تؤجّ نيرانها أجّاً، أما مأْجُوْج (وبدون همز) فقد كنَّىْ به سبحانه عن المدافع بجميع عياراتها لأنها تمجّ من أفواهها ما هو معلوم من مواد الفتك والدمار. هذا بلغة القرآن الكريم، اللغة العربية:

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمّ والكِتَابِ المُبِينِ إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١).

ولو أن العرب أسموا القنابل والمدافع منذ البداية يأجوجاً ومَأْجُوجَاً وهو الأصح تعبيراً وكناية وتوافقاً مع كتاب الله، لما كان هناك مشكلة منذ معرفة هذين النوعين في الزمان المتأخر.

على أن هذه العبارة وردت مرتين في القرآن الكريم: واحدة تتعلق بعصرنا، وهي التي في سورة الأنبياء والثانية مضت عليها قيامة أرضية سابقة وهي التي في سورة الكهف؛ أما الأولى فقوله تعالىٰ:

﴿حَتَّى إذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٢).

وواضح أن الأمر هو كذلك من أشراط السّاعة، أو القيامة الكبرى التي ستكون على مستوى السموات والأرض.

أما لماذا لا يكون الأمر مرتبطاً كذلك بالحربين الأولى والثانية العالميتين، وكذلك الحروب الإقليمية التي حصلت بعدهما، وكذلك الحروب المحلية، وفي جميع هذه الحروب استعملت الألغام والقنابل والمدافع. فنقول وهو كذلك، فكل هذه المدة الزمنية، هي من مقدمات الساعة، أي القيامة الكبرى، أي الوعد الحق المنوّه عنه في الآية الكريمة، على أن تكامل هذا الشرط من أشراط الساعة أو تكامل هذه العلامة، أمر مرهون بقوله تعالىٰ:

﴿حَتَّى إذَا فُتِحَتْ...﴾.

---

(١) سورة الزخرف، الآية ١ ـ ٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٩٦ ـ ٩٧.

وقوله سبحانه:

﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾.

وقوله عزّ شأنه:

﴿واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾.

فالقولاَنِ الأوّلانِ، دلالـةٌ على كثرتِهما وكأنما على تدفّق الجيوش معهما، والعبارة الثالثة كناية عن الإقتراب أكثر فأكثر من وعد الله عزّ وجلّ بقيام الساعة. ثم دلالة الآية الكريمة بشكل عام على مدى أهوال واتساع هذه الحرب وشمولها لجميع كفار أهل الأرض بدلالة قوله تعالىٰ:

﴿... فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا. يَقُولُونَ يَاوَيْلَنَا لَقَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وليس من شروط علاماتِ الساعة أن تكون جميعاً في يوم أو سنة أو حتى عقد من الزمان، فسنرى عند وصولنا إلى هذا المبحث إن شاء الله، كيف أن بعض العلامات قد تمتد وتتفاعل خلال ربما أكثر من عقدين من السنين. وعلى سبيل المثال:

﴿وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

وتسجير البحار حاصل بمعنييه وهما الإحتراق والإمتلاء، وهو أمر مستمر منذ أكثر من ثلاثة عقود، أي منذ بدء التجارب النووية في عمق المحيطات وما يتبع ذلك من احتراق بالغ الشدّة يسبب مزيداً من ذوبان الجليد في قطبي الأرض شمالها وجنوبها، ممّا ينتج عنه زيادة تسجير البحار بالمياه، أي امتلائها، أضف إلى ذلك حرائق النفط وبقع النفط التي أقلّها حصل في حرب الخليج، وأكثرها واقع بإذن الله في الحرب الكبرى الآتية، عندما تصل هذه العلامة من علامات الساعة إلى أَوْجِهَا أو تكاد، مواكبة ومتساندة مع علامة ثانية قوله تعالىٰ عن الأرض:

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

وإذ نكتفي الآن بهذا المثل، نعود إلى حكاية يأجوج ومأجوج، التي في سورة الكهف، والتي هي قوله تعالىٰ:

﴿قَالُوا يَاذَا القَرْنَيْنِ أَنَّ يـأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدَّاً﴾[1].

إلى آيات أخر قبلها وبعدها تلقي الضوء على مجمل القصة، إلى أن يقول سبحانه على لسان ذي القرنين بعد بناء السد:

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقَّاً﴾[2].

وواضح أن هذا السد اليوم لا أثر له، ربطاً بالصفات التي ذكرت في القرآن المجيد فيما بين الآيتين، وهي كونه سد هائل يستحيل على القوم اختراقه أو ارتقاؤه، وتدل الآية على أنه دمّر تماماً:

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾.

ثم من بليغ الدلالة على هذه الحقيقة، أنهم دمروا، وأنهم في برزخ عرضوا على جهنم بانتظار القيامة الكبرى، يوم يردّون إلى ربِّهم فيعذّبهم عذاباً نكراً ـ كما ورد في آية في بداية السياق، قوله تعالىٰ:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلكَافِرِينَ عَرْضاً﴾[3].

ولن نتوقف عند قول من قالوا، إن استعمال صيغة الماضي في الآيات، تدل على تحقّق هذا الأمر في القيامة الكبرى النهائية، صحيح أن بعض الاستعمال لصيغ الماضي يدل على التحقّق في المستقبل، إلاّ أنه ليس جميع صيغ الماضي، وإلاّ لكان جميع الحديث والقصص القرآني

(١) سورة الكهف، الآية ٩٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٩٨.

(٣) سورة الكهف، الآية ١٠.

يشير فقط إلى المستقبل، وهذا مردود بالبديهة.

على أن القصة، باختصار شديد، هي أنها كانت حضارة حديدية ـ نحاسية كما يستنتج من الآيات الكريمة، ليست بعيدة عن حضارتنا هذه التدميرية، فأقام الله عزّ وجلّ القيامة على رؤوس أهلها الّذين أفسدوا في فترة من الزمان امتدت بعد ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم إلى ما شاء الله.

ولا بأس أبداً عندنا، فيما كتبه بعض المحققين من علماء الآثار، عن حضارة راقية، سبقت حضارتنا هذه، ثم كان تدميرها تدميراً كاملاً، بحيث لم يبق على وجه اليابسة من آثارها إلاَّ اللمم، ومنه فيما يلي القشرة الأرضية الحالية، كميات من غبار النجوم إلى غير ذلك من آثار وكأنها ـ كما يقولون ـ آثار قصف سماوي للأرض، على أن بقايا هذه الحضارة، أحصوها ـ وما زالوا ـ في أعماق البحار.

وبخصوص القول:

﴿إِنْ يَأْجُوجَ وَمَاْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾[1].

وأن (مفسدون) للعقلاء، فكيف وصف بها ما لا يعقل، فالجواب أنها من باب قوله تعالىٰ:

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾[2].

يقصد بها فرساناً وراجلين. وكذلك قوله تعالىٰ للسموات والأرض:

﴿إِأْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف، الآية ٩٤.

(٢) الإسراء، الآية ٦٤.

(٣) سورة فصلت، الآية ١١.

غرق الدولة العبرية في المحيط العربي ـ الإسلامي:

بعد استعراضنا لوعد الله تبارك وتعالىٰ في آيات كريمة، بخصوص السقوط الكبير بعد العلو الكبير لدولة بني إسرائيل. فقد بات حقاً علينا وواجباً أن نقرأ الآتي القريب على الأرض أو على الخارطة العالمية ثم الإقليمية.

فبعد أن قلنا إنه، ولعله ليس شرفاً لنا أن نلحق بالحضارة الزنديقة وأن هذا الشرف بعدم اللحاق، هو ممّا اختصّ سبحانه به هذه الأمة، التي هي عنده تعالىٰ خير أمة أخرجت للناس، لكي لا تغرق في الزندقة وبعد أن قلنا بوجوب التحوّل عن هذا المطلب الذي وكأن الله جعله علينا مستحيلاً لكي لا نكون وقوداً للنارين في الدنيا والآخرة، فله الشكر سبحانه وله الحمد كما ينبغي لكرم وجهه، وبعد أن قلنا بوجوب العمل بجد ضمن إمكاناتنا التي مكّننا منها سبحانه، دون أن نستعطي أو نتوسل، متوكلين غير متواكلين، فهو الناصر سبحانه وهو الكافي، وأن الأمر أمره والخطة خطته وإليه عاقبة الأمور، وبعد أن قلنا إنّه بعد هدم وتمزيق دولة الإلحاد في الاتحاد السوفياتي وبقية الدول الشيوعيّة آتية القيامة الصغرى على إسرائيل وأميركا وأوروبا والصين وأحلافهم، حيث بين يأجوج ومأجوج وحرائق عالمية ستسقط حضارة الغرب الزنديقة، حضارة الجنس والفلتان، وظلم الشعوب المستضعفة، حضارة التعبّد للآلة والدولار والمظاهر الكرتونية. حضارة الكفر بالله والشرك بالله ومعصية الله عن سابق تصوّر وتصميم. وبسقوط هذه الحضارة طبعاً تسقط معها القوىٰ العسكرية، وتصبح الدول والمدن بين طعام للنيران وبين عرضة للطوفان الذي سيكتسح معظم شواطىء أوروبا وأميركا وبعض شطآن آسيا مغرقاً عواصم ومدناً ومعها حضاراتها الفولكلورية وكرنفالاتها العربيدة، الموعودة بوعيد الله جلّ جلاله، قوله تعالىٰ:

﴿... ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(١).

بعد هذه النهاية المرسومة قدراً وقضاءً من الله سبحانه لتساقط الدول العظمى والدول الأعظم والتابعين من المغرورين بمظاهر القوة من جميع الدول وجميع الملل، والذين سيكونون مع أسيادهم مصاديق لقول الله عزّ شأنه:

﴿الَّذِينَ طَغَوا فِي البِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾(٢).

بلى إنه عزّت قدرته كان وما زال وسيبقى بالمرصاد لجميع الطغاة والمجرمين المفسدين في الأرض، فإنه لا يحب المفسدين ولا يحب المعتدين ولا يحب الكافرين.

بعد هذه النهاية المقرّرة من ربّ العزّة والجبروت، ماذا يبقى على صعيد القوىٰ في الأرض، بعد أن يذهب أهل الشمال بهيبتهم وغطرستهم وقواهم الماديّة والعسكرية وإعلامهم المنافق، وبعد أن يذهب ترفهم الذي يعتزّون به وما زالوا لغاية كتابة هذه السطور، وهم يقولون إن هذا الترف من حقّهم وحق شعوبهم وإنهم لن يتخلوا عن شيء منه لأهل الجنوب، ويقولون ولماذا لا يشدّ أهل الجنوب أحزمتهم، ليستطيعوا تسديد الديون لأهل الشمال، حيث أن هذه الديون تتراكم يوماً بعد يوم وتتضخم بفعل الربا المتزايد كذلك، الربا الذي جعلوه أسلوباً مقدساً من أساليب هذه الحضارة الزنديقة، رغم أن الله تعالىٰ جعله من أعظم المحرمات.

وهؤلاء، أي الدول الغنية، هم أَسْمَوا أنفسهم، أهل الشمال وأسموا الدول الفقيرة أهل الجنوب، إلَّا أننا نحن نقول أصحاب الشمال وأصحاب اليمين، لأن القرآن الكريم يسمّيهم كذلك، وليس في القرآن لفظة جنوب،

---

(١) سورة غافر، الآية ٧٥.

(٢) سورة الفجر، الآية ١٤.

علماً أنه ورد فيه شرق وغرب وشمال، فما عنوه هم بأهل الجنوب رمز إليه القرآن الكريم بعبارة ﴿**أصحاب اليمين**﴾.

ولماذا أسموا أنفسهم أهل الشمال، هذا من **العَجَب**، إذ أن التسمية هي رمزية كما أرادها الله سبحانه، فهو تعالىٰ قهرهم عليها وألزمهم بها، والعجب فيها أنهم أخذوا يتداولونها رغم أنها لا تدل على وجودهم جميعاً شمال الكرة الأرضية، كما لا تدل عبارة (**أهل الجنوب**) على وجود جميع الدول الفقيرة جنوب هذه الكرة. ولكنه هو السرّ الإلهي الذي أراده الله تعالىٰ تحقيقاً لوعده لأهل اليمين المؤمنين المستضعفين، ووعيده للآخرين، وذلك في عمر البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ـ مع حسبان الاستثناء من كل قبيل ـ قوله تعالىٰ:

﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ. وَظِلٍّ مَمْدُودٍ. وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ. وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ. وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً. عُرُباً أَتْرَاباً. لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ**﴾[١].

وأما وعيدُهُ، فقوله عزّ شأنه:

﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ. وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ**﴾[٢].

والحِنْثِ العظيم هو كل ذنبٍ عظيم، وما أكثر ما يخالفون تعاليم الله، وما أكثر ما يذنبون، وما أكثر ما يجرمون، وحسبنا أغداقهم العون والمساعدات وآلات الموت ضدنا على أفسد أهل الأرض في هذا الزمان، دولة بني إسرائيل، لتزيد طغياناً وغطرسة وتجبراً، وهي في نفس الوقت تكفرهم وتزدريهم، وتدوس قراراتهم وقرارات مجالسهم: الأمن والأمم

---

(١) سورة الواقعة، الآية ٢٧ ـ ٤٠.

(٢) سورة الواقعة، الآية ٤١ ـ ٤٦.

المتحدة وغيرها من المؤسسات العالمية، ومع ذلك كله كأنما شملهم العمى، وصدق الله العظيم:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].

إسرائيل هذه، ستغرق في المحيط العربي ـ الإسلامي في السنة اللاحقة للحرب العالمية الثالثة. بعد أن تصبح القوّة الباقية والفاعلة على الأرض، هي القوة العربية ـ الإسلامية.

أما كيف يتلاءم ذلك مع وعد الله تبارك وتعالىٰ من حيث أن الفتح لن يتم إلاَّ بأيدي المؤمنين ذوي الصفات التي ذكرنا آنفاً، والتي أبرزها أن يكونوا أنصاراً حقيقيين لله وحده دون شريك. وأن تكون شعاراتهم وهتافاتهم، ونداءاتهم ودعاؤهم لله وحده، واستغاثاتهم بالله وحده وأن لا يجعلوه مع أحد من خلقه على طاولة مستديرة واحدة، ذلك بأنه لا يجوز أن يقاس بأحد من خلقه، ولا قياس، فسبحانه وتعالىٰ عن جميع من خلق وما خلق.

و ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٢].

أما كيف يتلاءم الفتح المرتقب مع حالة الأمة الراهنة، حيث أنها بدولها العربية وغير العربية، أكثرها علماني أو متوجه نحو العلمنة، وأكثرها يتلبس بإسلام شكلي، رؤساء ومرؤوسين، فضلاً عن البؤر الواسعة التي تناضل فها بعداوة مريرة ضد الإسلام، إما لأنها منحرفة عن صراط الله العزيز الحميد، وإما لأنها عاشت حالات رعب من ممارسات مدّعاة أنها إسلامية، في سياق حماس موتور، ما أنزل الله به من سلطان. وهذا النوع

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.
(٢) سورة لقمان، الآية ٣٠.

الثاني، هذه البؤر الخائفة من الإسلام، معذورة نسبياً، وهي عندما تعيش ممارسات إسلامية حقيقية، عادلة ورحيمة، سرعان ما سترفع راية لا إله إلاّ الله وتهلّل وتكبّر وتملأ قلوبها بالحب الأقدس للأعزّ الأجلّ الأكرم، الرحمن الرحيم.

ويبقى السؤال كيف التلاؤم بين الأكثرية الجاهلة للإسلام، أو الأكثرية غير المؤمنة، في الأمة الإسلامية المرتقبة للفتح المبين؟

والجواب هو في الآية الكريمة:

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ....﴾[1].

على تفاوت في الدرجات، على أن الآية في آخرها ذكرت ما سيلحق أنصار الله الحقيقيين قوله تعالىٰ:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[2].

وهكذا يكون بقية أفراد الأمة الذين هم من غير الصفوة المجتباة، مصاديق لقول الله تعالىٰ:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

وهكذا ستكون الأمة الإسلامية بجميع درجات أبنائها الإيمانية، من قادة وعساكر، جاهزة للإنقضاض على صفوة الظلم البشري، أعداء الله المفسدين في الأرض ـ دولة بني إسرائيل. ولا ننسى أن الميزة الأساسية للأمة على أعدائها ستكون آنذاك، هي تأييد الله، ووعده الحق لأنصاره

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٤.

الموحدين، بالفتح المبين، يبشّرنا الله تعالىٰ به، على أنه حقيقة قائمة، قوله تعالىٰ عن بني إسرائيل:

﴿... وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

وهذه الآية كما أشرنا من قبل، مرفودة بآيات سورة الإسراء المتعلقة بهذا الأمر. وهذه الآية أيضاً، يمتد خبرها ومصداقيتها من طريقة إخراجهم من المدينة المنورة، وكل الجزيرة العربية، إلى إخراجهم الوشيك إن شاء الله تعالىٰ من فلسطين.

واستعمال الأفعال الماضية هنا كذلك يحمل الوجهين: الوجه الأول وهو الذي تحقق عهد الرسول الأعظم محمد ﷺ، والوجه الثاني الذي هو على سبيل التحقيق في المستقبل القريب بإذن الله تعالىٰ، ومن أصدق من الله قيلاً ومن أصدق من الله حديثاً.

واستعمالات القرآن الكريم لصيغ الماضي عن أمور ستتحقق في المستقبل كثيرة جداً، وهي من باب قول أهل النار لخازن النار على سبيل المثال:

﴿وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[2].

وكذلك الآيات الخمس الأولى من سورة الروم، والتي هي أنزلت أيضاً تحمل وجهين، مرحلتين، خبرين مستقبليين، أولهما وقع عهد رسول الله محمد ﷺ وهو المعروف تفصيله في كتب التفسير التي لم تتعرض للوجه الآخر المستقبلي والذي هو قيد التَّحقُّق، وللنظر في الآيات الكريمة قبل أن نعرض تأويلها، قول الله عزّ وجلّ:

---

(١) سورة الحشر، الآية ٢.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٧٧.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آلم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وفي الفعلين (غُلبت) و(سيَغلبون) قراءتان: الأولى هي المشهورة في المصحف الشريف بضم غين الأول وفتح ياء الثاني، أما القراءة الثانية التي سنقرأها بناء على الخبر المستقبلي الذي نحن بصدده، والتي تحقق بعضه في حرب الخليج. فسنقرأه هكذا:

﴿غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ...﴾.

أي بفتح غين الفعل الأول وبضم ياء الفعل الثاني.

فيصبح المعنى في القراءة الثانية أن الروم هم الذين تغلبوا على خصومهم في أدنى الأرض، وذلك أمر وقع كما هو معلوم، إبان فصل الشتاء من السنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، حيث اجتمعت الروم وتحالفت رغم خلافات بين كثير منها، تحالفت في جميع أقطار الأرض لتنتصر في حرب خاطفة طاحنة على خصومها في أدنى الأرض، وكلمة أدنى الأرض، من الشواهد البارزة على ذلك، فمكان المعركة في العراق والكويت ونفس الحجاز، أدنى إلى مكان نزول القرآن الكريم على قلب محمد ﷺ وأقرب من فلسطين، (حيث كانت فلسطين وبلاد الشام عامة هي المقصودة في الوجه الأول من الخبر القرآني) وهكذا سيطر الغرب أو الروم بالمعنى التقليدي، على جميع المنطقة في الشرقين الأدنى والأوسط، وهو في صدد أن يسيطر على العالم كلّه بنفس إمبريالي يعدّ له الآن العدد والعدة.

---

(١) سورة الرو، الآية ١ - ٥.

أما الشاهد البارز الثاني على مصداقية الوجه المستقبلي للآيات الكريمة فهو قوله تعالىٰ:

﴿يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ... الآية﴾.

وهكذا يظهر بوضوح أكثر ممّا يظهر من الوجه الأول لزوم الفرحة للمؤمنين، حيث أن فرحهم بالنسبة للخبر الذي مضت مصداقيته كان بانتصار الروم على الفرس، والروم عهد ذاك نصارى والفرس وثنيون.

وصحيح أنه من الطبيعي أن يفرح المسلمون بانتصار مسيحيين على وثنيين حيث كان حرص مشركي العرب آنذاك على انتصار الوثنيين لمشابهتهم لهم. إلاَّ أنه من الطبيعي أكثر أن يفرح المسلمون أكثر بأن يُغلب على أمرهم جميع الفرقاء الذين نصّبوا أنفسهم أعداءً للإسلام والأمة الإسلامية وأن يهزم بعضهم بعضاً وهم أهل الغرب عامةً، أصحاب الحضارة الزنديقة، وتكون فرصة المسلمين في هكذا حال أعمّ وأعظم، حيث تبقى الأمة الإسلامية هي الأسلم والأنقى والأقوى على الأرض، لأنها كانت وستبقى بإذن الله، هي الأعبدُ لله والأطوعُ لتعاليمه والأحرصُ على رضاه، وبكلمة، لأنه كان في خلاصتها الموحّدون الحقيقيون، أنصار الله جلّت عظمته، وتبارك وتعالىٰ عمّا يشركون.

وبذلك يكون الفصل في الكلام، أن الروم، وهو الاسم التقليدي عندنا لأهل الغرب عامة، النصارى منهم والملاحدة، سَيُغْلَبُونَ، سيغلب بعضهم بعضاً، وذلك سيكون هو النصر الموعود في الآية الكريمة، بزوال القوىٰ المعادية لله تبارك وتعالىٰ وبقاء الأمة الإسلامية التي كانت خيرَ أمةٍ أُخرجت للنّاس بفضل الله ورحمته.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

بخصوص القوىٰ الهائلة التي ستدمر في الحرب الموعودة، ثم يؤيّد الله عزّ شأنه أنصاره وينصرهم نصراً عزيزاً على دولة المفسدين في الأرض، دولة بني إسرائيل كما أشرنا بإسهاب ونحن بصدد الآيات الملحمية

الكريمة. ثم يبقى من يبقى من أهل الأرض مصداقاً لوعده تبارك وتعالىٰ في قوله:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً. وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[1].

وواضح أن الشرط الأساسي لهذا الاستخلاف في الأرض وهذه العطاءات المصيرية والعالمية، (التي هي أعلى وأرقى، وأجمل وأبهى ما يطمح إليه المجتمع البشري في الحياة الدنيا، أن الشرط الأساسي للحصول على كل ذلك هو التوحيد الصافي، النقي، وهو الدين المخلَص لله، المخلَّص من كل شائبة، والمخلّص من كل شريك، صنماً كان أو وثناً، نبياً كان أو إماماً أو وليّاً[2]. ذلك قوله في الآية الكريمة:

﴿يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.

أما العبارة الأخيرة من الآية قوله تعالىٰ:

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾.

فتنويه على أن الأرض لن تخلو من فسقة، لأنها لن تكون الجنة الموعودة ولا بحال من الأحوال. ولعل من وجوه الحكمة، والدار دار تكليف، أن يبقى المؤمن يرى الأضداد لتبقى عنده الحوافز على تقوى الله عزّ شأنه. والضدّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ.

ثم إن التبادر في مجمل الآية يوحي بأن الفسّاق الذين سيبقون في

---

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

(٢) وهذا لا يتنافى مع مفهوم الولاية كما ظنَّ ويظن بعض الذين يتساهلون في الولاء لرسول الله وأهل بيته ﷺ. فآية الولاية تحسم الأمر حتى لا لبس فيه، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الآية. سورة المائدة، الآية ٥٥.

الأرض. سيكونون قلة لا تزاحِم، ليس لهم حكم ولا قوة.

والحمد لله ربّ العالمين على ما أولانا وعلى ما أعطانا وعلى ما سيولينا وسيعطينا إن شاء الله، من جوده وفضله، ورأفته ورحمته، وهو العزيز الوهاب. عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

(١٦)

القرن العشرون الميلادي
في مواجهة أشراط الساعة

القرن العشرون الميلادي
في مواجهة أشراط الساعة

بعدما استعرضنا بالآيات الكريمة مجريات ما سيحدث بعد القيامة الصغرى، أي الحربِ العالمية، من سقوط قوىٰ الطغيان في العالم عامة ثم سقوط دولة بني إسرائيل في الشرق الأوسط بشكل خاص. ثم بعد هذين السقوطين قيام المجتمع الفاضل متمثلاً بالدولة الإسلامية المباركة من رب العالمين. نعرض لأشراط الساعة التي تتحرك بين ظهرانينا منذ أمد أقله بداية القرن العشرين الميلادي. وهي تتكاثف وتتواكب أكثر فأكثر كل ما مضت الأيام وصولاً إلى تجلّيها علمياً في العقد العاشر الذي نعيشه حالياً من هذا القرن. ومع ذلك، مع أنها تقرع بقوة أبواب الساعة أو القيامة الكبرى على مستوى الكون، مع ذلك كلّه فإن الناس لا يعون منها إلاَّ الوجه العلمي منفصلاً عن وعد الله ووعيده وعن الدين بشكل عام، يتساوى في ذلك المسلمون في أقطار العالم مع غيرهم من أصحاب بقية الملل.

ومن الآيات الكريمة الفذّة التي تربط بني الشأنين الكبيرين شأن القيامة الكبرى الكونية والقيامة الصغرى الأرضية، قول الله عزّ من قائل:

﴿وَإِنْ يَرَوا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ. يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ

هُمْ يُنْصَـرُونَ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا عَـذَابـاً دُونَ ذَلِـكَ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

وقبـل أن نشرح الآيـة الأولى ربـطاً بـالحقـائق العلميـة التي هي الآن راهنة في السماء، نوجز مجمل معاني الآيات الثلاث، في نقاط ثلاث:
(إذا رأوا كسفاً)، والكِسْف ما يغطي الشيء أو يحجبـه، والمقصود هـذا الذي أسموه بالغيوم الحرارية، يقولـون هذا سحـاب متلبد متـراكم، والحقيقة أنـه ليس كذلك، بل هو ساقط من السماء وليس متشكـل حسب نامـوس تشكل الغيوم بمفاهيمنا الأرضية. وهـو علامـة للقيامتين: الكبـرى كما هـو واضح، والصغرى كما سنرى في النقطة الثالثة.

ثانياً: في القيامة الكبرى يصعقون، فلا يغني عنهم كيدهم في معاندتهم الله عزّ وجلّ ولا يجدون ناصراً ومن هنا يبدأ العذاب الأكبر، عذابهم في الآخرة.

ثالثاً: وفي الآيـة الثالثـة إشارة للقيـامـة الصغـرى، والمـآسي النـاتجـة عن الحرب التي سيعاني منهـا موقـدوها الـويلات، بمـا قدمت أيـديهم، وهذا ما أسماه الله عزّ وجلّ بالعـذاب الأدنى، في إشارة إلى عـذاب الدنيا، كما أشار إلى عذاب الآخرة بالعذاب الأكبر:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ﴾(٢).

وواضـح أن هذا المعنى يـوافق قولـه عزّ وجـلّ في آية الـطُّور الثالثـة المشـار إليها آنفـاً وهي قولـه تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا عَذَابـاً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** كناية عن ويلات الحرب ومـآسيها، ومـا يرافقهـا من تغيرات سلبية في المحيـطات والأرض والسماء، كـلّ ذلك مـواكباً لهـذا الشرط من أشراط القيامتين الصغرى والكبـرى، والذي هـو الكسف الساقط من السماء.

---

(١) سورة الطور، الآيات ٤٤ ـ ٤٧.
(٢) سورة السجدة، الآية ٢١.

ثم لنخشع الآن بكل جوارحنا، مع آية (الكسف) هذه كما سنخشع حتى الفناء في فناء الله، حبّاً له وخشيةً وتعظيماً، يشعرنا بعده وبعد كلّ خشوع وخضوع، وخشية وتعظيم، بالأمن والسكينة، ويؤيّدنا بحفظه ونصره وحبّه. جلّ شأنه وعزّت قدرته ولا حول ولا قوة إلاّ به. وسبحانه وتعالىٰ عمّا يصفون وعمّا يشركون.

فكلمة (الكسف) هذه فيها ثلاثة قراءات في ثلاثة معانٍ متقاربةٍ متداخلةٍ، مقصودةٍ في ما ترمي إليه الآية، وليس ذلك بعجب، لأنه من شأن القرآن الكريم ومن إعجازه فهو عند الله عليّ حكيم:

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

وأحسن القراءات لكلمة الكسف هذه هي التي بفتح الكاف وتسكين السين لأنها تعني إلقاء حجاب على الشيء بما يسبب حجبه أو إظلامه نسبياً أو كليّاً، وهذا أمر واقع اليوم، وهو الذي أصبح معروفاً تحت اسم الغيوم الحرارية، التي تلف الأرض، وتشكل حولها درعاً حسب تعبير أحد علماء المناخ الهولنديين. فما هي هذه الغيوم الحرارية، التي يقرع علماء المناخ بسببها نواقيس الخطر، والتي عقدت لها الدول الكبرى والصناعية ومؤسسة الأمم بضعة عشر مؤتمراً دولياً لتاريخه، وستبقى تعقد المؤتمرات، وذلك لمنع أسبابها، ـ حسب ما يظنون ـ ودرء أخطارها الجسيمة التي من جملة ما تهدّد به العالم هو إغراق عواصم ودول، في أوروبا كما في أميركا كما في شواطىء شبه القارة الهندية، وغيرها من بقاع الأرض، كما بمياه البحار والمحيطات كذلك بمياه الأنهار الكبرى والأمطار الغزيرة والطويلة الأمد.

الغيوم الحرارية (علميّاً) هي الكسف (قرآنياً):

بدأت الحكاية تتصعّد في مطلع الثمانينات، بعد أن كانت بين

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٤.

العلماء، حديثاً هامساً متسائلاً يتلوه مطّ الشفاه الذي يرسم علامات الخوف والاستفهام.

وفجأة ارتفع الصوت وبحدة آتياً من فرنسا، وعلى لسان رئيس أكبر مؤسسة مناخ في أوروبا، مركزها باريس. هذا الصوت جلجل منذراً بغرق باريس بعينها، وكذلك بعدة عواصم أوروبية، ودول أبرزها هولندا والبلدان الواطئة بشكل عام.

ثم ارتفع صوت آخر، أكثرَ حدةً، وأبلغَ تخويفاً، وهذه المرة من نفس هولندا، والصوت يقول بالحرف الواحد: «أعدوا القوارب» وفي نفس هذا الإنذار المرعب تفصيل نوجزه بأن هذه الغيوم الحرارية، تتكاثف أكثر فأكثر، حتى أنها شكلت درعاً حول الكرة الأرضية ما زال يقترب شيئاً فشيئاً من هذه الكرة، فيحبس الحرارة، التي كان من شأنها الصعود بحرية إلى الأجواء العليا، أما الآن وقد أصبحت حبيسة، فهي تؤثر سلبياً في عدة اتجاهات منها ذوبان الجليد في أنحاء الأرض، وخاصة في سيبيريا والقطب الشمالي وبصورة أخصّ في القطب الجنوبي في القارة الجليدية المعروفة باسم قارة (الانتاركتيكا) والذي إذا ذاب جليدها وحدها، يرفع منسوب البحار في العالم إلى عشرين متراً عمودياً، ممّا يتسبب بغرق ما يزيد على ٧٥٪ من سكان الكرة الأرضية.

ومنها تدفئة مياه المحيطات التي تساعد أيضاً في إذابة الجبال الجليدية الهائلة الحجم، واقتلاعها من أمكنتها، وكذلك إذابة السابح منها في البحار والمحيطات، والتي يظهر منها عادة فوق مستوى البحار، حوالي العشر فقط لثقلها وكبر أحجامها.

وآية (الكسف) هذه، هي من الأشراط التي ستبقى ردحاً من الزمن ماثلةً، هكذا جهاراً، ليلاً ونهاراً، أمام المراصد، والمختبرات وأمام العلماء، وبالتالي أمام جميع الناس، تذكرهم بدنو القيامتين الصغرى والكبرى، حتى إذا مضت الحرب، وبقي من أعداء الله وأهل الشرك بقية،

ظل هذا الكسف إلى يوم الصعقة الكبرى، وله باطن للمؤمنين فيه الرحمة وظاهر فيه العذاب لأعداء دين الله. كذاك السور الذي يضرب يوم القيامة بين المنافقين والمؤمنين، يوم يحشرون جميعاً إلى الله العليّ القدير:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1].

عمياء هي علوم الحضارة الزنديقة، وفي أحسن حالاتها هي عشواء أو قصيرة النظر. إذ أن علماءها لا يفكرون بقيام الساعة على أنها بأمر إلهي، وأنه سبحانه وتعالىٰ جعلها حشراً للعالمين لحسابهم وبعدها إما إلى جنة وإما إلى نار.

علماء الحضارة، حتى ولو استشعروا نهاية العالم، فهم يقفون عند هذه النهاية، وقوفاً فيه من البله والغباء ما يبعث على الدهشة، لا سيّما إذا استعرض الإنسان نسبة وصولهم العلمي والتربوي والاقتصادي والسياسي والصحّي والإنساني، إلاّ أن العاقل بعد التحقيق والتدقيق، والنظر إلى هذه العناوين بنور الله تبارك وتعالىٰ، يجد أنها عناوين فارغة، فالعلم عندهم والتربية والاقتصاد والسياسة والصحّة والإنسانية والفنون، وكل شأن حياتي من شؤونهم، إنّما هي أمور يوجهونها أفقياً، فتأخذ خط الانحناء الذي يؤدي بالضرورة عندنا إلى الهاوية:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَهْ﴾[2].

فمثلاً هم يقولون إنّ الغيوم الحرارية هذه، ناتجة عن تزايد ثاني أكسيد الكربون، المتصاعد من احتراق الزيوت وجملة أنواع الاحتراق في المصانع والسيارات. وكذلك تزايد قطع الأشجار في الغابات، وكذلك تزايد

---

(١) سورة الحديد، الاية ١٣.

(٢) سورة القارعة، الآية ١١

السكان في الأرض، ممّا ينتج زيادة في التنفس، وهم يبذلون جهوداً كبرى في هذه الأيام، للخلاص بأية وسيلة من مداخن المصانع التي تلوّث البيئة، حيث توجد، وتلحق الأضرار الفادحة، بالإنسان والحيوان والنبات.

وهكذا يسهبون في ذكر الأسباب، وتستغرق تقاريرهم ومؤتمراتهم ساعات طوالاً، وأياماً وشهوراً من الدراسات. ومع كلّ ذلك، وخلال كلّ ذلك لا تجد في تقاريرهم، ولا مؤتمراتهم، ولا عبقرياتهم أثراً للاعتقاد بحاكمية الله، وبوجوب الخشية من الله، وبوجوب التزام تعاليمه، لكي يرفع هو سبحانه العذاب النازل، والنذير الماثل أمامهم مثول السيف الذي بعرض الآفاق على الأعناق.

وخلاصة موقفهم أنهم أخذوا بالعلم منقطعاً عن الله وعن دين الله. وذلك قول الله تبارك وتعالىٰ فيهم، وفي أمثالهم من الماضين والباقين، في جميع الملل والمجتمعات والحضارات، حيث تكون مفاجأتهم بقيام الساعة ولات ساعة مندم:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(١).

كان لزاماً عليهم أن يقيدوا العلم بما أنزل الله، فاكتفوا بالعلم فرحين به مزهوين، واطرحوا ما أنزل الله عزّ شأنه.

ذلك أيضاً قوله تعالىٰ فيهم وبأمثالهم:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٤.

(٢) سورة غافر، الآيات ٨٣ ـ ٨٥.

الإنشقاق. . . ماثل في السماء:

والانشقاق في السماء، هو من الأشراط الكبيرة، للقيامة الكبرى، وهو في قول الله تعالىٰ في سورة (الانشقاق) التي سمّيت باسمه لأهميته:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ. وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ. . .﴾[١].

إلى أن يقول سبحانه جواباً للشرط:
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾.
وذلك يعني يومِ القيامةِ، أو الساعة، أو يوم الحساب. وكل ذلك بمعنى واحد.

ومعظم الأشراط التي في القرآن الكريم، والتي نحن في مواجهتها في عصرنا هذا، تبدأ صغيرة، ثم تتدرج في في الكبر أو الاتّساع، حتى تبلغ أوجاً لها يعلمه الله سبحانه، تكون مباغتة الساعة رهناً به، أي بهذا الأوج، وطبيعي أن لا يكون اقتران المباغتة ببلوغ أوج واحد من الأشراط، وإنما أن تتساوق الأشراط وتتواكب، كما ألمحنا من قبل، حتى يبلغ كل شرط أوجه الذي قدّره الله له، فتكون عندئذ الصيحة والعياذ بالله وحده لا شريك له.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا. . .﴾[٢].

أما إن هذا الانشقاق هو ماثل اليوم في السماء، فهو الخبر الذي أيضاً، يهزّ العلماء والمتتبّعين للتغيرات العجيبة، هزّاً عنيفاً، زاد من حدّته، كونه هو والغيوم الحرارية يشتركان في كثير من وظائفهما وتأثيراتهما.

فكما أن الغيوم الحرارية (الكسف) تعجل بإذابة الجليد والثلوج في أنحاء الأرض، كذلك هذا الانشقاق الذي حصل في طبقة الأوزون، والذي

(١) سورة الإنشقاق، الآيات ١ ـ ٥.
(٢) سورة محمد، الآية ١٨.

هزّت أخباره العلماء من أقاصي المغرب إلى أقاصي المشرق.

وممّا يزيد من خطره ـ حسب تقارير العلماء ـ هو كونه فوق القطب الجنوبي مباشرة، أي فوق القارة الجليدية، التي كانت منسيةً نسبياً، حتى ظهر هذا الانشقاق أو الانفطار، أو الفتحة أو الثغرة، في طبقة الأوزون، فوقها تماماً، وهي القارة التي يعني ذوبانها تهديداً مباشراً لمعظم أنحاء الأرض.

فما هو هذا الأوزون، ولماذا الخوف من انشقاقه؟

الأوزون بمفاهيمنا الإسلامية، هو سماء، هو السماء المباشرة لنا، لأرضنا هذه الدنيا، وهو بمفهوم العلماء، طبقة في الأجواء العليا، من شأنها تغليف الأرض، تغليفاً كاملاً، للحيلولة دون تسرّب أشعة الشمس بشكل عمودي ومباشر، وبتعبير آخر، من وظائفه كسر الأشعة الشمسية وتصفيتها وعزل الضار منها للأرض ولأهل الأرض، وبتعبير أكثر إيجازاً، هو ميزان يحفظ الأرض وأجواءَها وجليد قطبيها، من كل إخلال بنظام حياتها الطيبة والمباركة التي هكذا شاءها لها ربها الحليم الكريم والرحمن الرحيم مذ خلقها: قوله تعالىٰ:

﴿والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ﴾[1].

وعن الأرض قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[2].

والدليلُ القرآني على أن هذه الفرجة في السماء هي جديدة، قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الرحمن، الآية ٧.

(٢) سورة فصلت، الآية ١٠.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[١].

وهكذا تأتي الأشراط وكأنها إخلالات بالطبيعة في الأرض وفي السماء: تغيير في بعض المعالم الكبرى، أو تحويل في بعض الثوابت، أو هدم لبعض الأنظمة الكونية، بطرق وأساليب تصدم وتهزّ وتخيف، وبالنتيجة تكون هي النذر التي تسبق القيامة الكونية، فتكون رحمةً للمؤمنين بالله وبالسّاعة وبالحساب، حيث يستعدّون، ويتّعظون، ويزدادون إيماناً وتصديقاً، وتكون وبالاً على الكافرين بالله أو بالسّاعة، أو بالحساب، وكذلك على المشركين والمنافقين والمرتابين بالله وبكتاب الله، وبوعده ووعيده عزّ شأنه وجلّت قدرته. قوله تعالىٰ:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلْ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[٢]. .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه الأشراط، إضافةً إلى كونها يواكب بعضها بعضاً، فكأنما هي تحركت جميعها في زمن واحد، وطبعاً إلى غاية واحدة، هي تلبية أمر الله تبارك وتعالىٰ الذي هو بالغه:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[٣].

﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ هندسةً وحساباً في الزمان والمكان والأحجام والعلاقات بين خلقه:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٤].

---

(١) سورة قٓ، الآية ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٨.
(٣) سورة الطلاق، الآية ٣.
(٤) سورة يونس، الآية ٦١.

وكذلك ينبغي أن نلاحظ أمراً آخرَ هو بغاية الأهمية للمراقب الحريص على تتبّع آيات الله في كتابيه العظيمين: القرآن الكريم والكون العظيم، هذا الأمر، هو كون الأشراط يساعد بعضها بعضاً ويساند بعضها بعضاً ويرفد بعضها بعضاً، تستقطبها قوانين ونواميس، صحيح أن العلم أدرك منها الكثير بإذن رب العالمين، إلاَّ أن أكثرها لم يدركه العلم بعد ولن يدركه. من ذلك، الانشقاق في الأوزون الذي يتواءم مع الغيوم الحرارية والأوزون والغيوم الحرارية يتواءمان في إذابة الجليد وتسجير البحار أي ملئها، والأرض بتخليها عن النفط في داخلها تساهم في تسجير البحار أي اشتعالها، وهما أي الملء والاشتعال، معنى قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[1].

وكذلك هذه في أشراط الساعة.

وقبل أن ننتقل إلى أهم وأبرز الأشراط، نعود إلى الآيات التي ذكرنا من سورة (الانشقاق) لنذكر معانيها، ولا قوة إلاَّ بالله الحبيب.

فمجمل القول في الآيات الخمس الأولى من السورة المباركة والتي أولها ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ أن هذا الأمر العظيم وقع، وأن بداية هذا الانشقاق، هي الثغرة الحاصلة في طبقة الأوزون في القطب الجنوبي ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أذِنَتْ: أصبحت أذناً صاغية تتلقى الأوامر التي تحقق الأشراط الكونية للساعة، وهذا أمر بدأ منذ بداية الانشقاق ومنذ اكتشاف الغيوم الحرارية ونتائجها ﴿وحُقَّت﴾ أصبحت كالحقّ بضم الحاء. وهو إناء مستدير يوضع عادةً فيه الطيب. ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بالعدّة والعدد، مثل ذلك قوله تعالىٰ:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ...﴾[2].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

---

(١) سورة التكوير، الآية ٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٦٦.

وألقت ما فيها من النفط وتخلّت أفرغت. ومعنى ذلك اكتمال الآية ووصول هذا الشرط إلى الأوج.

ولا يغيبن عن بالنا، أنه للأهمية البالغة لشرط الانشقاق هذا، فقد سمّيت في القرآن سورتان باسمه، هما سورة الانشقاق وسورة الانفطار، وهما كما هو معلوم، بمعنى واحد، وسنمر إن شاء الله تعالىٰ على الأشراط التي في (الانفطار) عند تعرضنا لأهم الأشراط الباقية.

* * *

تكوير الشمس وانكدار النجوم شرطان ماثلان في الفلك:

لكي نفهم المعنى المراد من قوله تعالىٰ في سورة التكوير ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ ينبغي أن نُدْرِكَ أولاً أنّ كلمة (الشمس) هنا، هي اسم جنس وثانياً أن هذه الكلمة حيثما وردت في القرآن فهي تارةً اسم جنس يشمل كلّ الأجرام التي هي من جنسها، وفي الكون منها المليارات..وتارةً تعني اسم العَلَم الذي يعين شمسنا هذه المختصة بأرضنا. وعلى المرء أن يميّز بين الأمرين بالقرينة، هذا بالنسبة لظاهر الألفاظ، على أن لكلمة (الشمس) مَعَانِيَ أُخَرْ تدخل في معاني الباطن والتأويل، قلّما نحتاج إليها في بحثنا لأشراط الساعة في الظواهر الكونية.

ولأن كثرة الأجرام التي هي مثل شمسنا، وأكبر منها ـ سنخاً وحجماً ـ بملايين المرات، ولأن هذه الأجرام اكتشفت حديثاً، في بدايات هذا القرن العشرين الميلادي، الخامس عشر الهجري، لذلك بقي العلماء ومعهم الناس، يفهمون من حقيقة (الشمس) فقط هذه التي نراها بالعين المجردة والتي تقود مجموعتنا الكوكبية إلى حيث لا يعلم إلاَّ الله. ومن البديهيّ أن يكون كذلك مفسّرو القرآن الكريم، حيث إننا وجدناهم يتعاملون مع هذه اللفظة، حسب المعطيات العلمية المعاصرة لهم.

وما قلناه في الشمس، نقوله أيضاً في القمر والأرض، فقد أصبح من

الثابت أن للمشتري خمسة عشر قمراً ومثلها للمريخ وكذلك أقل أو أكثر لكواكب أخرى.

وهكذا كان تعامل المفسّرين مع الشمس والقمر والنجوم في كتب التفسير، على أن الشمس والقمر مفردان، وأن الشمس هي أصغر من الأرض حجماً، وكذلك النجوم عامةً. نرى ذلك في جميع كتب التفسير دون استثناء فكانت المشكلة ليست مشكلة القرآن، كما ذكرنا في بحث سابق من هذا الكتاب، وإنما هي مشكلة المفسّرين، والقصور العلمي في كتابي الله العظيمين: الكون والقرآن.

وكما هو معلوم، أنه من هفوات المفسّرين وأكثر المشتغلين في التراث الديني، أخذهم عن السلف، وليس هذا فحسب، وإنما كذلك تقديسهم لما ترك السلف، أو حتى لما يظن أنه ممّا ترك السلف، في وقت يكون بعض ما ترك السلف من المدسوسات الشيطانية فيحصل الإرباك، وتتعقد الأمور، فقط لأنهم لم يحسنوا التعامل مع قوله تعالىٰ:

﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَأَنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون﴾[١].

إذ ينبغي التحقّق، والتيقّن، تحت طائلة المسؤولية البالغة الأهمية، والحساب الشديد، إذ أن الأمر يتجاوز ظلم النفس، وهو أمر محدود، إلى ظلم الآخرين وهؤلاء الآخرون قد يكونون الأمة بأسرها وقد تكون البشرية المبلغة كلّها.

ومن الأمثلة السّريعة والموجزة على ذلك، والتي ما زلنا نقرأها في بعض كتب التفسير المحترمة، وذلك في تفسير سورة التكوير: أن الشمس تسقط في البحر ـ طبعاً يعني البحر الذي في أرضنا هذه ـ **﴿وإذا النجوم انكدرت﴾** كذلك الأمر تسقط في البحر أو المحيط.

ومثلاً آخر عن الأشراط عند المفسرين، وفي نفس سورة التكوير،

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٢٣.

ممّا أربك الكثيرين، وبعث بعضهم على احتمالات هجينه، لا يقبلها من له أدنى حظ من العربية، هذه اللغة الجميلة والفصيحة والتي باركها الله سبحانه بأن أنزل بها هذا القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هذا الشرط هو قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾(١).

لن أذكر هنا إلّا قولاً واحداً، أحترمه رغم الخطأ البيّن الذي ثبت فيه، أحترمه فقط لأنه لم يتجاوز مفهوم اللغة في ﴿العشار﴾ المفهوم المتداول والمتناقل في لغة العرب، وتراث العرب، وشعر العرب، وكتاب الله المجيد. بهذه اللغة نزل وما زال يتلى وسيبقى إلى قيام الساعة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

ومعنى العشار في لغة العرب، وكذلك وبالضرورة في القرآن الكريم، النياق، ثم يسمّى الكلّ باسم الجزء، فيعني ذلك الإبل، وهذا القول الذي نحترمه مفاده أن العشار يذهل أهلها عن رعيها عند قيام الساعة، لانشغالهم عنها بأهوال القيامة. وقد كان هذا القول معقولاً، حين كانت العشار هي أموال الناس، أما وأنها قد نفدت عن وجه الأرض أو كادت، فقد بات واضحاً الخطأ في هذا التفسير، الذي ـ وللأسف ـ ما زال يتناقله ويصرّ عليه بعض المحدثين. والردّ البسيط على ذلك آتٍ ممّا تراه العين، ويعرف بالبديهة. وبعد أن كانت البدن وهي من شعائر الله، وأكثرها من العشار، أصبح من المستصعبات أن يحصل المرء على بدنة ليضحيها يوم النحر، بعد أن كانت تضحى بالألوف في موسم الحج.

وقد ذكر أنه يوم الحج الأكبر، الذي حجّه رسول الله ﷺ، اقتاد عن نفسه فقط ستين بدنة، ثم التقى بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، قافلاً من اليمن، موافياً إيّاه إلى مكة المكرمة، فأضاف إليها أربعين بدنة لا غير،

(١) سورة التكوير، الآية ٤.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٣.

تأدّباً بين يدي رسول الله ﷺ وكان جيشه يسوق منها الألوف من إبل الزكاة. فبلغ مجموع ما نحراه وحدهما مائة ناقة. هذا غير الذي كان يسوقه ألوف الحجيج من المسلمين في ذلك العام وفي كل عام:

﴿والبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ آللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا آسْمَ آللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ والمُعْتَرَّ﴾[1].

وشعائر الله بركات من الله على الناس في الأرض. ومن هذه الشعائر **﴿العشار﴾** وقد عطلت، أو كادت. فقد أصبح جليّاً وواضحاً أن قوله تعالىٰ **﴿وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ﴾** هو من الأشراط الماثلة أيضاً، حيث أن هذا المال الذي هو العشار، قد عطل عن التثمير والإنجاب والإنتاج عامةً، لولا بضع مئات هنا وهناك في أنحاء الأرض، وهو، أي هذا الشرط، بالغ غايته، بعد أن تجاوز بدايته.

﴿وَآللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2].

﴿إِنَّ آللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ آللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[3].

والآن بات حرياً بنا الرجوع إلى العنوان **﴿تكوير الشمس وانكدار النجوم﴾** وهما الآيتان الأوليان في سورة التكوير المباركة. منوّهين تنويهاً سريعاً بما بعدهما من آيات، ما دمنا سنحصل على الفائدة بحمد الله، من عرضنا للأشراط الكبيرة. قال الله تعالىٰ:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ. وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا النُّفُوسُ

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٦.

(٢) سورة هود، الآية ١٢.

(٣) سورة الطلاق، الآية ٣.

زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾[1].

تبدأ القيامة الكونية الكبرى.

ونحن إذا استعرضنا أبرز ثلاث سور مباركات: (الانشقاق) و(الانفطار) و(التكوير) نجدها الأكثر حشداً لأشراط الساعة من بقية السور القرآنية المباركة. ثم إذا قارنّا هذه السور الثلاث فيما بينها، نجد سورة التكوير أكثرها تفصيلاً كما هو ظاهر، ونجد سورة الانفطار أكثرها إيجازاً، فهي تختصر الأشراط في ثلاث آيات، قوله تعالىٰ:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم.
إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[2].

ثم تكون بعثرة القبور، أي القيامة الكبرى.

ولذلك سنتشرف أولاً بما يفتح علينا سبحانه، من تفصيل لأشراط (سورة التكوير) قوله تعالىٰ:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرت﴾.

ومعنى (كوّرت) كما جمعناه من مختلف التفاسير، ولسان العرب، هو: كورت: جمعت كالعمامة. لفّت وجمعت وألقيت. لفّت فرفعت وطوي ضوؤها المنبسط وألقيت. وروي عن النبي ﷺ أنه كان يتعوّذ من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ (بفتح الحاء والكاف) أي من النقصان بعد الزيادة وهو من تكوير العمامة. انتهى.

وواضح أن جميع هذه المعاني لا تناسب شمسنا هذه المفردة. وإذا انطبق عليها معنى اللّف والجمع باعتبار حركتها ودورانها حول نفسها، فتلك حركة قديمة رافقتها منذ خلقتها كما رافقت جميع الأجرام السماوية وهي ما

---

(١) سورة التكوير، الآيات ١ ـ ١١.
(٢) سورة الانفطار، الآيات ١ ـ ٣.

يسمّى بالحركة المغزلية، فلا يناسبها، في الآية الكريمة، الحرف ﴿إذا﴾ الذي يتضمن معنى الشرط.

ثم إنّ بقية المعاني، مثل: ألقيت. ورفعت وطوي ضوؤها المنبسط وألقيت، كذلك تتنافى مع الحقائق القرآنية لأوصاف يوم القيامة. إذ أن أي واحد من هذه المعاني إذا أطبق على شمسنا هذه، اضطرب نظام مجموعتنا الكوكبية كلّه، ودمّر ودمّرت أرضنا معه. والآية هي شرط من أشراط القيامة، وليست القيامة عينها. والأشراط وضعت تنبيهاً إلى يوم القيامة كما ذكرنا، وأنها، أي القيامة تأتي بغتةً، وأكثر من ذلك، أنها تأتي والسماء في عافية نسبية، وكذلك الأرض وأهل الأرض: وهذه الحقيقة مستفادة من قوله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هِمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾[1].

تبقى واحدة، ربما خطرت في بعض الأذهان، هي تصور أن يحصل في الشمس فجوة كما الفجوة التي في العمامة، فنقول أن هذا أيضاً فكر بدائي، يتبدّى قصوره عند من له أدنى معلومات عن حجم الشمس، وأبعادها ومقاييسها، ووظيفتها في ناموس التجاذب، إذ أن الفجوة المتصورة لها كما في العمامة، فيما لو حصلت، كذلك يترتّب عليها اختلال النظام أو دماره في مجموعتنا الكوكبية كلّها.

فماذا يعني إذن، قوله سبحانه ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ بعد أن بات مستحيلاً تطبيقه، وحتى ارتقابه على شمسنا هذه المفردة؟

هنا نعود إلى لغة اسم الجنس في الشمس، وهي في مجرتنا درب التبّانة بأعداد هائلة، ونعود فنذكر، أن الكلمات التي تحمل معنى الفرد

(١) سورة يٓس، الآيات ٤٨ ـ ٥١.

ومعنى الجمع في نفس اللفظة هي كثيرة، فمثلاً كلمة ﴿الإنسان﴾ هي من هذا القبيل، تارةً نعني بها الفرد من الناس، وتارةً نعني بها مجموع البشرية، وكذلك كلمة ﴿بشر﴾ إنما أنت بشر، وإنما هم بشر، وكذلك، كما ذكرنا قبلاً، الأرض والقمر. . .

على أن الدليل الأقوى والبرهان الأسطع، هو في مقارنة قوله سبحانه:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخُسِفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[1].

بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾[2].

فنفهم أن الشمس والقمر لن يجتمعا. وإنما المراد (بجمع الشمس والقمر) هو أن يجمعهما الناس لفظاً قاصدين بكلمة الشمس كلّ شمس في الكون، وبلفظة القمر، كلّ قمر، وما عرف ذلك إلاّ في هذا القرن الذي نعيشه، فجعل الله سبحانه إطلاعه الناس على هذه الحقيقة، شرطاً من أشراط الساعة.

ثم نقول في «برق البصر» إننا نتفق مع اللغويين على معناه، وهو حالة من الخوف والحيرة والدهشة، وهو كذلك أمر حاصل هذه الأيام عند أكثر الناس، يطّرد ويتزايد كلّما سمعوا خبراً بعد خبر، سواء عن الأوزون وفتحته، أو عن الغيوم الحرارية وفاعلياتها، أو عن الحروب الإقليمية، من كان في وقودها، أو من يصطلي بنارها، أو من تحلّ القارعة قريباً من دارهم. وأكثر أسئلتهم، ممّا ينطقون به، وما يتلجلج في صدورهم: كيف ولماذا، وماذا ومتى، وإلى أين ومن أين. . . ويبرق البصر مع كل سؤال حيرةً ودهشاً.

والقول في (خسف القمر): أما ادعاء خسوفه العادي، فهو من بدء

---

(١) سورة القيامة، الآيات ٧ ـ ٩.

(٢) سورة يٓس، الآية ٤٠.

الخليقة، يخسف كل عام تقريباً. فلا يليق بعاقل أن يعتبر ذلك شرطاً من أشراط الساعة. ولا هو الانشقاق، في قوله تعالىٰ:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ﴾[1].

فهذا أمر حصل كذلك في خريف السنة ١٩٨٩، وشوهد ذلك في عدة مناطق من العالم، وصوّر الحدث في الأرجنتين، في مناسبة دينية مسيحية، قيل فيه يومذاك أنه المسيح عليه السلام، وقيل أنها العذراء مريم عليها السلام. وقد علّق على ذلك كثرة من الناس، كلّ حسب ما يتصوّر ربطاً بما يعتقد. إلاَّ أن الحقيقة الباهرة، هي التي رآها وفهمها بفضل من الله، بعض أهل العرفان من أولياء الله، ممّن هداهم سبحانه واصطفاهم (وقد صوّر الحدث في عدة لقطات صورتها الصحف العالمية).

والقول لغة في (خسف) أن الخسف هو الغياب في الأرض، وهو الانهدام: ﴿وخسفنا بداره الأرض﴾، وهو ذهاب الضوء بمعنى الخسوف الكلّي العادي للقمر. وهذه المعاني استبعدناها كلّها، لاستحالتها أن تكون مجتمعة أو منفردة شرطاً من أشراط الساعة.

فيبقى المعنى الأخير من معاني الكلمة (خسف)، وهو أن الخسف هو الإذلال. وفي حديث علي عليه السلام: من ترك الجهاد ألبسه الله ثوب الذلّة وسيم الخسف... وفي معنى سيم: ألزم، وفي معنى الخسف: الهوان. فأصبح عندنا في معاني (الخسف) أنه الذلّ والهوان. أو الإذلال والهوان. انتهى. (من لسان العرب ـ ابن منظور).

وهكذا يكون قولنا الفصل بإذنه تعالىٰ، في هذا الشرط من أشراط الساعة (وخسف القمر). أي إذا ألحق بالقمر الذلّ والهوان، أو الإذلال والهوان، يكون شرط من أشراط الساعة.

وقد حصل ذلك في سبعينات هذا القرن، فبعد علوّ ومنعة وعزّة، وهيبة وجمال، هذه الصفات الكريمة التي كانت للقمر، وطأه الإنسان،

---

(١) سورة القمر، الآية ١.

واحتلّه فأذلّه، وأظهر تُرابِيَّتَهُ بعد أن ظلّ آماداً طوالاً مهيباً بنورانيته، وغريب أسراره، فألحق به الهوان، (وخسف القمر) وصدق الله الحبيب العظيم.

والآن بعد أن ألقينا أضواء حول شَرطَيِّ (التكوير والانكدار) بمساندة أشراط أخرى كان من الضروري أيضاً إبرازها، بات حرياً بنا الرجوع ـ ولو مراراً ـ إلى قول الله عزّ شأنه:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ إِنْكَدَرَتْ﴾[١].

وبعدما قلناه في معنى (كوّرت) نقول ما تقوله اللغة أيضاً في معنى انكدرت، وهو أن الانكدار، هو الانقضاض والسقوط.

فإذا كنّا نتوقّع من قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أن تسقط على الأرض وتنقض على أهلها، فإن الأرض كلّها لا تتسع لأصغر نجم في الكون، فكيف والآيات تعني جميع النجوم والكواكب ـ انكداراً وانتشاراً ـ علماً أن من النجوم ما يزيد عن شمسنا (٩٠) تسعين مليون مرة (هو قلب العقرب) وعلماً أن شمسنا تكبر أرضنا بـ ٣٣٣,٤٣٠ مرة.

وهذا يكفي للقول أنّ تصوّر انكدار النجوم أو سقوطها باتجاه الأرض، هو أيضاً مستحيل، ومضحك حتى للأطفال في الصفوف الابتدائية.

فإذا كان معنى الانكدار هو السقوط أو الانقضاض وقد وافقنا على ذلك لأنها اللغة، فذلك يعني بالضرورة السقوط والانقضاض في شتى الاتجاهات في الكون، وبعيداً عن أرضنا هذه. بهذا المعنى فقط تكون الآية ﴿وَإِذَا النجوم انكدرت﴾ شرطاً من أشراط الساعة.

والانكدار والانتثار هما أمران ماثلان أيضاً. أي ما عنته الآية الكريمة ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ وهو نفس المراد بقوله تعالىٰ ﴿وَإذا الكواكب انتثرت﴾[٢].

---

(١) سورة التكوير، الآيتان ١ و٢.
(٢) سورة الانفطار، الآية ٢.

وأخيراً، وبعد هذا التمهيد والتحقيق في ما مرّ بنا من آيات وأشراط، أصبح واجباً اعتماد الكشوف العلمية التي أرادها الله سبحانه تأويلاً لآياته والأشراط التي قرّرها لقيام الساعة. والتي هي مترابطة بين كتابيه العظيمين: القرآن والكون.

فماذا في العلم المحقّق اليوم عبر التلسكوبات العملاقة؟ وأقول، العلم المحقّق، لأن فيه القول الفصل، (كما الصّعود على القمر)، تمييزاً له، عن العلم النظري الذي ليس له صفة الحسم.

وسنحصر الكلام بما يكون مصاديق لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وإِذَا النُّجُومُ انكدرت﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتثرت﴾:

جاء في «كتاب المعرفة ـ الأرض والكون» الصادر عن جنيف ـ سويسرا، ما يلي: [إذن، فقد غيّرت تلك النجوم مواقعها. وإذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة لبعض منها، فلا بدّ أنه صحيح كذلك بالنسبة للباقي، وكذلك بالنسبة للشمس. وهنا بطل الاعتقاد بأن الشمس هي مركز الكون، ولم تعد سوى مجرد نجم من بين ملايين النجوم الأخرى] ص١١٦.

وتحت عنوان: سباق مذهل:

[إن الاعتقاد اليوم هو أن الفضاء الكوني مليء بأعداد كبيرة من المجرّات، وهي مجموعات من ملايين النجوم تتباعد عن بعضها بعضاً بسرعةٍ مذهلةٍ. ومجموعتنا الشمسية تكون جزءاً من المجرّة المعروفة بالطريق اللبني (سكّة درب التبّانة) والتي تشمل مئات الملايين من المجموعات الشمسية الأخرى المشابهة].

وعلى هذا الأساس، كل نجم في العرف العلمي هو شمس، وكل شمس هي نجم. وعلى هذا الأساس أيضاً، وهو قولهم [هي مجموعات من ملايين النجوم تتباعد عن بعضها بعضاً بسرعةٍ مذهلةٍ]. إنه الانكدار في قوله تعالى: ﴿وَإذا النجوم انكدرت﴾ والذي يعني الانتشار كذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾.

ثم أين (التكوير) من ذلك كلّه؟

في نفس هذا الكتاب المنوّه عنه، وفي الصفحة ١١١ جاء ما يلي:

[وتلّف المجرة وتدور حول نفسها بمعدل قدره ١٤٠ ميلاً في الثانية... ولسوف يصيبك الدوار إذا أقدمت على التفكير في كل الاتجاهات المختلفة التي تدور فيها وتلّف في وقت واحد].

المجرّات مجاميع شموس بالمليارات، هكذا يؤكد العلم برؤيا العين، وبالأرقام التي لا تكذب، لأن الله عزّ شأنه علّمها للإنسان، وعلّمه معها صناعة الوسيلة، وبها أصعده إلى القمر وعليه أهبطه.

والسؤال، لماذا مليارات الشموس هذه، تغطش في ليل بهيم، حتى لا يرى منها إلّا بصيص النور، بينما العوالم التي حولها أنصافها في ليلٍ ذاتي وأنصافها في نهارٍ ذاتيّ فمن أين اللّيل الذي يلفّ الجميع ثم بعده يلبس الجميع حلّة النهار، فمن أين النهار؟

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

فإذن تلفّ المجرّة وتدور.

فإذن ملايين المجاميع الشمسية، تلفّ وتدور. وفيها ما هو بحجم شمسنا، وما هو أكبر منها بملايين المرات.

وإذن ليست هي شمس واحدة في ما عناه الله سبحانه في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وإنه سبحانه لا يمكن أن يكون عَنَىْ شمسنا هذه، عندما جعل الآية شرطاً من شروط الساعة. لأنه يستحيل كما أسلفنا أن تكون

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

بمفردها موضوعاً لهذا الشرط الكبير.

وإذن ﴿**الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ و ﴿**النجوم انكدرت**﴾.

وإذن ﴿**الجبال سيِّرت**﴾ الجبال الثلجية تقتلع وتسيِّر في البحار، ومن أوصافها في كتاب الله تعالىٰ ﴿**ويوم تكونُ الجِبالُ كَالعِهْنِ المَنْفُوشِ**﴾ أي القطن وأصله البياض في اللّون.

وإذن ﴿**العشار عطِّلت**﴾ بعد أن كانت أنفَس المال المتداول بين الناس فقد عطلت تربيتها وعطل استعمالها. لولا بضع مئات في أقطار الأرض، تدل على أن الآية لم تبلغ بعد أوجها.

وإذن ﴿**الوحوش حشرت**﴾ وهو أمر طبيعي، حيث هيمن الإنسان على بقاع الأرض، استكشافاً واستثماراً، واستعماراً، وحروباً، وقطع غابات، هذا تفسيراً، وأما تأويلاً، فالوحوش الشيطانية حشرت، وكذلك الوحوش البشرية تحشر حالياً في أماكن، لتدور عليها رحى الحرب العامة القادمة، وينجي الذين آمنوا، قوله تعالىٰ:

﴿**حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِي المُؤْمِنِينَ**﴾[1].

وإذن، ﴿**البحار سجِّرت**﴾ بين احتراق وتفجيرات جزئية في بداية القرن نتيجة للتجارب النووية، ثم حرق مواكب بحيرات النفط العائمة على مياه البحار نتيجةً لحرب الخليج والتي ستتزايد بنسب أعظم في الحرب القادمة، وكذلك الوجه الآخر لمعنى التسجير، وهو امتلاؤها بالمياه، وقد بدأ ذلك نتيجةً للغيوم الحرارية وفتحة الأوزون، اللّتان في رأس تأثيراتهما إذابة الجليد في أقطار، ودفعها أنهاراً وشلالات إلى البحار والمحيطات. وما زالت الأخبار كلّ يوم تقريباً توافينا، بإعصار هنا وطوفان هناك، وغرق ودمار وقتلى هنالك، ومعظم هذه الأحداث على سواحل البحار.

وإذن ﴿**النفوس زوِّجت**﴾ وهو أمر غيبي حاصل أيضاً بتزويج النفوس

---

(١) سورة يونس، الآية ١٠٣.

العاديّة بالنفوس الملكوتيّة كما أشرنا في بحثنا: (الدماغ بين علم العقل وعلم النفس). وهو أمر بديهي أيضاً. عند أهل العرفان، عنيت تزويج النفوس بأمر منه سبحانه، وذلك بعد أن أنهى سبحانه وظيفة الأبالسة (إبليس وقبيله). وعطل أعمالهم وحشرهم، حيث يعلم الله ليوم الحساب، وذلك تحقيقاً لوعده سبحانه لإبليس، حين طلب من الله جلّت قدرته تأخيره إلى يوم يبعثون، فلم يجبه الله عزّ شأنه إلى طلبه، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم. والوقت المعلوم هو هذا العصر، الذي تتواكب وتتواءم فيه أشراط القيامة العظمى. وذلك في كتاب الله المجيد، قوله تعالىٰ:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[1].

وتتضح حكمةَ الله تبارك وتعالىٰ في تزويج النفوس بالنفوس الملكوتية، بعد تغييب الشيطان وقبيله، من معرفة وظائف النفوس الملكوتية وحقائقها (راجع: الدماغ بين علم العقل وعلم النفس).

وإذن (الْمَوَدَّةُ سُئِلَتْ) في إحدى القراءات، قرأها الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام: المودة وليس المؤودة. وهي قتل علي والحسن والحسين ومن قُتل من أهل بيت النبوّة الميمونة، التي جعلها الله رحمة للعالمين، وحيث أمر الله الحبيب رسوله. الأعظم صلوات الله عليه وعلى آله بقوله:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2].

فهذه المودة، قتلها أقوام وأقوام، وبقي المخلصون لها طاعة لله تبارك وتعالىٰ يسألونها في ردح من الزمان همساً، ثم وسّع الله عليهم فأخذوا يسألونها جهاراً، وعلى المنابر العالمية، يسألونها بأي ذنب قتّلت (بتشديد التاء).

---

(١) سورة صۤ، الآيات ٧٩ ـ ٨١.

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٣.

وإلاَّ إذا كانت القراءة (المؤودة) فلا يجوز أن تكون شرطاً، إذ الشرط يتقدم الساعة، لا يتأخر عنها. ومساءَلة المؤودة، إنما بالبديهة تكون بعد قيام الساعة والوقوف للحساب: ﴿قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[١].

هذا إذا كانت المؤءُودة ستسأل. وإنما الحقيقة المسؤول سيكون الوائد والظالم وكل مجرم عمّا أجرم.

وإذن (الصحف نشرت) وفي وجه من وجوهه أنه عمل فريق من الملائكة عليهم السلام، قول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾[٢].

يؤمرون فيبلغون. وكذلك ما يبلّغه أولياء الله تعالىٰ للناس في هذا العصر، ليكون حجّة في أعناقهم، ومنه هذا الذي نكتب، وبه نتحدث، والله وليّنا سبحانه، في نشره وتبليغه، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[٣].

وتبقى آخر آية في أشراط سورة التكوير، قوله تعالىٰ:
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾.

وهو استكمال شرط الانشقاق والانفطار، وهو انقشاع طبقة الأوزون كلها[*]، ممّا يجعل الحياة على الأرض لا تطاق، أو شبه مستحيلة، يرفع الله قبلها المؤمنين.

---

(١) سورة الصافات، الآية ٢٤.

(٢) سورة المرسلات، الآية ٣.

(٣) سورة الطلاق، الآية ٣

(*) بعد طباعة هذه الأوراق، حملت الصحف وأجهزة الإعلام عامة، خبرين أحدثا حالة رعب أكثر عند العلماء والمتتبعين.

الأول: انشقاق آخر في الأوزون في القطب الشمالي، سيكون له نفس التأثيرات تقريباً التي ذكرناها عن أوزون القطب الجنوبي. =

﴿لَا يَحْزُنُهُم الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١).

هذا لعامة المؤمنين.

وقوله تعالىٰ عن جهنم:

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾(٢).

وهذا للسّابقين:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيونَ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ. إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ. تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ. يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ. خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾(٣).

صدق الله العليّ العظيم.

وهكذا يكون الانشقاق الكلّي المباشر للقيامة العظمى، وهذا بالضرورة يحصل بغتة، لأن القيامة كذلك تأتي بغتة، قوله تعالىٰ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾(٤).

وآخر دعوانا أنّ الحمد لله رب العالمين.

= والثاني: كذلك انشقاق مستطيل فوق أميركا والمحيط الأطلسي وصولاً إلى أوروبا. وما زالت أخبار التأثيرات السلبية لهذه الانشقاقات تتوالى من نيوزيلندة وأستراليا وأميركا الجنوبية وبقية المناطق، من إصابات بسرطان الجلد إلى عمى الخرفان، إلى تغيرات كبيرة في المناخ والطبيعة، تنعكس سلباً على جميع الكائنات الحيّة بشكل لم يعرفه من قبل تاريخ البيئة.

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٢.

(٣) سورة المطففين، الآية ١٨ ـ ٢٨.

(٤) سورة الحاقة، الآية ١٥ ـ ١٦.

(١٧)
لا اسلام بدون توحيد

لا اسلام بدون توحيد

العلم فرصة تعبّدية:

لا ننسى أن مهمة العلم - كما يقول العلماء - هي الفحص والكشف عبر أسئلة: ما هذا؟ وكيف هذا؟ وماذا ينتج عن ذلك؟ ثم يقف العلماء خاشعين أمام قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[1].

أما ما يتبادر للذهن من العمليات التي يُجْرِيها العلماءُ، من جَمْعٍ وَتَوْلِيدٍ، وزرعٍ واستنباتٍ، وفلقِ ذراتٍ... في الكيمياء والفيزياء وشتى الحقول، فإنها أيضاً بموجب نواميس إلهيَّةٍ، موجودة في كتاب الله الكوني، قبل الكشف عنها. وضعها الله بعلمه وحكمته، حتى يقيض لهذا أو لذاك من عباده كشف أقنعتها في الأوقات المناسبة.

على أن الإنسان عالماً كان أو متعلماً، هو مسؤول حسب خطره ودرجته أمام الله، في تعامله مع علمه ونتائجه، من حيث طاعته لله وفوائده للبشر، أو إضراره بهم.

والإنسان، إما أن يستقيم في تعامله مع العلم، وإما أن يطغى، وقد

---

(١) سورة لقمان، الآية ١١.

نهاه الله عزّ وجلّ عن أن يطغى. قوله تعالىٰ:
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوا فِي الْمِيزَانِ﴾[١].

وأثنى عليه إذا هو قرن علمه بالإيمان والعمل الصالح، بقوله تعالىٰ:
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وقوله عزّ وجلّ:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣].
لذلك، ولأن رسول الله ﷺ كان أعلم الناس بما علّمه الله سبحانه كان يقول:
«أنا أشدكم خشية من الله».

وهذه المسؤولية الخطيرة، لا تتوقف عند المشتغلين في المختبرات ـ والأنابيب، متعاملين مع الكائنات الحية أو المواد الخطرة، وإنما تشمل أيضاً وبنسبة عالية، أولئك الباحثين والكتّاب والمنظرين، في مختلف ميادين الفكر، ولا سيّما القادة السياسيون، وقد وضع الله عزّ وجلّ لهم قواعد وضوابط، إن هم تجاوزوها، دخلوا في الغواية وأصبحوا في عداد الطواغيت:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٤].

الميزان الجريح... بين العنصرية والمجاعة:

من هنا ترى أقبح ما في الحضارة اليوم، نفاق أسيادها بتبجحاتهم عن العدل والحرية، سيّما الدول التي تدّعي الدين والإيمان بالله تحت عنوان

(١) سورة الرحمن، الآية ٧ ـ ٨.
(٢) سورة الزمر، الآية ٩.
(٣) سورة فاطر، الآية ٢٨.
(٤) سورة الحج، الآية ٨.

الديمقراطية والتفوّق الحضاري، وهي التي جرحت العدل عميقاً في وجهه، وأدْمَتْ الحرية، بإخلالات في فهم الإنسان عجيبة، منها التمييز العنصري والتمييز الديني والتمييز السياسي، بتحكم فاجر أرعن إذا استعرضت بعض تفاصيله، جعلت الدم يغلي في عروق أي إنسان ما زال ضميره بين جنبيه.

وهم يعملون بهذا التمييز تارةً بدون إعلان، وتارةً بشكل معلن وبموجب قرارات يبتزونها من هيئة الأمم التي أخضعوها بالإرهاب لمشيئاتهم. وهنا تتجلّى عظمة الإسلام بمفهومه التطبيقي عن العدالة والحرية. قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وقول رسوله محمد ﷺ الذي أصبح قاعدة عفوية في سلوك المسلمين مع أجناس البشر: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلّا بتقوى الله... الحديث... أو كما قال ﷺ».

وفي مقابل هذا الإسلام، باسم الديمقراطية الهجينة العجيبة، تذبح الأخلاق والقيم الإنسانية وتُهْتَكُ الحقوق، وتفتعل الفظائع، فمن إشعال حروب أهلية، إلى تدمير شعوب مستضعفة وتجويعها وقهر شعوبها شيوخاً وشباباً ونساءً وأطفالاً أبرياءً، إلى وجود مجاعاتٍ حقيقيةٍ في الأرض، على أن كل هذه الموبقات والجرائم التاريخية يمكن تلافيها بأهون السبل، بشرط بسيط، هو أن يرجع الكفرة الوحوش، عن كفرهم ووحشيتهم، هو أن يوحّدوا الله ويخافوه، إذا كانوا فعلاً يؤمنون به سبحانه وتعالىٰ عمّا يشركون.

فنظرة إلى الكرة الأرضية اليوم، تراها قد أصبحت كرية صغيرة، بعد التقدم التقني في المواصلات السريعة، وسقوط ما يسمّى بالحدود الطبيعية، من جبال وبحار ومحيطات، وأهل الأرض بدوا عليها جيراناً

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

متقاربين، إن لم نقل مجتمعاً إنسانياً واحداً.

ومع ذلك نسمع في الإذاعات، ونقرأ في الصحف، وعن ألسن أقطاب الفكر والسياسة، تصنيفاً لأهل الأرض، وأكثر ما تتردّد، عبارة (العالم الثالث) كناية عن تأخّره في المجال الاقتصادي أو الصناعي أو التقني، وذلك يوحي بأنه أدنى قيمة ودرجة من العالمين الأول والثاني، وهي إهانة جدّ مقبولة عند أهل هذا الثالث... وصلافة جدّ معقولة من سارقي ثرواته، اللصوص المثقفين بالنفط واليورانيوم.

والأدهى من هذا كلّه، ولعلّه الأقبح والأعظم عاراً في جبين عدالتهم، أن تشاهد في كثير من الليالي، على شاشات التلفزيون، وصفحات الجرائد والمجلات إضافة لقهر الشعوب وتجويعها وتخويفها صوراً حيةً، لشعوب، بأطفالها ونسائها، وشيوخها ورجالها، وهم من شدّة الهزال كالهياكل العظمية... تراهم، وأيديهم على بطون غرثى، يتضورون جوعاً، ويموتون موتاً بطيئاً... هكذا، أمام عينيك... وأعين سادة الأرض. الذين تراهم على نفس الشاشات يخطرون بأثواب الرفاه في قصورهم الفخمة وسياراتهم الفارهة، وطائراتهم العدوانية... وهم أينما حلّوا، يتحدثون عن عدالتهم، وأنهم حماة العدالة والحرية والديمقراطية في العالم.

الجنون... أو الجهاد في سبيل الله:

هذا الموت الأسود والموت الأسمر في بلاد الذلّة والاستكانة وبلاد المجاعات، يقابله في بلاد الديمقراطية الجائرة، والحرية العربيدة، انتفاخ بالثروات وإغراق بالرفاه، وفائض عظيم عن حاجة المستهلكين. يتجلى بالإنفاق على الحيوانات والطيور الأليفة بما يعادل رفع العوز عن سكان العالم الثالث قاطبة.

وما لا يمكن أن يصدّقه بشر، ولكنه الحقيقة المفزعة، أن هذا الفائض يتلف تحت عين الشمس، إما برميه في البحر وإما بإطعامه للنّار... هكذا وأفواه الأطفال الجياع فاغرةً أمام أعين الحكّام الذين يتلفون

الفائض أمام أعين سكان الأرض وملائكة السّماء. وهو أمر أقل ما يقال فيه، أنـه جنون كـافر أو كفـر جنوني. ولـولا نعمة الإيمـان بعدالـة الله وانتقـامـه العاجل والآجل، وبأن الأرض محطة قصيرة المـدّة، للجياع والمتخمين في آن واحد، وبأنه لحكمة يطول شرحهـا، ابتلى هؤلاء بالفقـر المضني وابتلى هؤلاء بالثراء الفاحش، وابتلانا معهم على شتى مستوياتنا:

﴿وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِـنْ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[1].

لولا كلّ ذلـك، لكان جنـون العقلاء من سلوك أهـل الجحيم هؤلاء، أقرب من إشعال الثورات ضدّهم. ولكن الحمد لله الذي عـافانـا من ذلك، حيث جعل لنا متنفسـاً شريفـاً، وجعلنا بـه شهداء على النـاس، بأن نكـون ثوّاراً على الفساد والظلم والإفساد، وأكرمنا سبحانه بأن نكون مجـاهدين في سبيله، إرسـاءً لشريعـة العدل ونعمـة الحريـة، ودفعـاً عن المستضعفين من عباده، وحَرْباً على أوغاد الأرض ولصوصها وطواغيتها.

لماذا تصدّع المجتمع الإسلامي؟

العقل، وغذاء العقـل، وإمدادات العقـل، مطالب أسـاسية هي سمـة العصر، والحاجة إليها، كالحاجة إلى الهواء والمـاء ورغيف الخبز. والعقـل وغذاء العقل وإمدادات العقل، هي في البشرية اليوم، إما ألغـام سرطـانية، وإما كؤوسٌ نورانية.

وإمدادات الفكر من أين؟

في مـدرسـة محمـد بن عبـد الله صلوات الله عليـه وعلى آلـه بـدأت الدروس هكذا:

﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾[2].

وفي مدارسنا اليوم، تبدأ هكذا: الفخر في بلادنا!...

مسخوا عقول أبنائنا من الخليـج إلى المحيط وبين القطبين، فمعـظم

---

(١) سورة محمد، الآية ٤. (٢) سورة العلق، الآية ١.

مثقفينا الذين هم في أعلى درجات الاختصاص، يقولون إن الإنسان قرد متطور، والمجتمع محكوم بالقانون الفرنسي أو الانكليزي. ثم تنسحب الجهالة بالقرآن الكريم والشريعة الخاتمة، على الفعاليات السياسية والفكرية في شتى الحقول والميادين. ليحل محل هذه الثروة الإلهية، الفرضيات والبدع والترهات، ممّا كان السبب في تصدّع المجتمع وضعفه، وبالتالي تبعيته لمراكز القوىٰ الجاهلية في العالم، والتي قطبها المتجبر اليوم، المعسكر الرأسمالي أو الأمبريالي، متمثلاً بأمريكا وحلفائها، هذا الحلف السادر في غيّه وطغيانه، غير مرعو ولا معتبر بسلفه القطب الآخر، الاتحاد السوفياتي الشيوعي، الذي مسخه الله مسخاً ومزّقه شرّ ممزق. والآتي على حلف الطواغيت هؤلاء، أعظم وأدهى:

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1].

المطلوب توازن الشخصية الإسلامية:

تبيّن لنا ممّا سبق، أن المسلمين، أوسع وأعمق علماً من غيرهم من أصحاب الملل، سماوية وأرضية، ولكن ما الفائدة، ونحن نعلم الكثير ولا نعمل ولو بأقله، وهم يعلمون القليل، ولكن أعمالهم كثيرة وكبيرة وباهرة.

صحيح أن نقص غير المسلمين لا يعوّض، حيث أنهم طلبوا الدنيا بالظلم والجشع والمعاصي، وانحرفوا عن صراط الله، فباؤوا بغضبه عزّ وجلّ وهم بالنتيجة الأخسرون.

قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رأوا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾[2].

---

(١) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٢) سورة مريم، الآية ٧٥.

هذا الشرط (لا إسلام بدون توحيد) هو مصدر كل توازن في الشخصية الإسلامية على اختلاف درجات التوازن وجهاته العقلية والنفسية والبدنية، وبالتالي الفاعلية في كل المجالات.

والتوحيد يعني عبادة الله عزّ وجلّ، والتوجّه إليه، والتعامل معه سبحانه بكليّة مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وكلية وجوده، دون شِركٍ لا ظاهرٍ ولا خفي، والشرك الخفيّ في أيامنا هذه، هو الأكثر والأدهى وعلى مستويات تبدو عالية.

أما إذا انحرف الإنسان وتنكب الجادة، يلبس بالعقل الهوى:
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾(١).
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسَ﴾(٢).

عندها تكون الدرب إلى الهاوية:
﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٣).

وحيث أن الأنفس، تختلف وتتعارض، ويسوّل لها ويملىٰ لها، بتأثير قوىٰ سلبية، تارةً محسوسة، وتارةً غير محسوسة، موجودة بين ظهرانيها، تؤثر فيها كما يؤثر جهاز اليد في التلفزيون مغيِّراً الموجة والصوت وما إلى ذلك بقوة تنبعث منه وهي غير مَرئِيَّة. وكما تؤثر الجاذبية في الأشياء دون أن نراها، كذلك دبيب الشرك الخفي تارةً من النفس الأمارة، وتارة من شياطين الجن والإنس، وكثيراً ما تتعاون هذه العناصر الثلاثة، فيكون تحالفها كفيلاً بدمار النفس ودمار صاحبها. وقد أعطانا الله جلّ شأنه، أسلحةً فتاكةً، لاستبعاد هذه القوىٰ، خفيّةً كانت أو مرئيّةً، ومعظم هذه الأسلحة موجودة في القرآن المجيد، على أن أولها وأساسها فكر التوحيد.

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.
(٢) سورة النجم، الآية ٢٣.
(٣) سورة الصف، الآية ٥.

وهكذا، فإن أي ذكر لله تعالىٰ أو لآياته يولّد أيضاً طاقةً غير مرئيةٍ، مضادةً لهذه القوىٰ السلبية، ومن شأن هذه الطاقة التي يحدثها الذكر، ذكر الله تعالىٰ وذكر آياته، أن تحجب وتبعد، أو تعدم وتبيد، كل ما يمس باستقامة الإنسان أو يعكّر فطرته.

وشرط التوحيد، يعني فهم أن بيده سبحانه ملكوت كل شيء، كل شيء، من أدق الأمور وأبسطها، إلى أجلّها وأعقدها، من الذرة وأصغر، إلى نهاية الأكوان. . . إذا كانت لهذه الأكوان نهاية.

فإذا حصل هذا الشرط الذي هو التوحيد كما يرضى الله سبحانه ويحبّ، فتح هو بحبّه الأبواب ويسّر الأسباب:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًىً﴾[١].

وإذا حصل شرط التوحيد، فتح بوابة العقل أوسع وأوسع، على فهم معانيه، وعلى نورانية تتساقط معها حجب الأسرار والأقنعة، وشرّع الله نوافذ العقل على عظمة النبوة كريادة، وعظمة الإمامة كقيادة، وعلى عظمة القرآن بين هذه وتلك، كمنارة للعالمين، في بحار الظلمات.

وإذا حصل شرط التوحيد، مشى المؤمنون أنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فشاهدوا مشاهدة الإيمان والعيان، ما هو أروع وأسمى فيما ينتظرهم، وظهرت لهم الأرض الدنيا بحجمها الحقيقي على صغرها وهوانها، فتخلصوا من غرامها غير آسفين مردّدين قوله عزّ وجلّ، عمّا قد يفوت الإنسان أو يأتيه منها:

﴿لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُمْ﴾[٢].

لأن الأشهى والأبهى في غير هذه الأرض. وهكذا يؤهّل المؤمنون أنفسهم لحب الموت في سبيل الله، وهذا من دلالات اليقين.

---

(١) سورة مريم، الآية ٧٦.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٣.

كل ذلك فضلاً عن النار، وذكرى النار، ورؤية النار، نذير الله عزّ وجلّ:

﴿كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَهَا عَيْنَ اليَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[1].

وإذا حصل وتكامل شرط التوحيد، نتج عنه التوازن المطلوب في أروع درجاته، وأصبح لسان حال المؤمن يردّد مقولة أمير الؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث إنه بعد معركةٍ أبلى فيها كعادته بلاءً عظيماً، أتاه صاحبه ضرار، فوجده قائماً يصلي، ويَنْشُجُ باكياً بين يدي الله ربّه وربّ العالمين جلّت عظمته، حتى إذا انفتل من صلاته، أقبل عليه ضرار، يسأله ما الخبر، فقال:

(يا ضرار ما عبدت الله تبارك وتعالىٰ خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، وإنّما وجدته أهلاً للعبادة فعبدته. يا ضرار، لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تراه القلوب بحقيقة الإيمان. يا ضرار، والله لو انكشف هذا الغطاء بيني وبين ربي ما ازددت يقيناً).

وهذه المعاني التي نتحدث عنها في فكر التوحيد، هي معانٍ بديهيةٍ ميسّرة، مسؤول عن تحصيلها والتفاعل معها كلّ ذي عقل سويّ ما دام في حكم التكليف.

إلاّ أن لفكر التوحيد أسرار ودرجات ومعارج، يتدرج فيها أهل العرفان، على أنهم يجب أن يظلّوا في تهيّب دائم وخوف من الله، يراقبونه في ذواتهم، سبحانه وتعالىٰ عمّا يصفون.

وحيث إن أسرار التوحيد كثيرة، وبحثها يقتضي مؤلفاً خاصاً، فنكتفي هنا بنموذجين على سبيل المثال: ركن الطهارة وركن الصلاة.

وهنا لن نتعرض إلى ما هو موجود في كتب الفقه، التي تبحث في

---

(١) سورة التكاثر، الآية ٥ ـ ٨.

ظاهر هذين الركنين، فهذا الظاهر، يتساوى فيه النبي ﷺ والبدويّ.

وإنما البحث هو في المعاني والأسرار، من بداية التوجّه إلى الماء وفهم الغاية، إلى الوضوء وإدراك النعمة فيه. أو التوجّه إلى التراب وفهم الغاية، إلى التيمّم وإدراك النعمة فيه، إضافةً إلى العناية بطهارة الباطن، ابتداءً من جوف الإنسان من حيث حفظه عن كلّ محرّم، ثم طهارة اليد والنفس عن الغير والغيرية، والآنية والأنانية.

وهكذا يصير العارف صالحاً للخروج من بيت النفس المظلم، داخلاً في معراج الصلاة، مهاجراً إلى رب العالمين، حتى يصل أمام باب الله، ويفنى أثناء السجود بفنائه، وفجأة يجد ذاته انتصبت متجاوزة شخصه السّاجد مجتازة الباب لتخرّ من جديد ساجدة حيث سجد رسول الله ﷺ وحيث يغدو ظِلاً نورانياً هو حالة ما بين المحو وبين الصحو. ثم يلهم للرجوع إلى حياته العاديّة، على أنه إذا أصرّ على المتابعة، فقد تكون الصّعقة، وقد تكون الهلكة.

فإذا رجع، دخل في مرحلة (الصحو بعد المحو) ليمارس حياته، وقد فهم التوحيد، على أنه لا حلولية الحلاج ومدرسته، حيث قال: (الله في الجُبَّة) ولا ليلى وسعاد وغيرهما من تهوسات ابن الفارض ومدرسته، سيّما حين لا يكتفي بالتأنيث وتوصيفاته، من التأوّد إلى العيون والثنايا والطيف والخيال، بل يسف إلى أكثر من ذلك، حيث يقول على سبيل المثال:

منازلها مني الذراع توَسّداً ... وقلبي وطرفي أوطنت أو تجلّتِ

وهذا الانحدار في التصورات المادية، ينبو عنه حتى الذوق العادي السليم. ناهيك بأصول العقيدة وحقائقها حول ما يتعلق بالذات الإلهية حيث يحرم توصيفها.

ونفهم مدى الخطورة في ذلك، من تحذير لأمير الموحدين، وإمامهم علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي رفعه فهمه للتوحيد إلى أن يؤاخيه

رسول الله ﷺ ولا يؤاخي غيره، وإلى أن يعطيه ربّه عزّ وجلّ أن يكون إمام الموحدين في الدنيا والآخرة.

فلنقرأ بخشوع ومسؤولية ما يقول عليه السلام، لأن الكلام عن الله تبارك وتعالىٰ:

«وكمال توحيده نفي الصفات عنه، لدلالة أن الصفة غير الموصوف، وأن الموصوف غير الصفة، فمن وصفه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّأه. . .».

أما ميزان العقول في هذه المسألة، مسألة التوصيف والصفات، فهو أمر الله عزّ وجلّ بأن لا يـدْعَىْ إلاَّ بأسمائه الحسنى، علماً أنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في غيره من مصادر العلم المحققة، أية إشارة لجواز توصيف ذاته تبارك وتعالىٰ، سواء كانت الصفات عين الذات أو مغايرة لها، والآية الكريمة في هذا الصدد، أفصح وأبلغ من أن تشرح، قوله عزّ شأنه:

﴿وَلِلَّهِ الأسماءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

وما دام بحثنا في العقل الإسلامي، وفي التوازن والاتزان في فكر التوحيد، فمن أين أتى القول بالصفات، إذا كان منهياً عنها بنص صريح من القرآن المجيد لا لبس فيه ولا مجاز ولا كناية، ولا أدنى إشعار بجواز القول بالصفات، ولو كان القول بأنها عين الذات. ثم نهي أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو أفضل من فهم التوحيد وفهم القرآن بعد رسول الله محمد ﷺ، وكلامه على حسمه ووضوحه حجة دامغة يجب أن تسقط معها مجلدات خاضت خبط عشواء في هذا المعترك، فالحق أولى أن يتبع، ولو كان اتباعه سيكلف هدم تراث جذاب أسّس على الخطأ شأنه في ذلك شأن كلمة «واجب الوجود» ويعنون بها الله تبارك وتعالىٰ، وهي كلمة أفرزتها وأخواتِها الفلسفة والمنطقُ وعلم الكلام، وصحيح أنهاْ حلّت مشكلة هي أساسية فقط ـ بالنسبة لهذه الميادين الثلاثة، ولكنها لم تكن مشكلة بهذا النحو المعقّد بالنسبة للعقل الإسلامي خاصة.

لأن العقل الإسلامي الذي تَرَبَّى بين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وبين أدلة القرآن في إثبات أنه لا إله إلاَّ الله، أعطي منهجية يعجز عن مثلها الإنس والجنّ مجتمعين، يقيناً أن هذا العقل، وبالبديهة والتجربة، كان وسيبقى ـ بفطرته وقرآنه ـ هو الوحيد القادر على ضبط الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وهو طالما ضبط وطالما صحّح، وما زال أمامه الكثير، لإسقاط بنايات كرتونية في هذه العلوم، ما أنزل الله بها من سلطان.

وإذا كان همّنا كبيراً بتخليص فكر التوحيد ممّا تنسج حوله العناكب، فإنَّ ذلك وحده كفيل بإعادة الشخصية الإسلامية إلى قاعدتها الأصيلة، ولأن ذلك وحده كفيل بأن يرفعنا من سفساف القول والكتابة، وينقذنا من الغرق في رمال متحركة بين أطنان من الكتب الصفراء، التي هي رغم فقرها وبُؤْسِها، تبعث اليوم من موتها في حلل جديدة، لتقدم من جديد، لعقول مشاريع العلماء، ورواح مكانك. . . مع نفس المواد من ألف سنة.

أما إذا احتجّ علينا ـ كما هي العادة ـ بعصبية ونزق، بأن الإمام الخميني، قاد الثورة المظفرة، التي قلبت موازين الأرض، وقَصَمَتْ ظهور الطواغيت، وأن الطالقاني، وأن مطهري، وأن بهشتي. . . وغيرهم على ساحاتنا الإسلامية، ممّن هم مصاديق لقوله عزّ وجلّ:

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

أقول، هذا صحيح، وأقول، هؤلاء أشخاص تاريخيون، ربّاهم الله عزّ شأنه بفكر التوحيد، وما ربّتهم كتب (راوح مكانك).

ونظرة رصينة متأنية، في أفكار أكثر طلّاب العلم اليوم وشخصياتهم، كذلك المتقاعدين عن طلب العلم والذين همُّهم الجباية، هذه النظرة قد تبكي الناظر من الإشفاق والمرارة، لا سيّما إذا ربطنا هذا الفقر النوعي، بنسبة التكاثر المتصاعدة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

أمَّا سبب هذا الفقر النوعي، والغرور والعصبية، والتقاعد والجباية. . . فهو هزال فكر التوحيد، وحيث يكون الهزال يكون نسيج العنكبوت وشباك الشياطين.

هذا النقد القاسي في ظاهره، مبني أصلاً على توقير كبير واحترام عميق لرجال الدّين الأصيلين، يعني للعلماء الذين هم أهل في الحقيقة، لأن يكونوا ورثة الأنبياء عليهم السلام، كما قرّر رسول الله محمد ﷺ مؤدّياً في تقريره هذا رسالة ربّه رب العالمين عزّ سلطانه، حيث قال ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء. هذا إضافة إلى ثناء الله عزّ وجلّ على العلماء، في موارد كثيرة من كتابه الكريم. آمِراً سبحانه بوجوب التخصّص في العلوم الدينية، وجوباً كفائياً. مرجعنا في ذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

نفهم منها أنه ليس لكلّ مسلم أن يدّعي لنفسه كونه رجلَ دين بمعنى الاختصاص، أو أن يدّعي كونه عالماً دينياً، إلّا إذا استجمع من الشرائط الكثيرة المهمة ما يخوّله لذلك. وهذه الشرائط معروفة في توصيف الله عزّ شأنه للعلماء، وكذلك توصيف رسوله ﷺ وآل بيت النُّبُوَّةِ عليهم السلام. فإذا فعل طالب العلم ذلك متوخياً استجماع الشرائط، كان طلبه للعلم الديني العملي، هو ساحة جهاده، وتبعاً لذلك يسمّى بحق: رجل دين، وكان على الناس بكافة مستوياتهم وحقول اختصاصاتهم غير الدينية، أن يرجعوا إليه، ليدلّهم على أقوم السبل المنجية من الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

والواقع أن عدم فهم هذه الحقيقة، شجّع بعض الكتّاب، على شنّ حملة تجريح برجال الدين، فأخذوا، وبمعلومات دينية سطحية، تارةً يدعون

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

الدول العلمانية، لاستيعاب رجال الدين وتوظيفهم، وبذلك تكم أفواههم وتلجم أقلامهم. وتارة يوجهون إليهم تهماً عبر مقاييس غربية أو غريبة عن شرعنا المقدس، وتارةً يظنون بهم الظنون التي هي أبعد ما تكون عن واقعهم الطاهر النظيف، وتارةً يتخذون نموذجاً فرداً من رجال الدين، يوافق كونه مَحَطَّ نقد، أو يكون غير ذي أهلية، فيحكمون عليه، ثم يسحبون هذا الحكم على جميع العلماء، وهذا من أكبر الدواهي التي تسقط معها قواعد الشرع وحتى مقاييس علم النفس وعلم الاجتماع وجميع العلوم العقلية والأخلاقية.

ولذلك وجهنا يوماً كتاباً مغلقاً، لكاتب قفز من حقل اختصاص غير ديني، ليهجم هجوماً شرساً على رجال الدين عامة في كتاب له ضمّنه كل ما أسلفت إليه من التهم والظنون، انطلاقاً من حكمه على نموذجٍ واحدٍ أو اثنين أو ثلاثة من الحالات الشاذة، وحيث إننا استرسلنا بهذا الصدد في حديث مكشوف، وجدت بإذنه تعالىٰ، أن أجعل هذا الكتاب الذي أرسلته إليه، مفتوحاً، ليكون رداً مهذباً على أمثاله، سائلاً الله تبارك وتعالىٰ أن يجعله بارقة هداية لهم، لننعم وإيّاهم بمغفرته ورحمته، ورضاه ورضوانه.

وهذا نص الكتاب بحرفيته، مسقطاً منه فقط اسم الكاتب:

عزيزي الدكتور... دمت سالماً،

السلام عليكم وتحياتي الطيبات، وبعد،

آن لي أن أصارحكم بشعوري اتجاه كتابكم الذي فيه أعاجيب لعلّ أعجب ما فيها أن يكون ضميرك مرتاحاً من جرائها. ومن الأمثلة البارزة إصداركم تلك الأحكام الظالمة من حيث تعميمها على رجال الدين. ولعلّ لا بدّ من القول، أن اهتمامي بهذا الأمر ليس غيرة على السلك، بقدر ما هو غيرة على الحقيقة، لذلك رأيت لكم وجوب المراجعة، مجرداً عن التأثيرات الذاتية والخصوصية عندكم، وفي ضوء استجماع أشمل وأعمق للحقائق.

لك أو عليك المـردود من الله عزّ شـأنه. ثم بنسبـة إيجابيـة التأثيـر أو سلبيته، كذلك بنسبة كيفـه وكمّه عمقـاً واتساعـاً يكون الثـواب والعقاب في الدنيا وبعدها. . . صحيح أن الاعتراف بالخطيئة والتراجـع عنها أمـر يحتاج إلى شجاعة، ولكنه في أسوأ الأحوال، أفضل من التلبّس بالخطيئـة والتغطّي بظلّ الإصبع. ومسؤولية خطيرة الإبقاء على هذه الشتول دون تنـويه مكتـوب بإسقاطها، أو على الأقل تـوجيهها، لتثمـر سنابـل لا مجامـر في بارود هـذا المجتمع الذي بات على شفير.

جنبنا الله وإياكم الخطأ والزلل. . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بعناية من ربي الحبيب، انتهيت من تأليف هذا الكتاب

٢١ جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ/٤ كانون الأول ١٩٩٣ م